
لذّات سرّية
حمدي الجزار
رواية
مدونة ابو عبدو
الدار

لذَّات سرِّية

اســـــم العمـــــــل: لذات سرية

النـــــــــــــــوع: روايـــــــة

تـــــــــــأليف: حمدي الجزار

الطبعـــــة الأولـــــى: ٢٠٠٨

تصـــــميم الغـــــلاف:

الطباعـــــــــــــة: مطبعة آتيليه تاتش - المحروسة

الناشـــــــــــــــر: الدار للنشر والتوزيع

تليفـــــــــــــون: ٠١٠١٤٦٤٧٢١ ٠٠٢

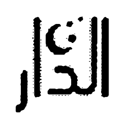
بريـــــد إلكترونـــــى: eddar_press@yahoo.com
mohamed.salah@elddar.com
mekkawi.said@elddar.com

الموقع على الإنترنت: www.elddar.com

المـــــدير العـــــام: محمـــــد صـــــلاح مـــــراد

رقـــــم الإيـــــداع: ١٤٨٤٦ / ٢٠٠٨

التـــــرقيم الـــــدولى: I.S.B.N. 978-977-6227-45-3



لــذَّات ســرِّيــة

روايــة

حمــدي الجــزار

الدّار

٢٠٠٨

الــدار للنشر والتوزيــع

يـــوم وليـلة

1

نفـــق

كنا فى طريقنا إلى النفق.

خلف ظهرينا ميدان الجيزة جهنم حمـــراء. صاخب، مـــوّار، ممتلىء لآخره بالأضواء والأصوات والأشكال، ومــزدحم وزاخــر بالبشر والجمادات، والسلع من كل صنف ونوع.

الميدان مستطيل عملاق ملتوٍ، متعرج، وغارق فـــى أضـــواء المساء المنبعثة من بناياته وأبراجه العالية المتناثرة علـــى نواصـــى شوارعه الشهيرة: مراد، الجامعة، الصناديلى، سعد زغلول، وصلاح سالم.

صلاح سالم اسمه السابق الربيع الجيزى. بناياته قديمة وواطئة، وبعضها متداع وآيل للسقوط. يحتل بعض طوابقها الأرضـــية بنـــك مصر، متجر الغليون، سينما الفنتازيو ومقهى السَّمر. عمارات طوبية وصفراء كالحة، على واجهاتها عشرات اللافتـــات العتيقـــة لأطبـــاء

مشاهير، ومهندسين كبار، ومحاسبين وشركات استيراد وتصدير، ومعامل طبية، ومكاتب محامين.

مكتب أبى إدريس الحاج المحامى هناك، فى عمارة الخواجة خير، على ناصية شارع سعد زغلول، وفى مواجهة مطعم المانش للفول والطعمية.

على أسطح معظم العمارات والأبراج المطلة على الميدان تستند هياكل حديدية عالية. تحمل لافتات نيون تشع بصور عملاقة لمطربين ومطربات، لاعبى كرة قدم، داعية خليجى شهير، أفيشات أفلام جديدة. وإعلانات براقة مضيئة عن مبيدات حشرية، وسيارات، وعلب سمن، وأطقم حمامات وسيراميك، حدايد وبويات، ومبولة وحيدة هائلة الضخامة.

تنبعث أضواء صفراء خافتة، من مصابيح الأعمدة المعدنية، بطول الكوبرى العلوى الذى يقطع الميدان قادمًا من شارع فيصل ومطلع المحكمة بصلاح سالم.

بامتداد جزر الشوارع الأرقى، كالنيل ومراد والجامعة، تنتصب فوق دعامات حديدية متوسطة الارتفاع لافتات حديثة جدًا، تضىء بوجوه وأجساد شهيرة على كلا جانبيها، تدريجيًا وبانتظام تتشكل بالضوء والألوان كل ثوان قليلة وجوه نجمات غناء مصريات وعربيات، فتيات إعلانات شركات المحمول، موديلز قمصان النوم والمكياج، وملابس الكاجوال والسهرة.

لافتات عتيقة بالية، وأخرى جديدة لا تحصى، معلقة على ارتفاعات وأدوار متعددة فوق عمر أفندى، وأسواق الشريفين، وبرج مصر للتأمين، وعمارة النصر.

تفرش سماء الجهة الشمالية للميدان — حيث الطريق إلى الجامعة — أضواء مئذنة مسجد الاستقامة، والإشارات الضوئية لسارية البرج الحديدى العالى إلى جوار سنترال الجيزة.

الساحة الواسعة بين محطة الأتوبيس والسنترال، فى حضن الجامع ومركزه الطبى، تحتلها فرشات باعة المصاحف والكتب الدينية، وشرائط التلاوة والخطب والوعظ والإرشاد، والسواك، وباعة العطور والبخور السودانى والهندى. البخورعبارة عن أعواد رفيعة برائحة الياسمين والصندل المقلد فى علب طويلة ملونة، أو حبيبات هشة فى مثلثات ورق سميك.

أمام أنوف باعة العطور والمسابح زجاجات مربعة صغيرة جدًا، بها نقاط من المسك والياسمين والعنبر. زائفة، مقلدة ورخيصة. الزجاجات مرصوصة على مفارش رمادية، وإلى جوارها مسابح رخيصة من الخشب والبلاستيك والحجر، فوق حوامل معدنية رفيعة طويلة.

على الأرض، أمام باعة شيوخ بجلاليب قصيرة ولحى شايبة مهيبة، فوق قماش متسخ، تتراص أكياس بلاستيك صغيرة عليها وريقات بكتابة بدائية تصف اسم العشب وفائدته الطبية. أعشاب

علاج المغص والإسهال، تقوية الباه وإطالة زمـن الجمـاع، العنـة والعقم، حصوات الكلى والصداع، الغلمة وعرق النسا، العشاء الليلى والتبول اللاإرادى، التليّف الكبدى والعته المنغولى.

على مدد بصر المتسكع من أمثالنا حوامل خشبية صغيرة تحت شماسى مهترئة قديمة. حوامل تُفتَح وتطوى، فوقها أكوام مرصوصة بعضها فوق بعض من سيديهات السوفت وير، والبرامج شديدة القـدم والحديثة جدّا. سيديهات وديفيديهات أفلام الحب والرعب والكوميـديا العربية، الإثارة والمغامرات الأمريكية، العرى والإغـراء التركيـة، الكرتون للصغار والكبار، والرقص الشرقى، ومصارعة المحترفين.

وأخيرًا، المخفية جيدًا، الرائجة جـدًا سـرًا، سـيديهات أفـلام البورنو العربية الواقعية، والأجنبيـة الفنيـة بتصـنيفاتها المعتمـدة: السوفت سكس، والهارد كور، والاسترات، والجاى.

معظم الباعة، خلف الحوامل الخشبية، شباب بجلاليب وطواقى ولحى هائشة طويلة، وقليل منهم مراهقـون فـى بنطلونـات جينـز رخيص وكابات إعلانية، وصدور مفتوحة نبت بها الشعر لتوه.

زحـام الباعـة والزبـائن والمـارّة ومنتظـرى الأتوبيسـات والميكروباصات سديم فوضوى.

هواء الميدان طنين مسـتمر، وهـدير متلاحـق ممتـد مـن الأصـوات. تخـتلط كلاكسـات أتوبيسـات هيئـة النقـل العـام،

والميكروباصات والتاكسيات وسيارات الملاكى مختلفة الماركات والألوان والأحجام، بأصوات احتكاك عجلات السيارات بالأسفلت، وما ينبعث من مسجلات الباعة فى شتى أنحاء الميدان. من المتاجر والدكاكين والأكشاك، والفرشات، وحناجر الباعة الجائلين، وأفواه منادى وصبيان ميكروباصات الهرم وفيصل، وبنى سويف والفيوم، من كل صوب تتصاعد فى الهواء موجات متتابعة من الأصوات، غزيرة، صاخبة ومتنافرة.

تختلط الأغانى العربية والأجنبية بتلاوة القرآن وخطب الوعظ والأناشيد الدينية، وتمتزج بأذان المغرب الصاعد للسماء من مسجد الاستقامة والأذان الآخر القادم من جامع نصر الدين، فى الجهة الأخرى من النفق.

لا ينقص أصوات الميدان سوى دقات أجراس كنيسة مار جرجس للأقباط الكاثوليك بشارع الدرىّ. كنيسة عتيقة يعلو قبتها أيقونة دائرية من الحديد لمريم العذراء، تحمل المسيح على صدرها، ويظللها صليبها الضخم فوق برجها العالى.

الكتلة الخرافية للأصوات والأضواء والألوان والأشكال تنصهر مع حركة موجات متتابعة من الناس.

بشر كالنمل الخارج قبل أوانه من بيات شتوى طويل. فلاحون وأفندية، عمال وبهوات، موظفون ومهنيون، شباب وأطفال وعجائز، رجال فى جلاليب وعباءات وطواقى وكوفيات، فى قمصان

وبنطلونات، بدل كاملة، أزياء عمل رسمية، وسترات جيش وشرطة. فى الحشد نساء، شابات وعجائز، فى فساتين وتييرات، وبنطلونات وعباءات، محجبات وسافرات ومنقبات..

خَلْقٌ يزحفون فى كل شارع، فى كل اتجاه.

اليوم خميس. يوم وليلة الخميس هو يوم الحشر، وليلة الساعة الأسبوعى فى الميدان.

يتدفق الموظفون والعمال الصعايدة إلى الميدان من أنحاء القاهرة الكبرى والمدن الجديدة، من كل صوب يأتون هنا ؛ ليغادروا إلى قراهم فى الجنوب. يملأ بعضهم محطة السكك الحديدية ومداخلها القريبة من الميدان عن آخرها، وينتظرون قطارات الدرجة الثالثة. صعايدة آخرون يتوزّعون على المقاهى والمطاعم والمحلات، يتزاحمون ويتجولون هنا وهناك، أو ينتظرون فى مواقف الأتوبيسات والميكروباصات. المواقف منتشرة حول بقعة خضراء صغيرة بقلب الميدان تتوسطها ثلاث نخلات قصيرة، ومسيّجة بالحديد من أربع جهات.

الشمس غربت تقريبًا، واختفى قرصها الأصفر من الميدان. لعلها غطست فى الصحراء، هناك بعيدًا، أقصى الغرب، وراء الهرم الأكبر وأبى الهول.

سماء الميدان رمادية مزدهرة بالدخان والتراب، وخيوط الظلمة

تنتشر وتتوغل مكتسحة ما بقى من زرقة ونور. برد الخريف منعش وخفيف فى نهاية نوفمبر.

على يميننا، قبل النفق بخطوات قليلة، مبنى " التوحيد والنــور " شوبنج سنتر، واجهته الزجاجية العملاقة تحتــل عــرض وارتفــاع طوابق ثلاثة من مبناه الرزين متوسط الارتفــاع. بطــول وجوانــب الفاترينات العملاقة إسبوتات إضاءة كبيرة، مسلطة علــى مانيكانــات تنتهى برقبات مبتورة، بلا رؤوس، فى الحجم المتوسط للبشر. دمــى ترتدى ملابس رياضية رجالية، جلاليب بيضــاء فــاخرة وأخــرى رخيصة، عباءات نسائية فضفاضة سوداء وبنيــة وأخــرى قاتمــة، أشكال مختلفة من الحجاب الشرعى والنقاب، كلها ســادة، بيضــاء، وسوداء، وكحلية. مانيكانات بأجسام صغيرة ترتدى ملابــس أطفــال عصرية، دمى بلا رؤوس أيضًا. لا مانيكانــات تعــرض الملابــس الداخلية، ولا قمصان النوم، ولا أزياء البحر.

الفاترينات العملاقة تــزدحم بالأحذيــة والشباشــب والحقائــب الجلدية، وتتراص فيها أدوات المطبخ والمائدة بجــوار الراديوهــات والمسجلات والتليفزيونات والكمبيوترات. المتفرج يجــب أن يبتعــد قليلاً عن زجاج الفاترينات ويرجع للخلف خطــوتيْن ؛ حتــى يــرى المعروضات بشكل أفضل. أما المستهلك المحتمل الذى يتجول هنــاك فى الجهة المقابلة، أمام شادر ومول الزعبلاوى فستجتذبه الفاترينــات الزجاجية العملاقة ؛ فيعبر الشارع قادمًا إلى " التوحيد والنور "، تشده المعروضات اللامتناهية كمصابيح عملاقة تجتذب بعوض الدنيا كله.

المستهلك النشيط لابد أن يأتى لموقعنا هنا، حيث تلكأنا قليلاً. سيعبر من أسفل الكوبرى تاركًا الزعبلاوى خلف ظهره ؛ ليرى جنة "التوحيد والنور"، يتفرج عليها ويتأملها لبعض الوقت، ثم يدخلها.

أعلى المبنى تلتف أحبال اللمبات الصفراء والحمراء والزرقاء حول لوحة ضخمة مكتوبة بضوء النيون: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

اللمبات الملونة تلقى بأضواء شجيحة على مطلع الكوبرى أمام مدرستى القديمة، مدرسة الصامت الأبدى، مدرسة أبى الهول القومية، وعلى محطة البنزين، والمقاهى العتيقة المجاورة للسنتر.

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾.

أشعر بالضياع.. بالخوف.

دخلنا النفق بخطوات وئيدة، وكل منا يتأبط الآخر ندندن "ظلموه.. تا.. را.. را، تا.. را.. را ".

وقفنا، تقريباً، فى منتصف نفق الهرم خافت الضوء، على الطوار الأيمن الضيق الذى يتسع بالكاد لشخصين.

ثنيتُ ركبة رجلى اليمنى وأسندتها لحائط النفق مسترخيًا فى وقفتى.

أضاءت ابتسامة عريضة وجه حارث الأسود الوسيم. فمه واسع، وأسنانه شديدة البياض وينقصها سنّان فقدهما فى إحدى معارك مراهقتنا. رفع طرف بلوفره البنى الداكن. بلوفر خريفى، ياقته على شكل سبعة، ولم يخرج من الموضة بعد، تحته قميص أبيض واسع يخفى صدره النحيف. مد يده لجيب القميص تحت البلوفر، وأخرج سيجارة ملفوفة جاهزة. طرقع إصبعى الإبهام والوسطى فى يده اليمنى بحركته المعتادة، ومد يده اليسرى إلىّ بالسيجارة المنتفخة: " صباحو عنب.. ولّع ".

بقع وخيوط البول على حائط النفق سوداء، ورائحة الصنان خفيفة وذائبة فى سحابة رائحة التبغ المستقرة بسقف النفق، تغذيها باستمرار مداخن الشركة الشرقية للدخان، الموازية لخط السكة الحديد.

خط السكة الحديد فوق النفق، وفوقه خط آخر معلق للمترو.

مر المترو بهدير خافت.

تناثرت من عيني حارث نظرات مبتهجة وهو يشعل لى السيجارة بولاعته الذهبية، سحبت نفَسين طويلين بتلذذ وأعدتها إليه، تبادلنا السيجارة ونحن نشد أنفاسها على مهل منشرحيْن، بوجهين فرحين نتابع سحابة الدخان الأزرق فوق رأسينا. مع الدخان الخارج من شفتى حارث خرجت متقطعة جملته الأثيرة فى مثل هذا الحال: "ألذ حاجة فى الدنيا إيه ؟.. إيه ؟.. الحشيش، والتحشيش فى

الهواء الطلق.. هاها ".

السيارات تعبر النفق فى اتجاه الميدان مسرعة فى خط صاعد، يبدو لا نهاية له.

لا مشاة فى النفق. النفق خال إلا منا، أنا وحارث.

فجأة، تباطأت سرعة ميكروباص فيلوكس برازيلى مهكع وغاص بالركاب، وأطلق سائقه سرينة طويلة وهو يتوقف أمامنا.

مع الرقبة الغليظة المجعّدة الخارجة من شبّاك السائق طلع لنا وجه ضخم عتيق، داس عليه القطار منذ دهر طويل، وجه مستطيل متعرج كميدان الجيزة، بعينين ضيقتين لئيمتين وأنف شائخ كبير وجبهة ضيقة غزيرة التجاعيد، تحت شعر كثيف شديد البياض.

من فمه الأهتم الواسع وشفتيه المشطوفتين أطلق العجوز الطاعن صفيراً متصلاً..

" بششششش ".

رفع حارث وجهه إلى العجوز، وابتسم ابتسامة صفراء.

" حالش، حالش.. صباح الخيييل ".

من أنفه تكلم حارث:

" مسا وخلاص.. تعالى خدلك نفَسين ".

إجباريًا توقفت السيارات فى صف طويل خلف ميكروباص العجوز، ميكروباصه الرمادى بباب مفتوح، يزوّد الركاب باستمرار بدخان العادم والتراب ونزلات البرد والأنفلونزا، واحتمالات الوقوع منه خارجًا إلى نهر الطريق. الباب مربوط بحبل متين ؛ توفيرًا للاستعمال وكى لا يغلق أبدًا.

من السيارات المتوقفة خلف العجوز تعالت كلاكسات طويلة ممتدة، ومن نوافذها خرجت أيدى تلوح وتشوّح، وأفواه متعددة تطلق، بسرعات وارتفاعات متفاوتة، شتائم قبيحة تنصب على عضو حسّاس فى جسد أم العجوز.

أشاح العجوز بكلتا يديه، وهز رأسه غير مبالٍ، ثم ضحك ببله طويلاً، مع نفسه.

غمز بعينه اليمنى، وقال بدلع حمار وحشى مخطط:

" شُكلن يا حالش.. أنا حلو.. حلو ومولّع ".

ومد رقبته السمينة نافرة العروق الخضراء، وأشار لعرنوس البانجو نفّاذ الرائحة، وهزه فى يده اليسرى المدلدلة فى الهواء خارج الشباك.

داس بنزين فجأة فاهتزت الميكروباص، وتحركت تهتز وتشخلل بصفيحها الصدئ، تتصاعد منها ضحكات سائقها الهستيرية وشهقات

وصيحات مذعورة لركابها المفزوعين. تمايلوا، تخلخلوا، وتخبطـوا في ظهور الكراسي وجوانب الميكروباص وسقفه، تصادمت أكتـافهم ورؤوسهم، ووقع بعضهم فوق بعض.

من شباكه لوّح لنا العجوز بيديه الاثنتين، تاركًا مقود القيـادة، نفّض أذنيه من أصوات ركابه وأخرج من بين شفتيه: "هيء هيء".

وصاح لنا: " شلام.. شلام يا حلوين ".

نطر حارث كلتا يديه في الهواء، كمن يتخلص من هـمٍّ ثقيـل زفر: " سلام ".

بمزاج عكّره العجوز ناولت حارث السيجارة.

" إخ إخ.." ضحك نصف ضحكة، ويده تشـير إلـى السـائق العجوز للميكروباص المهكع:

" سيد العُقْر.. أوسخ واحد في الجيزة.. وضواحيها ".

قلتُ " آه.. آه "، وهززت رأسي.

عبر ميكروباص العقر النفق في اتجاه الكوبري، وخلفه مازالت السيارات تطلق كلاكسات متواصلة، من شبابيكها تخرج رؤوس نساء ورجال تبصق في الهواء، وتصيح بشتائم فاضحة متواصلة.

صعد الميكروباص مطلع الكوبري أمام مدرسة أبـي الهـول،

وانطلق بسرعة هائلة كقذيفة مدفع عتيق ستنفجر بعد ثوان قليلة في سماء الميدان، وبمجرد غيابه عن بصرنا.

أعطاني حارث ما بقى من السيجارة، " البوسة " الأخيرة، وهو يلقف شهيقًا عميقًا، فصدر صوت كشخير خفيف من لحمية أنفه.

مر فوقنا قطار في طريقه إلى محطة رمسيس، وهو يطلق صافرة عالية متصلة. الصوت المنتظم لعجلاته فوق القضبان يصم الآذان. وضعنا أيدينا فوق آذاننا. انحنينا وقرفصنا على بلاط طوار النفق.

ثقيلاً بطيئًا عبر القطار كثير العربات، كأنه يدوس فوق دماغنا، يهرسها، ويسوى جسدينا بالأسفلت. بانقشاعه زفرنا في ارتياح، ووقفنا على حيلنا مرة أخرى.

ضغطت الفلتر الذى عمله حارث من غلاف علبة مارلبورو أحمر بآخر مللى في السيجارة.

حارث أعطاني ظهره ومضى، تركني أكح وأسعل، مثل عجوز طاعن، سعالى الجاف المعتاد. ومشى مجتازًا نهاية النفق وعبر لنصر الدين، أول شارع الهرم.

أطلت البوسة، وامتصصت آخر نفس باستمتاع، وبطء.

2

حـــارث

سبقنى بخطوته الواسعة المتعجلة دومًا. يداه تتأرجحـــان يمينًـــا ويسارًا، ورجلاه الطويلتان تتحركان للأمام كأنهما تخوضـــان وحـــلاً طريًا تحت قدميه.

أنا خلفه خطوتى بطيئة، ثقيلة، أمشى كفيل عجوز.

بدا حارث من ظهره طويلاً برأس بيضاوى كبير مثبت مباشرة فوق كتفين ضيقتين، وجسد نحيف، شعره الأسود مجعد قصير يخرج كنبات حلفا من جمجمته الضخمة، لم يكن له رقبة قصيرة جدًا فحسب بل يبدو مولودًا بلا رقبة من أصله. حارث بنى آدم يســتحق الرثــاء الحميم الذى تغرقه به عزيزة بمناسبة وبغير مناسبة، وهى تحدق فيه بعينيها العسليتين الواسعتين: " يا عين أمك يا اخويه ! "

من الخلف، يمكن أن يشعر الواحد بغباء التناقض بــين جســد حارث وبين وجهه الجميل بعينيه النفاذتين شديدتى الســواد، وأنفــه المستقيم، وشفتيه الممتلئتين، ويستنتج من حركته العجولــة إدراكــه

لعيب جسده، ويعرف من مبالغاته الهزلية أنه يخفى انعدام ثقته بنفسه، واحتقاره المستتر لذاته.

منذ نحو عشرين عامًا مضت كان حارث شريك تختــى فــى الإعدادية. هو ابن عم حسن بوّاب مدرسة أبى الهول، كهــل طيــب ضخم له وجه أسود وثوب أبيض واسع وعمامة بيضاء، وأمه: خالة آمنة، تبيعنا الحلوى والكراسات والأدوات الهندسية والأقلام، فرشتها الصغيرة على يمين بوّابة المدرسة الحديدية، قريبَة من دكة زوجهــا، وجهها داكن السمرة صبوح منير بابتسامة مطمئنة، تعطينا ما نريــد دائمًا متبوعًا بقبلة صغيرة على الخد، وهى تهمس برقة وحنان " كلكم ولادى يا عفاريت".

لم يكن لها سوى ولد وحيد، مشاكس، شــقى، وحــانق دومًــا، يشاركنى التختة والسندوتشات، والهــرب أحيانًــا مــن المدرســة ؛ للصرمحة فى سوق الجيزة، أو دخول سينما الفنتــازيو، أو التســكع بشارع الهرم، أو للتجول بحديقة الحيوانات.

حارث، ابن الخالة آمنة، ابتعد عنى كثيــرًا، وعبــر جزيرتــى الشارع إلى الجهة الأخرى، يكاد يغيب عن ناظرى فى حشد الماشين على الرصيف الأيمن لشارع الهرم.

أتابع سيرى بخطواتى البطيئة وبصرى معلق بوجوه الناس من حولى، بلا وعى منى تترصد عيناى اليقظتــان المشــاة المــزدحمين بالطوار، والرائحين والجائين.

منذ خروجى من البيت اليوم أبحث، بين الوجوه الكثيرة فى الشوارع، عن وجه واحد سيطاردنى ما بقى لى من عمر إن كان فيه بقية. وجه سيلاحقنى أينما أذهب، وفى صحوى ومنامى، وجه صار يسكن رأسى، لا يمكننى الفرار منه، ولا أستطيع محوه من دماغى منذ أخبرتنى نشوى - ليلة أمس - بحقيقة حالى، ووضعى المخزى.

ينمو فى أعضائى جزع يفح وينفخ، يترسخ فى قرارة قلبى، ويمنعنى من أن أصير كهؤلاء اللامبالين بالموت، المندفعين فى الشوارع والميادين سعيًا وراء ما يسمى بالحياة.

أنا، منذ البدء، منذ رأيت نشوى للمرة الأولى سعيت لحتفى، سعيت كأعمى ظامىء إلى النهر لأشرب، ولأننى لا أرى ؛ فقد شربت أحلى، وأعذب ماء ممكن، ورويت برمتى حتى عنقى، ثم زلت قدمى، وسقطت فى اليم.

أحس الفساد والعطب يصيب أجزاءً من جسدى وروحى كل ثانية، كل لحظة، وأصبح الخوف يمضى معى أينما حللت كظلى، يلتصق بى، يُقنّع وجهى ؛ فيعمى بصرى ويسد أنفى وأذنىّ، ويشل حواسى كلها. خوفى أن أُقتل، على حين غرة، أصبح عاهة، كالعمى والصمم والخرس، عاهة مزمنة لا شفاء لها، لا يمكن تجاوزها أو نسيانها. الخوف يدمر خلايا عقلى ويوقف نبض قلبى.

على امتداد بصرى، عند الناصية المقابلة، يركن حارث ظهره على عمود كهرباء أمام فندق "الفرعون"، ويده النحيلة تعبث بسلسة

مفاتيحه الطويلة.

أتردد طويلاً قبل أن أحاول عبور حـــارتىّ الطريـــق، الذاهبـــة لمشعل، والعكسية المتجهة لميدان الجيزة.

أقدم قدمًا وأؤخر الأخرى ؛ خشية أن تدهمنى ســـيارة وأمـــوت ككلب ضال فى عرض الطريق.

بعد وقت وحذر طويل أعبر الحارة الأولى وعيناى مفنجلتـــان فى رأسى مثبتتين على السيارات القادمة فى اتجـــاهى. أقـــف فـــى الجزيرة الصغيرة وألتقط أنفاسى.

بعد دقيقتين أعبر الحارة الأخرى زافرًا بارتياح: أُف..

بينى وبين حارث نحو خمسة أمتار فحسب. أراه يطوح بيمنـــاه الطويلة وهو يحادث شابة بيضاء بضة الجسم، مقدمة شعرها الأشقر الظاهرة متناغمة ولون وجهها الأبيض، باقى شعرها غائـــب تحـــت طرحتها الملوّنة اللامعة، أصابع يديها الاثنتين تشد طرحتها لأســـفل كل دقيقة ؛ لتغطى جزءًا أكبر من جبهتها.

يبدو أن البنت تخشى أن تبدو عاهرة غبيـــة، يتعـــرف الواحـــد عليها من مجرد النظر إلى ملابسها ؛ لهذا أضافت لاكسسواراتها هذه النوع المنتشر من الطرح الملونة ؛ ليحفظ التـــوازن المـــأمول بـــين التعهر، والستر، بين غواية الفاهم واحتشام دينى عصرى.

كانت طرحتها تعمل بنجاح مثل ماكينة خياطة جيدة، إذا أرختها على كامل ناصيتها بدت طالبة عادية من طالبات جامعة القاهرة العريقة، بدت جامعية محجبة تدرس اللغة العربية مثلاً، وإذا أعادتها قليلاً للوراء ستنتقل من دراسة اللغة العربية إلى دراسة الإنجليزية، وإذا زادت المساحة المكشوفة من شعرها ستنتقل إلى دراسة التمثيل بالمعهد العالى للفنون المسرحية.

أكاديمية الفنون على بعد دقائق مشيًا من هنا.

لم أفهم حيلتها هذه إلا من تكرار جذبها وشدها لطرحتها من حين لآخر. طرحتها لا صلة لها ببقية ملابسها، بنطلونها جينز أزرق محزق، وبلوزتها الوردية مفتوحة الزرار الأعلى تكشف مفرق نهديها. نهداها نافران تحت البلوزة، مدوّران كرمانتين كبيرتين. بفمها الصغير لبانة ضخمة تدحرجها على طرف لسانها الأحمر، وتطرقعها كطفلة. وجهها الخالى تمامًا من المكياج برىء وجذاب.

تنظر إلىّ "من تحت لفوق"، وعلى وجهها علامات استهانة واستخفاف. شفتاها المنقلبتان لتجسيد احتقارها لشخصى الدخيل عليهما آلمنى قليلاً.

متباهيًا بنفسه أكثر من غرض تقديمى إليها، نفث حارث: "ربيع.. صاحبى".

لم يزد كلمة فوق ذلك. كنت أنتظر منه أن يذكر على الأقل مكانتى المرموقة، عملى الرفيع وشهرتى، مرتبتى الاجتماعية

والثقافية، عائلتى الكبيرة.. هأهأ، أن يذكر أية صفة من صفاتى الطيبة أو الخبيثة، أى شيء ينفع حجة لهبوط سريع، هبوط اضطرارى أنا فى أشد الحاجة إليه الليلة، فوق جسد هذه الأنثى المثيرة.

كان أسفل جسدها خصبًا بشكل غير متوقع، بالغ التناقض مع براءة وجهها. نظرة عينيها الواسعتين نظرة بقرة شقراء ريانة، كبقرة بنى اسرائيل !

تُكلّم حارث بسلطة وثقة مدرس يوبخ تلميذه البليد:

" يا ابا زق عجلك، الله يسهل لك ".

قالتها بغنة، بأغة محببة لهانم مترفة.

على الرغم من عبارتها الشعبية فإن نبرة ورنة صوتها بدت غريبة، لا تنتمى لهذه "البيئة" اللفظية، بدت لى للحظة مثل ممثلة ناشئة تربت وترعرعت فى المعادى، تلعب دور مومس نشطة، نشأت فى زقاق الشيخ بحوارى الجيزة، فى فيلم أبيض وأسود قديم.

قبل أن تتم عبارتها كان حارث، مدعى الحنكة فى التعامل مع بنات الليل، قد وضع يده على كتفى وأدارنى فى الاتجاه الآخر. بدفعة صغيرة من يده الكبيرة صارت البنت خلفنا، وظهرينا فى وجهها.

ساخرًا منها شخر حارث شخرة قصيرة وهو يلتفت إليها بعد أن ابتعدنا عنها ثلاث خطوات، وأطلق ضحكته المجلجلة المعتادة في اتجاهها، مخرجًا من شفتيه الغليظتين جملة مبتذلة: "هتندم يا جميل".

" ما لكش دعوة يا تقيل ".

أعجبت بردها البليغ، بالسجع في كلامها السوقي المتفرنج في الأداء !

لما أدرت رقبتي نحوها وجدتها قالبة خلقتها " كفردة شراب "، كأنها شمت رائحة كلب ميت خارج الأحشاء، ملقى على رصيف فندق الفرعون حيث كنا نقف.

رغم المبالغة التمثيلية التي تغلف صوتها وحركتها الاستعراضية إلا أنني صدقت انفعالها الغاضب، أو أردت أنا أن تكون صادقة. أتمنى أن ينفرج وجهها قليلاً، تهدأ ويعود وجهها لملامحه المستهترة كما كان.

فخذاها العريضان، المدكوكان بقوة في بنطلونها، أثارا حيواني بين فخذيّ فرفع قليلاً حجر بنطلوني.

رسمت لها على وجهي ابتسامة عريضة، شبه بلهاء.

قلت برجاءٍ مخزٍ: " ما تاخديش على خاطرك، دا.. حارث ".

كانت تنتظر توبيخًا أكبر، قالت بحنق حلو:

" عالم ما عندهاش نظر، تخيّل.. أنا، أنا البرنسيسة، البرنسيسة سيمون بميتين جنيه.. ميتين جنيه !! يا بلاش !"

لم أسألها مستهترًا كعادتى: هل هذا هو اسمك اليوم ؟

ماذا كان اسمك بالأمس ؟

أى اسم ستطلقين على نفسك غدًا ؟

أحسد طبيعة عملها التـــى تعطيهـــا حريـــة اختيـــار اســـمها، وشخصيتها كل يوم، كل ليلة.

احتج حارث صائحًا بوجه ثور غاضب:

" ميتين جنيه فى الساعة.. فى الساعة، إيه ؟!

يعنى يوميتك بألف وستمائة جنيه، لو اشتغلتى بس تمن ساعات زى مخاليق ربنا ".

بعد أن اصطنعت أحة، ووحة قالت لحارث:

" طب وهو أنت زيى يا عديم الشارب، عايز تكسب قدى ؟!"

صوتها الرنان ساخر ومستهين، وعجيزتها الكبيرة تتحرك يمينًا

ويسارًا بتوازن إيقاعى منسجم مع غنائية عبارتها الكريمة.

داس حارث على عظمة كتفى بكف يده المرتاحة على ظهرى، ضغط بحركة مؤامرة سرِّية:

"طب بطلى قباحة، وفاصلى مع الزبون ده، اتفضلى يا هانم".

ضحكت بمياصة ودلع، وهى تنظر فى وجهى بعين قوية: "فنجل عينك على الآخر يا عبيط، وعاين براحتك يا زبون".

استدارت ببطء بحركة استعراضية ساذجة، وهى تضع يدها على ردفها الأيمن وتدفع عجيزتها فى اتجاهى:

" شوف.. شوف يا بيبى ".

قالتها بغنج عاشقة مترفة تحت قضيب صاحبها.

صوبت عينيها فى وجهى لترى تأثير عجيزتها الملفوفة علىّ. كانت عجيزة مثيرة جداً، مرتفعة ومصوبة لأعلى، مسحوبة من فوق فخذيها لمصب خصرها، كبيرة ومشقوقة كبطيخة ضخمة، أتخيلها بطيخة بيضاء، شهية ومشربة بالحمرة.

"أعوذ بالله من عينك، تفلق الحجر!"

قالت بخوف متأصل من الحسد وهى تستدير لتواجهنى.

دلقت صدرها أمام وجهى، ووضعت يدها على شعرى:

"أساوى كام يا زبون ؟!... هاه ؟"

من لمسات أصابعها الطويلة الرقيقة لشعرى سرى فى جسدى خدر خفيف لذيذ، تيار كهربى ضعيف.

عندما حدقت فى عينيها، وجدتهما حزينتين حزنًا قديمًا راسخًا، تكابدان لإخفاء أسًى مرير مستقر..أف.

خشيت من خفة البرنسيسة، فانشغلت بجسدها عن البحث فى عينيها، فيما تبديه وتخفيه بسذاجة مفرطة ورحت أحدق فيها، أزن تضاريسها الكثيرة فى دماغى.

كان الجيب ما بين نهديها عميقًا ولامعًا، متوردًا وأبيض.

بلا مقدمات خطر لى فى تلك اللحظة أن أدفن رأسى بين نهديها، وأغفو واقفًا فى شارع الهرم، تحت بصر كل الناس، محتضنًا مومسًا ستكرهنى من أعماق قلبها.

يبدو أنه قد مر وقت طويل على صمتى واستغراقى فى تأمل سيمون إذ ضحك حارث مقهقهًا، شامتًا بى.

ضحكت هى معه وتأبطته.

"أوكيه.. ميتين جنيه، والعشا، وإزازتين بيرة، وسيجارتين يا بيبى".

بإخلاص دينى عميق وحقيقى قال حارث:

"على بركة الله، مش مشكلة التحابيش دى، موجودة إن شاء الله وأحسن".

شعرت أننى قد عدت سنوات طويلة إلى الوراء.

يبدو أننى ما زلت أتهيب الأنثى المفضوحة الجريئة، وأخجل خجل ابن الثالثة عشرة. ماجدة مدرّستى فى الإعدادية اندهشتْ من منظرى عندما رأيتها منذ شهر صدفة فى المترو، وذكرتها بنفسى فى نوبة حنين للصبا لا تتكرر معى كثيراً. قالت، بعد نظرة طويلة لوجهى: " انت نفس الولد الخجول.. مكسوف دايماً !"

خجلت، من نفسى، وسرحت فى تأملاتى الخاصة رغم صخب المساء، والزحمة الخانقة والكلاكسات الصاخبة والرائحة الثقيلة لبرفانها الثقيل، يبدو أنها لم تضع نقاطًا بل جردلاً من عطر مقلد بيد عطار ردئ. رغم عطرها الفج نأيت عنهما، أغالب سريان الشهوة فى نصفى الأسفل، وأعانى ألمًا فى أحشائى ينتابنى كلما لجّمت جماح رغبتى.

يبدو أنهما فهما ابتعادى عنهما خطوات وصمتى وسكونى خطأً، وفسراه بأنه شعور بالخذلان والخيبة. كنت قد صرت بالنسبة لهما نتوءًا زائدًا، لا حاجة له فى هذا المنظر المنسجم الذى يشكلانه معًا بلا ثالث.

كان علىّ فى تلك اللحظة أن أبقى منزويًا فى ركنى الخــاص. صامتًا، أحفر فى نفسى باحثًا عن أسـباب ولعـى المباغـت بجسـد سيمون.

أحدق فيهما ببله وهما يتبادلان الضحك إثر نكتة جنسية حرّاقـة سكبها حارث فى أذنها اليمنى. ضحكتها رنانـة، غيـر مصـطنعة، ومنطلقة بلا قيود.

يتأبطها حارث بلهفة من حاز أخيرًا كنـزًا يخشـى ضـياعه، ويسيران أمامى بخطوات متناغمة كأنهما وليفـان قـديمان، كأنهمـا عاشق ومعشوق منذ زمن.

سرت خلفهما كثالث مرفوع من الخدمة.

أتأمل جسد سيمون من الخلف، وأغالب الدهشة والذهول وأنـا أحدق فيها.

كانت حركة جسدها، خطوة قدميها وتطويحة رجليها مألوفة لى. اندفاع جسمها للأمام وتمايله، شقه للفراغ أمامه وحوله، فيـه شـىء معروف مسبقًا. شىء حميم وخاص بالنسبة لى. الأصـوات شـديدة الخفوت المنبعثة من حركة ردفيها واهتزاز غوايش يـديها الذهبيـة سمعتها من قبل، مرة واحدة فقط، وهنا فى هذا المكان نفسه. رأيـت هذا الظهر فى الماضى القريب، لمسته بيدى وتحسسته كثيرًا، وهـذا الـ...

أحس أن هذا المشهد كله حدث من قبل، في نفس الزمان والمكان، على بعد خطوات من فندق الفرعون.

هما يسيران أمامى فى طريقهما لعبور النفق إلى ميدان الجيزة، وأنا أسير خلفهما أحدق فى سيمون بهذه الدهشة نفسها التى تعلو وجهى الآن.

عيناى تمشيان على جسد سيمون من الخلف كمحراث يشق أرضًا حرثها مئات المرات من قبل، لا شىء ناقص، لا نتوء جديد، نفس درجة نعومة الجلد المتوقعة، نفس المساحة من العالم التى رأيتها وعاينتها من قبل، حدود الجسد، حجم الظل، نفس الحركة، المشية المختالة التيّاهة بذاتها، كل شىء، كل شىء.

ربما حدث من قبل ما سوف يحدث فى الدقائق والساعات التالية !

لا أدرى.

اقتربت منهما، صرتُ خلفهما بخطوتين.

للحظات سمعت أصواتًا تصدر عن جسدها كتلك الأصوات التى سحرتنى من قبل، أصوات نساء حياتى التى احتفظت بها داخلى. من كل امرأة هويتها امتلكت منها شيئًا ثبته داخلى بقوة، كى أملكها للأبد، كى تذكّرنى الواحدة بالأخرى.

أرغب فيهن جميعًا، ولا أريد أية واحدة منهن !

هكذا يصير العذاب مؤبدًا.

كل سيمون شيء قديم، يشبه بعض ما خبرته من قبل. فيها شيء ما، ربما الكثير من نشوى بالذات، شيء لا يمكن تحديده، وصفه، ولا الجزم به.

خفت من سيمون، ومن حارث، لكنني مازلت أسير خلفهما على هذه الصورة المخزية.

أمشي خلفهما كمتطفل، كشخص وحيد منسي، غير مرغوب فيه من أحد، أي أحد.

3

نكـــاح

حجرة حارث بشارع سعد زغلول مثالية للاختفاء عن العيـون والاختلاء بالذات، وممتازة فى تسريب امرأة مشبوهة أوعادية إليهـا، تحت غطاء الزحام المستمر أمام المتاجر الكبيرة والدكاكين الصغيرة، وحول الباعة الجائلين. بطول وعرض الشـارع يتـزاحم الرجـال والنساء أمام وحول باعة الملابس الداخلية، والاكسسوارات النسائية، والفاكهة، والجبن والمش والخبز، ولعب الأطفال، وكل شيء كـان. باعة يفترشون الأرض، وآخرون يضعون بضائعهم علـى أقفـاص جريد أو على عربات يد خشبية يدفعونها أمامهم.

وسط الزحام ندخل سعد زغلول، همـا أمـامى وأنـا خلفهمـا بمترين، أسرق نظرة لنافذة مكتب أبى المضيئة فى الطابق الثالث من عمارة الخواجة. حلو، هو هناك يعمل بمثابرة وضمير حيّ فى قضايا الموكلين الذين يدفعون له.

نسير ثلاثتنا باطمئنان مختفين فى زحام الخلق.

غرفة حارث هى الغرفة المأهولة الوحيدة فى بيت قديم من ثلاثة طوابق، نصفه متهدم، كومة أحجار متراصة بعضها فوق بعض لارتفاع خمسة أمتار، والنصف الداخلى الآخر منتصب وشامخ كما كان قبل تسعين سنة. منزل آل جبر، الذى كان فخمًا وجميلاً قبل خمسة أعوام فحسب، صار مجرد خرابة تفصل بين أكبر وأشهر متجرين فى شوارع السوق والجيزة: "حسن رزق" للأحذية والمشغولات الجلدية، و" الشناوى " للملابس الجاهزة النسائية الخاصة بطراز واحد من النساء: المحجبات.

البيت يبدو كعجوز بلغ من العمر أرذله جالس بين شابين نضرين واقفين، كشبه فراغ مهجور يقطع الخط المتصل لعمارات قديمة، تحتل طوابقها الأرضية محلات ومتاجر الملابس والأدوات المنزلية واللحوم المجمدة، والعطارة. متاجر كبيرة بواجهات من الزجاج والرخام وحجر الديكور الطوبى والأصفر. والشارع حىّ من صبحية ربنا حتى فجر اليوم التالى، لا ينقطع فيه البيع والشراء، الفصال والشجار، عقد الصفقات العلنية والسرّية.

الحقيقة، غرفة حارث فى ظهر البيت بالطابق الثالث تصلح لسكن مفكر محلى، معنى بدراسة علاقة السلع ببشر الجيزة القدماء.

بعد أن أحيل عم حسن إلى المعاش، وترك موقعه الراسخ لأربعين عامًا أمام بوّابة مدرسة أبى الهول، جاء بزوجته وولده حارث ؛ ليحرس هذا البيت المهجور لحساب آل جبر الذين انتقلوا للسكن ببرجهم الفخيم بالبحر الأعظم.

فرح حارث بحراسة البيت العتيق، وبقى وحده هنا حتــى بعــد رحيل أبويه إلى قرية أبى سنبل جنوب أسوان. قال الوالدان الشيخان إنهما "يريدان الموت هناك، فى قرية طفولتهما وصباهما". وحــارث قال "وأنا أريد أن أحيا هنا".

كان، بعد بطالة طويلة، قد تسلم عمله الجديد كنادل ببار تحتمس بفندق الفرعون، أول شارع الهرم.

منذ عامين ذهب الوالدان الطيّبان، وبقى الشقى، الحاصل علــى ليسانس التاريخ من جامعة القاهرة، وحيدًا يحرس، طيلــة الوقــت، البيت المهجور وسط كل هذا العمار والزحام، ويسقى زبــائن البــار ثلاث ليالٍ فى الأسبوع.

انتقى أكبرغرفة فى البيت قابلة للسكن، وأبعدها عــن ضــجة الشارع، وفرشها كصومعة ماجن عتيد.

هيأها وجمّلها كعروس حتى صار العيش وحده فيها لذة، هأهأ.

بلاط كسرالرخام المزخرف القديم مغطى بكليم نوبى بمربعــات بنية وبيضاء. تتراص إلى الحيطان، ناصعة البياض، أرائك منخفضة مفروشة بوسائد وتكئات وثيرة ومخدات من الحرير، شــلت جلديــة مزخرفة متنوعة الأحجام موزّعة على الكنب والأرض. فى ركنــى الغرفة، على جانبى كنبة عريضة بمفرش أحمر يســتخدمها حــارث كسرير دائمًا، تنتصب مرآتان بلجيكيتان متقابلتان، المرآتان الفاخرتان

يمكنهما عكس جسم بشرى كامل من الأمام والخلف، وملاحقة ما يجرى على الكنبة من حركات وأوضاع بإنتاج صور من زوايا عديدة. إطارا المرآتان بروازان بنيان مطفئا اللمعة من خشب الورد والصدف الأبيض والأسود اللامع وأرابيسك مشربية.

الكمبيوتر على منضدة من خشب الزان، أمامها مقعد بشلتة من القش، بلا ظهر. تحت زجاج المنضدة صورة فوتوغرافية لأمريكية شقراء في الخمسين، مكتوب على صدرها بخط كنكش الفراخ "من لورين لحبيبى حارث".

على حوائط الغرفة الأربعة ــ تقريبًا من منتصف الحائط، من فوق حدود مساند الكنب للسقف، وبدون مسافات بينها ــ علّق حارث بوسترات ومستنسخات للوحات تشكيلية وفوتوغرافية، فى براويز مختلفة الأحجام لنساء عاريات: سمراوات، بيضاوات، شقراوات، صفراوات، وسوداوات. نساؤه رشيقات ونحيلات، ممتلئات وسمينات وضخمات الجسد كدبَّابات بشرية، من كل الأحجام والأوزان الممكن تخيلها. ما يجمع نساءه شيء واحد غريب: نظرة المرأة، نظرة رقيقة أقرب إلى أن تكون حنانًا منها إلى شهوة، نظرة مغوية ورحيمة، فى نفس الوقت، من عينين بريئتين.

حارث ينفق معظم دخله فى العناية بالغرفة وإضافة المزيد من الجمال إليها. يجدد ويضيف إلى مجموعة نسائه المختارة كل فترة. كلما أتيت إلى هنا يفاجئنى ويدهشنى ببوستر أو مستنسخ جديد لامرأة

عارية فى برواز فاخر. يهتم بذوق البرواز وجماله اهتمامه بـــامرأة البرواز. لا يذهب بصوره سوى لمحل القزار بمحمود عزمى.

المحل الشهير أسعاره نار، ومحروس القزاز الابن يضيف، بود وابتسامة سمجة، على حساب حارث بنودًا أخرى:

1 – مقابل غض بصر، بصره هو شخصيًا عن هــذه الصـــور الفاضحة.

2 – مقابل استعماء العمال أمام ما يصـــنعون لـــه البـــرواز، ويستَرونه بزجاج البنّور.

3 – بدل ستر الصور العاريـــة وإخفائهـــا عـــن عينـــى الأب المؤسس، الحاج مصطفى القزاز.

عينا الحاج واسعتان وحادتا البصر تحت حاجبين كثيفين وزبيبة صلاة ضخمة بعرض جبهته.

فى وسط الغرفة منضدة بيضاء منخفضة من خشـــب البلـــوط فوقها لوح زجاج إنجليزى شفاف، على طرفيها شـــمعدانان فضـــيان بست شمعات وردية، ومبخرة نحاسية لا تتوقف عن بث رائحة خشب الصندل.

الموسيقى كلاسيكية خافتة تنبعث من أربع سماعات خفية مثبتة بجدران الغرفة، يتحكم فيها حـــارث عبـــر الكمبيـــوتر أوالمســـجل الاستريو.

الغرفة ليس لها علاقة ببقية البيت، أو بالشارع، أو بسوق الجيزة. الغرفة لها علاقة حميمة بروح حارث الخفية فحسب.

أحيانًا أتخيل حارث ممددًا على كنبته وحده فى غرفته. يضغط على زر فينطفئ المصباح الأبيض فى المشكاة فى وسط السقف. يضغط زرًا آخر فيضىء إسبوت أزرق صغير موجه لوسط المفرش الأحمر على الكنبة. يضغط الزر الثالث لينير إسبوتات أخرى بيضاء، مركزة على كامل أجساد فتياته المعلقات على الحيطان. بترتيب محسوب ينشر حارث خيوط الضوء الملونة على كنبته، وفى هواء غرفته، وفوق أجساد العاريات المحبوسات فى البراويز.

حارث يهيىء أكثر الأجواء إثارة، لإراقة ماء حياته على نهود وفروج ومؤخرات نسائه العاريات.

كل ليلة، كل صباح أو ظهيرة، يختار إحداهن حسب نوع مووده وطبيعة مزاجه عند القيام من النوم، أو بعد ساعة من تناوله الغداء أو قبل أن يستلقى لينام ليلاً.

لزمن ما يتجول بنظرات سريعة بين أجساد نسائه العاريات، ويبدأ المفاضلة بينهن، فيتلكأ ويتردد طويلاً فى الاختيار. يستبعد امرأة الأمس أولاً، ثم يفاضل بين كل ألوان بشرة الجسد الإنسانى الممكنة والمحتملة، الواقعة بين الأبيض الثلجى شديد البرودة وآخر حدود ظلمة اللون الأسود الساخن.

يزن بميزان عينيه أحجام النساء الواقعة ما بين ٤٠ و٢٥٠ كيلو جرامًا، يجسّم بيديه امرأته التى يمتد حجمها ووزنها من أول حدود وزن الريشة حتى آخر وزن الفيل. يحاول أن يختار امرأة من إحدى القارات الخمس، امرأة من العالم القديم أو الجديد أو من جزر مجهولة. حسبة طويلة، لكنها تقوم مقام المشهيات كالحوادق والسلطة. بعد وقت وتردد وأسف قليل يحصر الاختيار بين ثلاث نساء، ثم اثنتين، وأخيرًا يختار عروس نكاحه.

يخلع التي شيرت الأبيض المنزلى أولاً، وينظر لوجه المرأة المختارة، يحدق فى عينيها، ليرى تأثير عرى نصفه الأعلى عليها. حينما لا يبدو - طبعًا - على وجهها أى انفعال جديد يترك وجهها وشأنه، ويهبط إلى ثدييها ثم بطنها وخصرها، ويتوقف عند حوضها ليلتقط أنفاسه ويخلع بنطلون البيجامة ببطء حتى فخذيه، وكفاه تتفتحان وترتاحان على حقويه. شفتاه منفرجتان وعيناه تحدقان فى النصف الأسفل للمرأة العارية، يراها بلقطة عامة من كاميرا عينيه. تصل كفه اليسرى أعلى عانته، تقترب إبهام يسراه من الشعر الخفيف، وبنصره من منبت الشيء. " زووم إن " من عينى حارث الواسعتين على شق المرأة. تتسمر عيناه طويلاً هناك. يبلع ريقه ويبلل شفتيه بلسانه، يعتدل بظهره ويباعد ما بين فخذيه، وتبدأ يداه فى القبض، ثم الحركة لأعلى ولأسفل، ببطء فى البداية، ثم أسرع قليلاً، ثم أسرع كثيرًا حتى ينتفض كل كيانه. وينفجر حارث من اللذة وهو يتأوه، وعيناه مرشوقتان بمهبل امرأته الواقفة أو الممددة على سرير، المبطوحة أرضًا أو التى توجه عجيزتها إليه. يربت على شيئه الأكثر

سوادًا من بشرته، يغمض عينيه ويغفو. ينـــام ويحلــم ســعيدًا ؛ لأن لورين لن يخطر ببالها، أبدًا، مــا الــذى يمكــن أن يفعلــه بنســائه العاريات.

قالت حين رأت غرفته للمرة الأولى: " أوه حارث.. حارث أنت متسامح كثيرًا مع النساء أيًا كانوا ". من عام سافرت لــورين إلـــى نيويورك على أن تعود إليه فى الشتاء القادم، أو يرتب هــو أمــوره ويذهب إليها.

شربنا زجاجتين من نبيذ عمــر الخيـــام الأحمــر، المشــروب الموحى بالغرام المفضل لحارث، وتبادلنا تدخين عدد لا بأس به مــن السجائر. عدد لا أعرف كيف أعده.

طالبًا المزيد بحركة بطيئة، " سلو موشن " مددت لحارث كــف يدى اليمنى مضمومة، وبين إصبعى السبابة والوسطى منفرج يرســم رقم سبعة.

"خلاص يا حلو.. جبرنا".

قال حارث آسفا مع آخر نفس خرج من منخرى سيمون.

الغرفة، مغلقة الشباكين والباب، امتلأت بالدخان الأزرق، الذى آوى إلى الأركان والسقف، وشكّل سحابة كبيــرة معلقــة بمشــكاة السقف. تراقص فى عينىّ ضوء الشموع الست التى أشعلها حـــارث منذ دخلنا. حارث فى بعض الأحيـــان شـــخص رومانســـى قـــديم، وعاطفى!

بصعوبة وثقل وقفت سيمون، ورددت نظراتها بيننا مبتسمة ومسطولة.

بدا أنها مترددة بشأن شىء فكرت فيه زمنًا، ربما منذ جئنا. واقفة، تتحرك شفتاها، تبلل إحداهما الأخرى، ويظهر بينهما طرف لسانها دون أن يخرج من فمها المفتوح أى صوت له دلالة أو كلمة مفهومة. تتململ فى وقفتها ناظرة إلينا، وتضع إصبع السبابة اليمنى فى فمها حائرة، وتهز جسمها برشاقة. بهدوء كما وقفت، عادت وجلست فى مكانها على الكنبة إلى جوار حارث، دون أن نفهم منها شيئًا !

كنت أحدق فى أصابع قدميها العارية وساقيها، وقد جلست تهز سمانتى ساقيها المدوّرتين هزة رقيقة، لا تكاد تكون مرئية. بعد لحظات، بدت لى طويلة جدًا، وقفت فى مواجهتنا مرة أخرى بمظهر من استجمع شجاعته كلها أخيرًا، ووضعها فوق وجهه، وفى نظرة عينيه.

بصوتها الرنان اقترحت العجب شخصيًا، وسربته بلهجة آمرة لا تنتظر نقاشًا.

قالت لحارث وحده، وكأننى لست معنيًا بالأمر:

" انتو الاتنين مع بعض.. طلعة واحدة ".

اكفهر وجه حارث وتوتر جانب فمه بحركة حنقه المعتادة.

احتج بشدة صائحًا: " أبعد من شواربك يا قحبة ".

وضعت يديها فى خصريها، ودفعت بمؤخرتها للخلف بحركة غشيمة: " وإيه يعنى ؟!.. خايف يشوف طـ...!!"

" اخخخخخخخخخخخخخ " خرجت منى ممطوطة وطويلة وقبيحة.

ارتسمت على وجه حارث ملامح زعيم العصابة، المُحتقَر من رجاله ونسوانه، فى الأفلام القديمة.

بحركة مختالة من جسدها الشهى اقتربت منه ببطء حتى حملت هواء تنفسه بثقل برفانها الرخيص، مالت عليه ومدت يدها اليسرى إلى قفاه، وبأصابع رشيقة ليدها اليمنى فتحت واحدة واحدة أزرار قميصه.

بنعومة ورقة راحت تداعب شعر رأسه، وشعر صدره الخفيف بأصابع رخصة.

استمرت تداعب جلد قفاه ورقبته وشعره حتى أسبل حارث عينيه، وتفكك من بعضه.

نزلت إلى بنطلونه الجبردين الأسود تفك سوستته على مهمل وهى تغمز لى بعينها.

كان ردفا عجيزتها البيضاء مستديرين، وفائضين على جانبى خط كيلوتها الأحمر البكينى، وقد افترشت شلتة وثيرة على مربع أسود فوق الكليم، وصار نهداها الممتلئان مدلوقين خارج سوتيانها الأحمر الشفاف، يهتزان مع الحركة الرتيبة ليدها.

مالت برأسها نحوه، وغاب وجهها.

شعرت بألم أحشائى يتصاعد، وأنا أحدق فيهما.

وقفتُ فجأة، وخلعت قميصى تحت بصر حارث، الذى كان يقاوم تأوهاته بوجهٍ صارم، يقمع التعبير عن لذة مباغتة.

كان يجز على شفته السفلى، يكتم آهاته تحت ضغط لسانها وأسنانها.

كنت نزقًا وسافلاً، وسريعًا لدرجة أننى اندفعت نحوهما كحمار هائج، قبضت على نهديها بكفي يدىّ بقوة، والتصقت بها من الخلف، وزرعته بين ردفيها الأبيضين.

رفعتُ وركيها عن الأرض، وأقمتها على ركبتيها فبدت كلبة بيضاء مترفة تقف فى هدوء، فشختها حتى تكور ردفاها واهتزا.

بحرفنة مدربة رفعتْ عجيزتها فى الهواء، وكشفت نفقيها الحمراوين.

فى لحظة، بلا تمهيد ولا تروٍ، أودعتها سرى كله، جسدى كله.. حتى أحسست بشرايين دمائها تتمدد، وبعظام حوضها تصطك.. وتئن تحت ضرباتى المتلاحقة.

4

عشـــاء

صلاة العشاء صلاة جهيرة، يجهر فيها الإمام بـــتلاوة الفاتحـــة والسورتيْن فى الركعتين: الأولى والثانية.

فاتحة الكتاب يتلوها أجمل أصوات طفولتى، وأيقونة صـــباى، معلمى ومحفظى القرآن، سيدنا الشيخ حُب الدين.

صوت الشيخ الرقيق حلو كالشهد، يظلل البيت ويخـــرج منـــه ؛ لأن ميكرفون الزاوية معلق فوقنا، أعلى خشبة طويلة مزروعة بسقف غرفة حارث.

زاوية الرحمة تبعد عنا عمارتيْن بثلاث متاجر كبيرة شـــهيرة، ويصل بيننا وبينها أربعون متر سلك كهرباء، ممتدة من مايك الزاوية فى البدروم إلى الميكرفون القديم أعلى البيت.

بعد ستين عامًا من تلاوة الذكر الحكيم ما زال صـــوت الشـــيخ الجليل رخيمًا جميلاً، على ضعفه وخفوته.

بمحبته، بقوة قلبه، ومن أعماق روحه يقرأ الشيخ حُب.

الشيخ يتلو الفاتحة بزهد المودّع، المستعد للقاء ربه.

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾

"آمين".

"آميييييين".

ردد مصلو العشاء القلائل خلف الشيخ حب الدين فى المصلى الصغير، الذى يتسع لعشرين مصليًا على الأكثر.

زاوية الرحمة أقامها الحاج شوكت ببدروم عمارته. بعد أن أقام منبرها الخشبى الصغير بدرجتين خشب، وفرش بلاطها بالحُصر البلاستيك، وبنى كنيفًا بلديًا واحدًا، وحوضًا صغيرًا بثلاث حنفيات، ذهب، بنفسه، للشيخ حب فى بيته. قبّل يد الشيخ ورأسه الأشيب طويلاً؛ لأجل أن يقبل رفع الأذان وإقامة الصلاة بها.

بقبول الشيخ حب الدين إمامة الزاوية زحف إليها بعض باعة وأسطوات وعمال السوق، المتعلقين بالشيخ، فأحيوها.

أحبها الشيخ لصغرها وانزوائها واختفائها عن الأنظــار تحــت صخب وازدحام السوق ؛ فآوى إليها معتكفًا زاهدًا فى الدنيا وما فيها، وتاركًا العالم فى الخارج خلف ظهره.

الزاوية يهبط إليها عبر درج خشبى ضيق بجوار الباب الكبيــر لمعرض الحاج شوكت، الزاخر بــالأدوات الصــحية والســيراميك، والرخام.

بعد صمت خاشع قصير تلا الشيخ من أعماقه المنيــرة ســورة "غافر" فى الركعة الأولى، فأشفق المصلون عليه، وعلى أنفسهم.

كان يتلو بورع وخشية فأبكى الناس فى صلاتهم، حتى ســمعت حشرجات بكائهم تنصب علىّ من الميكرفون أعلى الغرفة.

أرواحهم تنتفض خشية، تتأوه ألما، تخترق السقف بأنين خافــت ينتشر.. ويستقر فوق دماغى تمامًا.

5

نشـــــوى

كنت أشعر أن حارث يسلط بصره على وجهى بتعجب، يحملق فيَّ مذهولاً. أرى طيفه ساكنًا في وقفته كعود غاب أسود طويل.

أنا خلفها نصف مغمض العينين، أستجمع كل قوى جسدى، أهز جسمى وأنفضه كحصان بَرّىّ. أصهل من أعماقى فينـــتفض جُـــوّاى وبَرّاى كتلة واحدة، تهتز هادرة.

أسن كل حواسى، أجلوها وأنعمها، وأرهفها كحد مُوسى، أغليها بحرارتى كلها، أبخرها، وأقطّرها وأركزها فى خلاصة صلبة كثيفة، أصيّرها قالبًا وجسمًا وجوهرًا واحدًا. أصهر ظاهر الجوهر وباطنه، جزأه وكله، وأحوّله إلى قوة وحيدة، حاسة واحدة: اللّمس.

أجمّع ما لا يحصى من الخلايا العصبية المرهفة، وأضعها فـــى نصف سنتيمتر على قمة رأس طرفى، وأضع فوقها نفسى الشـــرهة الولهة. أنحت عيون قلبى فى مركـــز رأس حيـــوانى، وأوزّع علـــى وجهه روحى المبصرة ببطء، ببطء وتركيز واستغراق كامل.

لحظات، ثوان، وأغيب عن الآخر والغرفة والعالم.

لم يعد يوجد شيء فى دنياى سوى رأس طرفى ونفقها. أغيب فى تتبع حركة خلايا لمسى المنطلقة منى، كسباحين فى سباق للمسافات البعيدة. أوجه سباحيّ المهرة إلى باب نفقها، بهدوء أطرق الباب وأخترقه، وأدفع نحو العتبة ثم المدخل، أدفع نحو الوسط ومن بعده العمق، أغازل السقف والحيطان، أقرع الزوايا والأركان وأدق القعر.. أدفع وأدفع حتّى آخر نفقها المفتوح. حيوانات لمسى تنتشر، تتحرك وترتع فى أرض برزخها الناعمة الوثيرة، تتذوق لحمها الطرى اللذيذ، تشرب ماءها العذب، تستنشق أريجها العبق برائحة خلابة مُسكِرة، حيواناتى تتهادى، تلهو وتركض فى أرضها، تلعب وتقفز وتجرى، تُسقى وترتوى من عسلها الأبيض فتسكر وتتسطل، تتمايل وترقص من فرط اللذة. سرعتى تزداد قليلاً قليلاً، بتأن وبحرص محسوب أشقها بحنان، برحمة، ثم بصلابة، بملء طاقتى، بقوة، بشراسة، ثم بغلظة، بعنف جارف أحفرها، وأخترقها لآخر آخرها.. لعمقها، أحرثها حتى باطنها.

عميقاً، عميقًا أدخلها بكلى، بقوة يأسى الكامل، بانتقام أسود.

لم أكن أضاجع سوى نشوى التى تتلبس جسد سيمون، نشوى الخافية داخل جسد سيمون، نشوى الممتزجة بجلد ودماء ولحم سيمون.

كنت مع نشوى المحجوبة بجسد سيمون.

كنت أضاجع نشوى، نشوى وحدها، لا امرأة غيرها.

رأيت فى وجه حارث، مفتوح العينين علـــىّ، دهشـــة عجيبـــة وذهولاً ممتدًا. عيناه مفتوحتان لآخرهما ومشدوهتان، شفتاه ترتجفان بخفة وهو متصلب فى وقفته كتمثال أبنوس.

أسمع منى ومنها صوت خفق العجين، إيقـــاع غابـــة إفريقيـــة، أنصت لصوت قرع الطبول المتصاعد مع كل دخول وخروج. يـــردد جسدى وتردد أشفارها العزف على طبلة امتزاجنا، تباعدنا وتطابقنا. إيقاع تلاقينا يعلو رويدًا رويدًا، تتصلب وتتحجر يداى فـــى قبضـــهما القاسى عليها، تهتز رجلاى وركبتاى وقدماى المغروستان بـــالأرض من فرط تسارع حركاتى ونزقى المنفلت. ينفجر جسدى كله ويرتعش بشبق مجنون، ويفيض كفيضان نهر يجرف فى طريقه كل شىء.

تأوهتْ، وأطلقت آهات عميقة ممطوطة وشرسة، وهـــى تـــدير رأسها نحوى فاتحة عينيها لآخرهما.

بوجه وردى متوهج، ترشق عينيها فى وجهى منتشية، تعـــانى ألم اللذة، مذعورة وخائفة، ومندهشة تنظر فى عينىّ.

صرخ حارث صرخة مباغتة، مروعة، وأطلق هـــدير غضـــبه برعب انتفض له جسده.

التقط بنطلونه وارتداه بسرعة، مضى وصفق الباب خلفه، وأنـــا

أضاجعها كآخر نكاح فى عمرى، كأننى سأموت بعد دقيقـــة واحـــدة، كأننى أقاوم مصرعى المحتوم.

روحى تنسحب من جسدى ببطء، من مسام جلدى تخرج بلطف وخفة، وأنا أصرخ من اللذة والألم.

روحى تصعد.. تصعد للسماء ببطء مؤلم.

6

سيمــــون

خلصتُ وهمدت أدارى سوأتى ببنطلونى.

بعد صمت طويل كصمت الموت ضــحكت وحــدها. صــدح صوتها الرنان بضحك زائف كثير، وارتــج ســقف حلقهــا بقهقهــة مجلجلة. اهتز جسدها من طول وشدة ضحكها العابث، وهــى تلــتقط سوتيانها، وتضعه فى حقيبة يدها الفضية الصغيرة.

تخبط يديها إحداهما بالأخرى، مشيرة مرة إلــى البــاب الــذى هرب منه حارث، ومرة إلى صدرى العارى والبنطلون على حجرى.

وأنا أمدد طول جسدى على الكنبة وأشعل السيجارة، ابتســمت لها من قلبى.

ارتدت بلوزتها على لحمها الساخن الدافىء، لــم تغلــق أزرار البلوزة بعد. نهداها المدوران العظيمان يتأرجحان بخفة أمــام عينــىّ بحلمتين بنيتين صغيرتين، ما زالتا منتصبتين.

جسدى يرفل فى خدر هادئ شفيف، كلى مخدّر ونعسان.

أسحب أنفاس سيجارتى ببطء وتلــذذ، غيــر مبــالٍ بالــدخان المتصاعد الموجه لوجهها وشعرها الأصفر الطويل.

أنأى عنها، وأغرق فى أفكارى.

أعرف أن سيمون، كعادة بنات الهوى الطيبات، ستبدأ بعد قليل رواية مأساتها التى دفعتها للانحراف. لا بد أن يكون وراءها فاجعــة كبيرة، مصيبة من العيار الثقيل. لا امرأة تختار صناعة الجنس فــى هذه المنطقة من العالم، ربما ولا فــى غيرهــا، بإرادتهــا الحــرة، باختيارها ومزاجها. لا توجد لدينا امرأة "حرة" صانعة جنس محترفة عن قناعة ومحبة لوظيفتها ومهنتها!

امرأة ناضجة محترمة وعاقلة تختار تقديم خــدماتها الجنســية كطريقة للحياة، وتمتهن إسعاد الرجال البؤساء والمكلومين بــإخلاص طبيبة، ومهارة جرّاحة عظيمة وفاضلة. الطبيبة، دائمًــا وللأســف، تشعر أن زبونها المريض لا يقدرها حق قدرها، لا يتعامــل معهــا بالاحترام اللائق، لا يعاملها كمخلّصة، ولا يشعر بالامتنان لخــدماتها الجليلة. المعالجة ترغب فى الشعور بأن مريضها ممتن وشاكر لهــا، يلهج بحمدها، وهو يركبها مقابل نقوده و...

قطعت سيمون حبل أفكارى خفيف الدم.

كأنها كانت تقرأ أفكارى كلها بوضوح، قالت سيمون: " الفلوس

وحدها ليست كافية يا بيبى ".

اركب وادفع نقودًا مثلما تدفع أجرة الأتــوبيس أو التاكســى أو الطائرة، حسب نوع الركوبة وتعريفتها، مثلاً، هــل تحتقــر ســائق التاكسى؛ لأنه سائق تاكسى ؟!

لا تحتقرنى أنا أيضاً.

ولكل هذا سأختلق لك السبب الذى جعلنى ركوبة للآخرين، ولا يهم حقيقة ما أرويه لك، ليس مهمًا أيضًا أن تصدقنى. أنــا، عــادة، أكذب، وأنت تعرف أننى أكذب، لا أريــدك أن تصــدقنى، لا توجــد حكاية صادقة يا زبون، الحكاية تخترع لأجــل تأثيرهــا، إذن فقــط احترمنى، لا تصدقنى ما دمت أمتعك بجسدى وحكايتى، مــاذا تريــد أكثر؟!

مقابل البنكنوت الذى تُدفعه تحصل على " أورجــازم " جنســى واحد، و"أورجازم" آخر مجانًا. "أورجازم" المستمع لحكاية ميلودرامية شيقة تطهرك، وتخلصك من المشاعر المكبوتة والأحاسيس الســيئة، وتغسل عينيك بدموع الشفقة، ماذا تريد أكثر يا بيبى.. يا جشع ؟!

قالت عليك أن تدفع الآن، ادفع الاحترام قبل وبعد الكــاش يــا بيبى.

قالت إنها لا تريد شيئًا أكثر.

سيمون تحولت إلى فيلسوفة وهـى تسكب جـردل أفكارها العظيمة فوق رأسى المرتاح على المخدة، وفوق وجهى المحدق فـى المصباح داخل المشكاة المعلقة بوسط السقف الأبيض.

بدت لى امرأة أخرى، مختلفة تمامًا، امرأة يمكـن اصـطحابها للندوات الفكرية والسياسية والأدبية، يجلس الواحد ساكتًا إلى جوارها فخورًا بها، وهى تقوم تمسك الميكروفون وتعلق على كـل القضـايا المطروحة بثقة وغرور، وبمنطق محكم.

قالت لا أشك فى أنك سمعت الكثير من حكايات العاهرات. أنـا أيضًا سمعت الكثير منها ولن أخترع من أجلك واحـدة، هـذا لـيس شرطًا فى "الدِيل بينا يا بيبى". ورائى حكاية صادقة لكننى لن أحكيها لك الآن، ربما أشنف أذنيك بها يومًا ما.. لكن أنت غلبان يـا بيبـى، ولن تصدقنى ولن تفهم. المهم، عليك أن تحترمنى دون أن أقدم لـك أى سبب، ذريعة، أو تكأة، لا أحتاج عطفـك، أو شـفقتك، أعطنـى نقودى وفوقها، قبلها وبعدها، الاحترام الذى أستحقه.

فعلت الفيلسوفة ما أرادت، فبدلاً من استدرار عطفى وشـفقتى، ودغدغة غرور الزبون بحكاية مبتذلة عن امرأة بائسة تكفل رضـيعًا يتيمًا فقد أباه فى ريعان الشباب، أو حكاية الهاربة من امـرأة أبيهـا المفترية وأبيها القاسى وإخوتها العشرة، أو زوجها البرئ الشريف فى السجن وأمه مريضة وتحتاج لعملية جراحية باهظة التكاليف، أو..... إلى آخره من حكايات الواقع الوسخ، أوالخيال الخصب لبنات الليـل

الطيبات، بدلاً من ذلك كله هاجمتنى سيمون، ووصمتنى بالغُلب.. أنا غلبان ؟!

تفلسفتْ، وقدمت تحليلاً أنطولوجيًا لوجودهـا، كمثـال لحالـة ظاهراتية فريدة يبدو أنها تأملتها طويلاً، وأودعتنى بسـخاء النتـائج النهائية لها.

لأية فئة، صنف أو نوع أو طبقة من بنات الهوى تنتمى هذه ال "سيمون" المُشبِعة المتأملة ؟

قالت باستهانة: "خلاص يا بيبى، وقتك خلص.. أوروفوار".

تشبثت بطرف بلوزتها الوردية كطفل يشد طرف فستان أمـه: "ما.. ماتستنى شوية".

"سُورى، والله مستعجلة، المرة الجايه نقعد ونتسامر!"

عدلت هيئتها، ووضعت طرحتها الملونة على شعرها، وشبكتها بدبابيس فصارت كما رأيتها أول مرة: فتاة محجبة بمظهر عصرى.

نظرت إلىّ بابتسامة حلوة، وانحنت علـىّ. داعبـت شـعرى وربتت على ظهرى بمودة، وعلى غير عادة المومسات قبلتنى علـى خدىّ برقة، وذهبت.

أنا أيضا سأقوم، سأذهب للحاق بالهارب من وجهى.. حارث.

7

فـرت دمـوع كاغا

حين دخلت الحجرة نظر إليّ حارث بريبة غريبة، ولم يقم مـن مكانه كما فعل شوقى، ولم يمد يده ليسلم علىّ، وظل يحدق فى وجهى بغضب مستور، فتجاهلته كأنه غير موجود.

بعد سلامات شوقى وأحضان كاغا قعدت فى مكانى، فى ركنى المعتاد على الحصيرة البلاستيك الملونة، وفوق شلتة الجلـد الأسـود جلست. مددت ساقىّ وقدمىّ العاريتين عن آخرهما أمـامى، عامـدًا متعمدًا، فى وجه حارث الجالس على الكنبة.

رجعت بظهرى، وأسندته للحائط مبتسمًا لكاغا بجوارى، أرحت رأسى للخلف، أغمضت عينىّ، ولقفت شـهيقًا عميقًـا. أحـس لـذة الاستلقاء بين دفء صحبتى، وجوههم هى هى كما كانت قبـل نحـو عشرين عامًا، لم يتغير جوهر ملامحهـا الأساسـى، لكنهـا نحتـت وتحولت.

يطالع كل منا فى وجوه الآخرين وجوه الأطفـال والمـراهقين

الذين كنا إياهم منذ زمن، يبدو لنا بعيدًا جدًا، الآن. وجوهنا قديمة، مألوفة، مكشوفة لكل واحد فينا. منذ البدء، تتبع كل منا وجه الآخر، رآه وهو يصير شخصًا آخر، وهو ينبت له شارب أخضر، ورأى الوجه يفقد طابعه الطفولي، حيث تغور العيون قليلاً في محاجرها، ويظهر الشعر الخفيف على الأيدى والساعد والصدر، وتظهر في العيون بوادر تحدى الكبار والتمرد، وسمع كل منا صوت الآخر يخشوشن ويغلظ، وينطق بالسخط والرفض والثورة.

كشأن كل المراهقين كنا عيالاً مهووسين بالأحلام، يظنون أن هذه البلاد، هؤلاء الناس، بل العالم، هأهأ، الإنسانية، البشرية برمتها في حاجة لأيديهم وعقولهم.

كنا سذجًا وحالمين، مثاليين ومرضى، وشعراء.

لما أضيف لأعمارنا عشر سنوات أخرى، والمئات من التجارب والخبرات، تحولت وتغيرت أحوالنا ورؤوسنا. عيوننا منكسرة قليلاً الآن، نتجنب أن ننظر مباشرة فى العيون، أن يعرى أحدنا الآخر بنظرة ثابتة وقحة، بلا اتفاق صرنا نخاف، نتحاشى أن تتلاقى عيوننا. كشركاء فى جريمة مشينة قديمة تهرب عينا كل منا من نظرة الآخر المحدقة المتسائلة. عبرنا للرجولة - الرجولة ؟! - وتخطينا الثلاثين معًا، مثل فريق كرة قدم ناشئين صار الفريق الأول بالنادى نفسه، بمركز شباب الساحة مثلاً، نلعب معًا، بتعاون وانسجام وببعض التعثر والأنانية، لكننا نلعب معًا على رغم كل ما بيننا من اختلافات وهوّات، مشاجرات وإيذاء، وآلام متبادلة، وأماني مجهضة.

هنا، بينهم الآن، أفكر في كل هذا ؛ لأنني لن أستطيع أن أجرع المزيد من كأس صحبتهم. أنا آكل الدقائق والساعات أكــلاً، بشــفتي وأسناني، بجلدي وسمعي وبصري، آكل أيامي بشره، بفجعة الجــائع ولهفة المحروم دهرًا طويلاً، فجعة من يأكل في آخر زاده، ربما هذا آخر زادي فعلاً، بعده ظلمة طويلة أستلقي فيها للأبد علــى فــراش التراب، حيث نوم طويل مريح.

ليس لديّ وقت، لا أعرف إن كنت سآتي هنا الخميس القــادم أم لا.

أكثف شعوري بمتعة تسري في جسدي من ألفة الغرفــة، ألفــة الوجوه والأجساد، الأصوات ورائحة المكان القديمة الراسخة. هؤلاء شلتي التي نقصت وتقلصت عبر سنوات، غادرنــا حســين الكِنــك، وأمجد مراد، وخليل زاهر، ومضوا في طــريقهم دوننــا. تركونــا مخلفين وراءهم كثيرًا من الذكريات، وقليلاً مــن الحــزن والألــم؛ لفراقهم، لكننا لا نسمح لأنفسنا بسكب قليل من الدموع مــن أجلهــم، "الرجالة لا يبكون". هكذا علّمونا. فاصطنعنا القوة والصلف، وتكبرنا.

لم يحل محل المغادرين أحد، لم يجلس مكان حسين، ومن بعده أمجد، ومن بعده خليل أحد. أمجد مات بمرض فــي قلبــه. وخليــل اختفى في ظروف غامضة، لا أحد يعرف عنه شيئًا، وحسين الكنك، أحد الأعضاء المؤسسين لشلتنا، صار منذ زمــن يتجنبنــا ويتجاهــل وجودنا.

منذ شهور كنت واقفًا فى وسط زحام المترو ذاهبًا لوسط البلد، سمعت صوته القوى الذى أعرفه، التفت فوجدته جالسًا يزنق جسده الضئيل بين رجلين فى نحو الأربعين، ضخمين فى جلبابين داكنيين، ذقناهما طويلتان ووجههما عابسان. رأيته وعرفته، ولم يرنى هو. بين يديه مفتوحتى الكفين مصحف صغير. كان يقرأ جهرًا، يتلو بصوت قوى غاضب، أعلى من كل ضجيج الزحام والمترو:

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ ﴾

كان غائبًا مع نفسه فى التلاوة بوجه حانق، بذقن سوداء طويلة هائشة، فى جاكت رياضى قديم فوق جلباب أبيض، وفى قدميه صندل جلدى قديم. كان يتلو لنفسه وللناس من باب لكم حياتكم الجاهلية، ولى إيمانى الراسخ. ناديت باسمه، فرفع عينيه دون أن يتوقف عن التلاوة فرآنى أحدق فيه. للحظات التقت عيوننا، وتبادلنا نظرة طويلة صامتة قبل أن يفَرَّ منى، ويتجاهلنى عائدًا للنظر فى مصحفه المفتوح.

ابتسمت له ولنفسى، ولم أنطق بشىء، كان على وجهه تعبير غامض، لم أعرف كنهه أبدًا.

لم نضف إلى شلتنا شخصًا جديدًا، وظللنا مواظبين على سهرتنا الأسبوعية طوال السنوات الماضية، لا نقوى كثيرًا على هجرها.

ربت كاغا على فخذى برقة، وهو يشير بيده مبتسمًا لزجاجة ويسكى شربوا ثلاثة أرباعها، فابتسمت له.

على الطبلية الكبيرة المستقرة بوسط الغرفة عـــدد هائـــل مـــن زجاجات البيرة الفارغة، وعلى سبيل المَزّة أربعة أطباق كبيرة مـــن السردين والفسيخ والملوحة، وطبق سرفيس مفروش ببصل أخضــــر وليمون وجرجير وفجل، وكومة عالية من العيش البلــدى، وأخيــرًا زجاجة الويسكى النادرة فى مصر، ماكرز مارك، الزجاجة الثمينة لا بد أن "كاغا" مطربنا الشعبى أحضرها معه.

كاغا، أصلاً، اسمه عماد على على على، هكذا كنا ننطق اسمه كاملاً فى فصلنا بالمدرسة الإعدادية، من يومه صـــوته حلـــو، درس بقسم الأصوات بالمعهد العالى للموسيقى العربية، ونظـــرًا لظـــروف سوق الغناء والمطربين الراهنين التحق بالعمـــل كمطـــرب بملهـــى صغير، أشبه بقهوة بلدى، يُدعى "كماننا"، يقع فى ظهر شارع الهـــرم على ناصية التعاون.

عندما اختبر المعلم عبد البديع صاحب الملهى صوت صـــاحبنا مستمعًا لأغنية الجندول، انشكح جدًا من البحة المكسورة فى صـــوته، ولكنه نصحه بنسيان أغانى اللواء محمد عبدالوهاب، والحـــاج أحمـــد منيب التى كان صاحبنا يعشقها، والسير على طريق الأستاذ شعبولا.

كان شرط المعلم عبد البديع الأخير هو أن يختار وحده، وبـــلا اعتراض من صاحبنا الاسم الفنى للمطرب الجديد. أمضى المعلم عبد البديع أسبوعًا كاملاً يقلب فى رأسه الأسماء والصفات والأفعال، أيام الأسبوع والشهور، والفصول، الأماكن والأزمنـــة والأوبئـــة، حتـــى

استقر فى النهاية على اسم فنى رائع لمطربه الشحرور.

"المحل محله والمطرب مطربـــه، ومـــنْ ســـمّى مطربـــه مـــا ظلم..هاها". قال حارث بوصفه نادلاً فى بار تحتمس.

فى أول ليلة عمل للمطرب الجديد فاجأ المعلم جمـــاهير ملهـــاه القليلة، والمطرب نفسه، باختراعه العبقرى. وقف المعلم عبد البـــديع ببدلته الكاروهات وكرشه الواسع على البيست الدائرى الصغير فـــى وسط المحل، تنحنح وشد قامته، ومثل مذيع تليفزيونى يقدم مطربًـــا على خشبة المسرح الكبير بدار الأوبرا المصرية صدح المعلم:

"والآن رواد ملهى كامننا الكرام، الآن.. مع كـــروان الأغنيـــة الشعبية، مطرب الكونسرفتور والأغنية الضبابية.. الطيـــر المســـافر الذى عاد من الخليج العزيز، نجمنا الساطع الباهر.. كاااااغاااااا ".

كل مرة تدمع عيناه من الضحك، وهو يحكى كيف وهبه المعلم عبد البديع اسمه الفنى الذى صار اسمه الوجودى الوحيد.

كل ليلة خميس تهرع أقدامنا إلى هنا من تلقاء ذاتهـــا، غرفـــة شوقى فى حارة الشيخ زهران المتفرعة من الربيع الجيـــزى، وهـــى صومعته منذ طفولته، وحدها فوق بيتهم الصغير بطوابقـــه الثلاثـــة، على السطح. السطح واسع لأنه خال، والغرفة صغيرة وحميمة.

أريد تثبيت صور هذه الأماكن فى دماغى، نَحتها إلى الأبد على

تلافيف مخى، أنا أعرفها مثلما أعرف خطوط كفى وملامــح وجــه أمى، ولا أمل لى فى مواصلة العيش فيها.

صفائح الفسيخ والسردين والملوحة وطوابق الرنجــة الخشــبية مرصوصة بحذاء الجدارين المشتركين مع بيتى الجيــران، وتحتــل طول سور البلكونة المطلة على الحارة. من هنا يمكن رؤيــة جــزء صغير مستقطع من النيل وكوبرى عباس مختفٍ خلف أبراج شــارع البحر الأعظم.

لماذا يسمى المصريون النيل، النهر العذب، بحرًا ؟

رائحة الفسيخ ثقيلة وقديمة قدم صــناعة الفســيخ منــذ عهــد الفراعنة، قوية ونفّاذه، لكننا اعتدنا عليها مثلما ألفنا رائحــة شــوقى السمكية نفسها. شوقى محاسب بمصنع أدوية فى مدينة ٦ أكتوبر، لم تحل بعد روائح الأدوية محل رائحة الفسيخ فى جسده.

فى مواسم الرواج القليلة للفسيخ والسردين، كشم النسيم وعيــد الفطر، يرتدى شوقى جلبابًا صعيديًا واسعًا أقدم مــن الــذى يرتديــه الليلة، ويلف شالاً أبيض على رأسه. يُلبس أصابع يديه وكفيه قفازين طبيين طويلين من المطاط، ويقف فى دكان أبيه "فســخانى المحبــة" على أول مدخل سوق الخضار.

شوقى يقف فى المحل، خلف البنك الخشبى القــديم، لا ليمســك الدفاتر وحسابات الضرائب بل ليبيع كفسخانى صنايعى، بينمــا أبــوه

المعلم فرج، بجثته الضخمة، جالس على كرسى عتيق من القش يزيّق تحته على يسار باب الدكان. جلبابه الصعيدى فاخر وعمامته ملفوفة حول رأسه الكبيرة وكوفيته سوداء. يمسك الخرطوم البلاستيك للشيشة بيد برتقالية؛ من أثر عمر طويل من تمليح الأسماك وتحويلها إلى ملوحة وفسيخ.

المعلم فرج يدخن الشيشة ويشرب شايًا أسود كثير السكر، ويعلو وجهه قاتم البنية، المنحوت كتمثال فرعونى، ملامح من يعانى تفكيرًا عويصًا. كسياسى وقور وجاد يشرح لجلوسه المتحلقين حوله، يشربون الشاى على حسابه، خطورة الموقف السياسى الراهن وعدم اكتراث الحكومة بالكوارث غير الطبيعية التى تحل دائمًا وأبدًا بالصعايدة الفقراء، والغلابة فقط، لا غير.

ينفعل الصعيدى العجوز، تتحرك يداه كثيرًا، يشوّح ويلوح، ويقفز واقفًا أحيانًا مهددًا سلامة الكرسى المتهالك، يحمرّ وجهه ويصفرّ وهو يزعق بكلام كثير، يمكن تصفيته وتنقيته واختصاره إلى هذه الجملة: "نحن الصعايدة أولاد البطة السوداء، تحرقنا الحكومة وتولّع فينا بجاز وسخ فى القطارات الخربانة، وتلقى بنا لأسماك القرش تأكلنا فى البحر الأحمر".

بلهجته الصعيدية الخالصة التى لم يشوهها أربعون عامًا من الحياة فى الجيزة يتحدث، وينظّر ويثرثر وحده، دون أن يسمح لأحد جلوسه من التجار والباعة أن يعترض طريق نهر كلامه المتدفق.

إذا اعترض أحدهم تدفق النهر، يحتد ناهرًا: "اصبر يا ولد عمي..اصبر".

شهوته للكلام لا حد لها. يتكلم بصوت أجش وحاد، ورثه شوقى منه، وهو يعدل عمامته على رأسه الصلعاء، ويواصل النهر تدفقه فوق رؤوس مستمعيه المضطرين لالتزام الصمت والأدب، فالمعلم فرج لم يسبق، منذ زمن، أن سمح لأحد أن يراجعه، أو يجادله أو يبدى رأيًا مخالفًا، يتقبل على مضض فقط، وفى أحيان نادرة الأسئلة المهذبة والاستفسارات المؤدبة بخلق ضيق.

منذ توقف عن إلقاء النكت وتأليفها، وحاله هكذا.

شوقى يطرقع لأبيه، أذناه واحدة من طين والأخرى من عجين، لا تهمه أطروحاته ونظرياته المتجددة دومًا، وتحليلاته السياسية اللاهثة تلاحق الأحداث، ولا تشغله السياسة من بابها الكاذب الكبير.

بطول بال، وبصمت يعامل شوقى زبائن الدكان، ينتقى ويزن ويلف الفسيخ والسردين والرنجة والملوحة فى ورق جرائد قديمة، قرأها أبوه عن بكرة أبيها.

شوقى يعمل بهمة ونشاط وهو يدارى كسوفه، يستر خجله وخوفه من أن ينفضح.

"لا مؤاخذة.. مش أنا". يقولها بصوت خافت، لكنه غليظ،

يطلقها من فمه الكبير بتكشيرة مفزعة يرسمها تضييق ما بين حاجبيه، وزم شفتيه الغليظتين تحت شاربه الأسود الكثيف.

"..انت أكيد غلطان، أنا فسخانى، مش محاسب ولا حلوانى ". ويخرج "هه" من سقف حلقه سمجة وقصيرة.

بإصرار صارم يتنكر شوقى لزملاء العمل ودائرته إن تصادف أن جاء أحدهم إلى فسخانى المحبة ليشترى فسيخًا، أو أخذه الفضول وجاء يسلّم عليه ؛ ليقول له بنظرة خبيثة: " كشفتك ".

شوقى لا أصدقاء له من دائرتى العمل والكنيسة، بدوننا يصير بلا صديق.

كان شوقى فرج معروفًا فى طفولته وصباه باسم مختصر، كان مشهورًا فى المدرسة والحى باسم "فسيخة"، واسم الدلع "فسوخة".

الآن كبر شوقى وتجاوز الثلاثين، وعالج يديه البرتقاليتين من تمليح الفسيخ حتى صارتا سمراوين، وشبه طبيعيتين، وصار يُنادى من قبل الجميع بالأستاذ شوقى.

إذا ضحك معه أحدهم، وناداه بلقبه القديم تنقلب سحنته ١٨٠ درجة، صامتًا لا يرد على محدثه حتى يغور من وجهه وحده، من تلقاء نفسه.

الحمد لله لم يبدأوا التحشيش بدونى.

قطعة الحشيش البنية الكبيرة خرجت بعد مفاوضات قصيرة مع شوقى. بدقة حَسَب حسبته وقسّمها على أربعة، ومد يده لنا مفتوحة الكف إلى آخرها، فاكتتبنا كالمعتاد.

بيد وضع شوقى النقود فى جيبه، وبيده الأخرى أخرج من سيّالة جلبابه ورقة سلوفان بحجم علبة كبريت، وأعطاها لحارث. فتحها حارث وأخرج القاتمة الرائعة، حشيشة الفقراء كما يدلعها. تشممها طويلاً بلذة واضحة، وابتسم ابتسامة واسعة لشوقى مهنئًا بجودة الصنف.

حارث أخرج من جيبه علبة تبغه الأنيقة، علبة برونزية مستطيلة من الصفيح محفور عليها وجه الثائر الأرجنتينى "تشى جيفارا"، بين شفتيه سيجار كوبى عملاق، على رأسه كابه الأسود الشهير، وذقنه هائشة وسوداء.

أخرج دفتر البفرة، وانهمك فى لف السيجارة الأولى كعازف آلة قانون، كل رأسماله فى أنامله.

كان يلف بانبساط وسلطنة.

بسرعة دارت بيننا السجائر المحشوة الواحدة تلو الأخرى، والتهمت أفواهنا معظم الفسيخ والسردين وكومة العيش البلدى، وكلامنا ثرثرات متواصلة متنافرة، تشرق وتغرب، تتجه شمالاً وتهبط جنوبًا.

تقريبًا بعد السيجارة الثامنة، أقول تقريبًا إذ لا يمكنني الدقة في الحساب في مثل حالتي الراهنة، قل بعد السيجارة الثامنة انقطعت الثرثرات تدريجيًا، حتى ران صمت مطبق لوقت طويل، كأن على رؤوسنا الطير، هأهأ. طيور كثيرة كانت تحلق بفضاء الغرفة، بيضاء وخضراء وصفراء تزقزق، وتغرد.

بدا لنا أننا نسينا لغة القوم القومية، فاستبدلناها بلغة الإخ والهقة والإشارة، اللغة الأصلية لإنسان الغابة الحالي.

بعد تردد طويل حاول كاغا أن يحكي عن توابع مضاجعة أخيرة اقتنصها في " نصر الدين "، في الطابق العاشر من البرج الضخم إلى جوار الجامع، بعد النفق مباشرة، حاول فتح فمه وإخراج لسانه محملاً بالأصوات، ولكن الكلمات تحجرت على لسانه.

أأأأأ....

لم يجد عماد الملقب بكاغا كلمات تسعفه، فوقف على حيله، ببساطة وأريحية عدل ببيونه الأحمر بأصابع يديه الاثنتين، ودون أن يخلع جاكته الأسود الثمين أنزل البنطلون ببطء حتى منتصف فخذيه السمراوين، وفتح سوستته.

وقف في منتصف الغرفة تحت اللمبة الفلوريسنت الطويلة حتى يكون العرض واضحًا مضيئًا. وأخرجه، الأسمر الدامي، المنكمش الصغير بإصبعين اثنتين من يده اليسرى، وأشار بيمناه إلى قرحة

دائرية قانية الحمرة بارزة على جلد المأسوف عليه، وأصدر من فمه وقوقة ديك مريض.

اعتدل شوقى من اضطجاعه على الكنبة الوحيدة بالغرفة، ورسم على وجهه فزعًا زائفًا، وهو ينزل على ركبتيه على الحصيرة مقتربًا بوجهه من كاغا.

بجدية طبيب أمراض جلدية وتناسلية أخذ فى فحص المـــريض الصغير، يرشق فيه عينيه الواسعتين، ويحدق دون أن يمد يده، حرك رقبته فوق وتحت، شمالاً وجنوبًا ؛ ليراه من جميع وجوهه.

"إمممم" مكتومة بشفتى شوقى المزمومتين، تغذى فزع ورعـــب كاغا.

مرت دقائق من الصمت المتوتر، ومازال شوقى يتلذذ بتعـــذيب كاغا.

أخيرًا، بعد الفحص الموضعى الـــدقيق أصـــدر شـــوقى " آه " طويلة، وهو يخبط جبهته فاتحًا فكيه على امتدادهما، بسلطة وحكمـــة طبيب استشارى عجوز أصدر حكمًا حاسمًا: ".. أمـــك، مـــا فـــيش حاجة!"

حارث تصنع الضحكة الحميرية لسيد العقر.

قهقهت أنا بعد ثلاث دقائق كاملة من جملة شوقى، ظللنا نضحك

زمنًا لا ندريه، بينما كاغا ساكن كتمثال فى وقفته، صامت بوجه قلق مترقب.

كاغا البارع حاليًا فى الغناء الشعبى المعاصر مميز جدًا، أيضًا، فى اقتناص بنات ليل من غير ملهاه، يستحرم ويكره تتجـيس محـل رزقه كما يقول.

من على مقاهى وكافيتريات فيصل والهرم، المفتوحـة طـوال الأربع والعشرين ساعة، يصطاد كاغا البنات كلمـا جـاءه مزاجـه وطلبت معه. لا يذهب للبارات والملاهى الليلية المنافسة إلا مضطرًا لتلبية دعوة مطرب صديق، أو لمجاملة راقصة زميلة. فى أيام تبطله الكثيرة حيث يغنى ليلتين فحسب فى ملهى " كماننا " يقعد علـى أيـة كافتيريا فى شارع الهرم أو فيصل فى نحو الرابعـة قبـل الفجـر، ويطلب شايًا وشيشة منتظرًا عودة البنات من عملهن فـى الملاهـى العلنية، والبيوت السرِّية.

ولأن المطرب الأنيق وسيم كعمر الشريف فى فيلم "صراع فى النيل"، وهو يعلم ذلك منذ اخضر فى وجهه شـارب، فـإن سـقوط إحداهن فى براثن هواه مسألة وقت لا أكثر.

"ساعة مثلاً.. بكتيره".

يردد كاغا فخورًا بذاته فخرًا عربيًا أصيلاً، له تاريخ عريق.

يقول لك: "شوف..النسوان دى غلبانه جدًا، من شقا لشقا، مـن

أبو هدره لأبو عقال يا قلبى لا تحزن، عواجيز.. الشق فى رجليهم قد منطقة شق التعبان". ويضحك حتى يستلقى على قفاه.

نلح نحن عليه أكثر ؛ حتى نعرف النظرية كاملة آملين أن تكون مناسبة لأن نستخدمها يومًا ما.

خذ بالك، شوقى ليس لصًا بأى وجه من الوجـوه، وإن احـتفظ بسيجارتين لنفسه من وراء ظهرنا، كما يفعل الآن.

قال كاغا: "تصدقوا بالله، مرة بنت عشتنى، وفتحت على شرفى إزازة ويسكى "شيفاز" محترمة، فى كازينو الليل، بس عشان تفضـل تبص فى وشى !"

"يا سلام !!"

رددنا جميعًا.

"أصلها كانت محبوسة ثلاثة أيام عند واحد عجوز قوى، قالـت لى.. وشه لوحده خلاها ترجع اللى فى بطنها خمس مرات".

قال حارث بحقد كامن وظاهر:

"دى شرموطة.. شغلتها كده، هتنقى الزباين كمان!"

احمرّ وجه كاغا غضبًا، قفز من مكانـه دون كلمـة، وخـرج للحمام البلدى الذى اخترعه شوقى فوق السطح، إلى جوار غرفته.

كنا نعرف نظريات كاغا عن الحاجة للحياة، مهما كان ما يدفعه المرء من ثمن، ولكن تعاطفه، قل محبته للشراميط بدا غير مفهـوم على الإطلاق.

كنا قد تربينا على نظرية أبناء الجيـزة الأصـلاء، كالتجـار والموظفين والمهنيين الصغار، والباعة المستقرين والجـائلين مـثلاً. النظرية تقضى بالآتى: "يمكن لك أن تتلذذ بـالنوم مـع شـرموطة، وتجربة أشياء فاضحة وأوضاع لا تستطيع فعلها مع امرأتك، وأنـت تكن لها احتقاراً أصيلاً راسخاً فى نفس الوقت، المهم ألا تستغفلك فى الثمن".

فرحنا فى كاغا لأن مرضًا خبيثًا، لا شك، قد أصـاب مركـز فخره الأساسى.

من للبائسات بعدك يا كاغا، مـن يمسـح دمـوع المومسـات الطيبات يا مطرب الأهرام، وأبى الهول والنيل ومستشـفى الرمـد، وكوبرى عباس، من....

ارتجلنا نشيدًا جنائزيًا ممطوط اللحن قليل الكلمات، يليق بوداع ذكورة كاغا، وتشييعها إلى مثواها الأخير. عاد من الحمّام وهو يسمع مرثيتنا الجنائزية، لم يكن قد أغلق سوستة بنطلونـه بعـد، صـرخ وزعق بعزم ما فيه بغضب:

"أبدًا.. أبدًا يا كلاب".

زدنا قهقهة وتراقصنا فى أماكننا.

مال بجسده الفارع على شوقى بعينين دامعتين، لأول مرة نعرف أن له عينين حزينتين يمكن أن تفر منهما الدموع، وضع يديه على كتفى شوقى، وقال متضرعًا بصوت مبحوح مستجديًا كشحاذ:

"ورحمة أبوك، اللى لسه ماماتش، مافيش حاجة فعلاً ؟.. أنا سليم.. مش كده ؟"

شوقى قال له بعد تفكير عويص:

"أحسن حاجة إنك تسأل أنور الظابط.. هو عارف كل حاجة!"

"هههههه.. آه.. أنور جبر هو الوحيد اللى عارف كل حاجة".

قالها حارث، حارس بيت آل جبر القديم، وهو يتمعن فى وجهى بتهديد مستتر.

سرت فى جسدى قشعريرة باردة. ضحكوا كلهم إلا أنا.

عندما جاءت سيرة الضابط تعكر مزاجى، واغتمت روحى، وانقبض صدرى كأن سكينًا رشق فيه. أحسست باختناق، بيدين تلتفان حول رقبتى ببطء وإصرار.

كنت قد تناسيته، نسيته وغفلت عن ذكره، وكاد وجهه يطير من رأسى.

ها هو يقفز أمامى بوجهه الأبيض الأمرد، بعينيه الخضراوين اللامعتين اللتين أخذهما عن جدته روز اليونانية. ابتسامته ناعمة، بشرته بيضاء مشبعة بالحمرة، وصوته رقيق وخافت.

أنور كان ولدًا متوسط الطول، ممتلىء الجسد، يسير مختالاً فى حوش المدرسة، وحوله دائمًا تلميذان ضخمان من أقربائه، يحميانه من تحرش العيال القبيحة الأكبر. التلاميذ الذين بلغوا للتو، واندلعت فى أجسادهم نيران شهوة هوجاء، لا تجد متنفسًا لها سوى جسد أنور.

هكذا كان أنور جبر فى مدرستنا قبل عشرين عامًا.

لم أشاركه فصلاً واحدًا أبدًا، كنت أنا وحارث وشوقى وحسين فى فصل المتفوقين دائمًا، بينما ينتمى هو للتلاميذ العاديين. كان مشهورًا فى المدرسة لأننا جميعًا نعرف محل أبيه الشهير "جزارة جبر" بسوق الخضار، نشترى منه فى أحيان نادرة ؛ لأنه أفخر وأغلى لحم بالجيزة.

الآن، أنور ضابط شهير بالنبل والشهامة والدماثة، لا يرد سائلاً ويساعد الجميع، ومحل الجزارة الوحيد صار خمسة فروع فى الجيزة وحدها.

انتقل الضابط منذ زمن طويل من منزلهم بسعد زغلول إلى برجهم بالبحر الأعظم، ولم يعد يراه أحد على مقاهى مراهقتنا وبواكير شبابنا. لا يأتى لملاعب طفولته فى قلب الجيزة إلا نادرًا،

ومع هذا بقى ذكره على الألسن، حتى شوقى يذكره وهو مسطول.

أنا لم أكن أعرف أنها امرأته، أمس فقط زل لسانها باسمه. لا أعرف، إذا كان يعلم أم لا يدرى أننى أضاجع امرأته الجميلة، أنكحها بلا تأنيب ضمير، بلا شعور بالإثم، هى ليست ملكًا لأحد، هى امرأة حرة!

نشج كاغا طويلاً وهو يضحك أثناء بكائه، شوقى وحارث كانا يقهقهان كمجنونين. تردد حيطان الغرفة، عالية السقف، أصوات النشيج والضحك والقهقهات. بكى كاغا خوفًا من العنة ؛ خشية أن يعطب ذَكره للأبد، بكى لأنه كان يريد ألا ينقطع ذِكره من الحياة الدنيا بإنجاب ذرية صالحة، أصلح منه هو شخصيًا. كاغا يواظب على صلاة الجمعة بجامع الشيخ رمضان بأول شارع المحطة، يصلى ويدعو الله أن يهبه ذرية كثيرة من البنين فقط، عندما يتزوج إن شاء الله. كان يحلم أن يصير له أطفال يومًا ما. أطفال لا يغرقون فى البحر مثلما غرق طفلى أحمد فى بحر المعمورة بالإسكندرية فى الصيف قبل الماضى.

تعب الثلاثة من الشرب والسُطل والضحك، من الأكل والكلام والبكاء، فاستكانوا صامتين ساكنين. سكت المكان، وتوقف الزمن فيه مثل قبر ضيق، لا يتسع سوى لجثة وحيدة.

حلت الظلمة علىّ جالسًا القرفصاء على التراب داخل قبرى الضيق، وحدى، فوق رأسى شاهد قصير من الحجر ليس عليه

اسمى. هادئًا وصامتًا، أحدق فى الجدار بمحجـرين خـاويين، بـلا عينين.

كنت وحيدًا، وحدى تمامًا.. مع نفسى.

8

أنـــور جبـــر

أرى بعين خيالى أنور جبر وجهًا لوجه.

أستجمع قوة إرادتى وأستحضره كى أعرفه، أتأمله وأعريه من زيّه الميرى، أجعله يسير مثلنا، نكرة فى الشوارع، شأنه شـــأن بقيـــة خلق الله.

يأتينى فى قميص وبنطلون، لا يميّزه شىء عن المارة، يســـير بخطوة "ابن الحتة" الواثق من موضع قدميه، يُقبل باستهانة من جهـــة البحر الأعظم، يخترق الأزقة والحوارى حتى يصل ساحة الجمعيـــة البيومية، يجتازها لأول خوفو، يمشى الشارع بطوله حتـــى يعـــرج لحارة الشيخ زهران، ويصعد للسطوح حيث غرفة شوقى.

أريده أن يأتى للقائى رجلاً لرجل.

"تعال يا رجل".

يأتى بثقة وغرور مختالاً بنفسه مبتسمًا بصلف قائـــد عســـكرى

مهيب. أرى وجهه غائمًا مهزوزًا، مضببًا فى وضع استعداد لضحك هستيرى. أراه كما بدا لى طيلة ليل وفجر أمس على شبكة العنكبوت الكونى الأعظم، الإنترنت.

لأكثر من عشرين ساعة متواصلة كنت أركض خلفه. ألاحق محركات البحث الشهيرة: "ياهو"، "جوجل"، "ام اس ان"، "التا فيستا"، مكتوب، المحيط، مصراوى، العربية، الزمن...إلخ إلخ

أدخن بشراهة، آكل سجائر لا تحصى، أدخن وأنا ألهث عرقانًا فى برد غرفتى. لسعات برد الفجر تأتى من شباكى المفتوح على الشارع، لو أغلقته سأختنق بدخان سجائرى متواصلة الاشتعال، وأنا أذرع شبكة الإنترنت شمالاً وجنوبًا، شرقًا وغربًا إذا كان لهذا العالم اتجاهات وخطوط طول وعرض. فاقدًا الإحساس بكل شىء حولى أسعى بيدى وعينىّ، بكل حواسى ودماغى، وليس فى عالمى سوى حروف اسمه، كمختل عقل شرس أسعى خلفه بالحروف العربية واللاتينية فى الفضاء الافتراضى المفتوح، الفاضح والشفاف. أبحث عنه، عن أى شىء له علاقة به.

ينتابنى يأس مرير من آلاف النتائج التى أحصل عليها، يرتفع هرمون مواجهة الخطر فى دمى فأصرع يأسى، وأواصل البحث بوحشية كأننى سآكل جهاز الكمبيوتر نفسه وأبتلعه.

بعد خمس عشرة ساعة من البحث المضنى المتواصل، وصلت لذلك الركن الصغير فى عالم الصور اللامتناهى والأوديو والفيديو

والكلمات. على الأقل تتبعت عشرين شخصًا يحملون نفـس الاسـم، نفس المهنة تقريبًا، ربما هذا هو هدفى النهائى. بغير تأكيـد، بشـك، وباسترابة أقرأ حروف اسمه، وأحدق فى الوجـه المغـبش الملـتقط بكاميرا موبايل بائسة، وجهه ظاهر من الزاوية اليسرى فقط، ببروفيل بائس.

هل هذا الشخص هو من أريده، من أقصده ؟

ربما، لا أدرى.

ما أراه هو من يقف أمامى الآن فى غرفة شوقى، نفس الوجـه الذى ظهر به فى الفيديو كليب، المنشور على إحدى المدوّنات.

المدونة صغيرة محدودة السعة، ومجانية على "ياهو جيوسيتيز"، الألوان الصريحة فى صفحتها الأولى كثيرة، تبرق على حبال ملفوفة بطول وعرض الصفحة الأولى، كأنها تزين حيطان بيت أو متجر، أو مغسلة جديدة. خمسة أحبال من لمبات صغيرة ملونة تحتفـى بفـرح عمدة مندثر، ويعمدها ألوان العلم القومى بألوانه الأحمـر والأبـيض والأسود. الواجهة من الطوب الحرارى لدكان صـغير فـى سـوق خضار ولحوم وسمك.

المدوّنة ترفع فوقها لافتة بضوء النيون باسم الدكان، والـدكان اسمه "كُلْ واشكر"، ولا يقدم سـوى الفـول والطعميـة والبطـاطس والطرشى. جدران الدكان من الأرض للسقف من السيراميك الأبيض

والأسود، النصبة قطعة رخام بنية عريضة، ينتصب خلفها بوتاجاز كبير بأربع عيون واسعة، فى ركن تستند إلى الجدار أسطوانة غاز زرقاء طويلة. فوق البوتاجاز قدرة فول ألمونيوم هائلة الحجم، وطاسة يغلى فيها الزيت فى انتظار رمى أقراص الطعمية، الزيت يغلى فى انتظار الطش.

صانع الفول شاب فى نحو العشرين، ولد نحيف مبتسم بفم واسع، يبدو نشيطًا ومرحًا فى مريلة المطبخ البلاستيك الخضراء. بين كفيه عجينة الطعمية، الولد ثابت فى وضع المستعد لرمى القرص فى الزيت المغلى، وينظر لزبائن المحل بابتسامة واسعة.

بأركان المحل الصغير ووسطه، على ثلاث تربيزات خشبية عارية المفارش، يجلس عمال يومية وحمّالون، وباعة بجلاليب وشوارب. ريفيون بطواقى ووجوه سمراء داكنة لوّحتها الشمس، صنايعية من أعمار مختلفة، صعايدة، وامرأة عجوز جالسة وحدها فى جلباب أسود واضعة يدها على خدها.

أمام بنك المعلم يتزاحم موظفون، وطلبة وطالبات إعدادى وثانوى، وامرأتان، يمدون نقودهم للمعلم، وبأيديهم أكياس بلاستيك صغيرة فيها ما اشتروا من سندوتشات الفول والطعمية وغيرها.

على بلاط المحل العارى مقاطف جلدية سوداء، بها أزاميل وفئوس وميزان ماء ومَسْطَرِين، فرشة دهانات وزرديات، وعِدَد شغل مختلفة.

على البلاط أرجل الزبائن فى جزم قديمة وكاوتشات وشباشب، ومراكيب.

على حائط الدكان المواجـه للمتصـفح بـرواز ان بصـورتين فوتوغرافيتين، واحدة للرئيس جمال عبد الناصر شابًا فى بدلة سفارى نصف كم، مبتسمًا يضع يده على كتف نجله الأكبر، والأخرى صورة نصفية لصاحب الدكان ضاحكًا وفاشخًا فكيه على آخرهما، وإبهام يده اليمنى معلق فى عروة صديرى فضى تحت جلبابه الكشمير، وشاربه الكث مهوش. هو نفسه المعلم النزيه الجالس خلف نصف دائرة بنكـه الصغير فى عمامة صعيدية وبكرش عظيمة، يده تقبض على مبسـم الشيشة، والدخان يظل الزبائن المتزاحمين أمامه. المعلم راسـخ فـى جلسته ومبسوط وسعيد بتزاحم الناس حوله، درجه مفتوح، ويده تلتقط الفلوس من يد من أمامه.

على جبهة المعلم لافتة: "اضغط هنا !"

كلمتان مكتوبتان بالأحمر على ناصية المعلم العريضة السمراء.

ضغطت هناك.

"معكم المعلم شطة مالك ومدير مطعم كُلْ واشكر، و.."

يخبرنا الكابتن باسمه بنفسه، ويبدأ فى إسماعنا صوته الكـريم، الصوت ردىء تقنيًا، والمعلم يتكلم بلزمـات وأداء الكـابتن ميمـى الشربينى، معلق مباريات كرة القدم، فيعـد زواره الكـرام بأسـخن

الفضائح السرّية، والأخبار الجديدة، وكشف المستور من أحوال المحروسة.

المعلم يقود الزائر إلى عشرة "لِنكات فيديو" بعبارة: "جديد وسرّى للغاية".

بعد استعراض سريع للنكات العشر وصلت إليه، إلى أنور جبر.

فى الفيديو، ردىء الصوت والصورة، كان شابًا فى نحو الثلاثين فى قميص وبنطلون عادى، بيده كرباج أسود طويل، يجلد فتاة جميلة فى نحو العشرين.

يأمرها بهزات متتابعة من يده اليمنى أن تخلع بلوزتها، وجه الشاب مضبب. البنت تبكى وتحرك رقبتها يمينًا ويسارًا رافضة، السوط ينزل على صدرها بضربة خفيفة، الشاب يأمرها ثانية بتلويحة من يده، البنت تستعطفه بدموع عينيها ونشيجها الخافت ويداها تربت على صدرها استعطافًا، ضربة السوط هذه المرة أقوى تطول بطن الفتاة وخصرها. البنت تفك أزرار البلوزة، ووجهها غائم فى ذل. الشاب يبتسم بسماجة وهو يحدق فيما برز من بين حمّالة صدرها. نهداها يفيضان عن السوتيان وما بينهما جيب عميق برونزى مثير. الشاب يبلع ريقه، والبنت خجلة للغاية تحاول ستر عريها بيديها، تضع يديها الاثنتين فوق ثدييها. الشاب يضربها، يسقط طرف سوطه على حمّالة الصدر البيضاء. البنت تنشج وتلطم خديها بقسوة. السوط

يرتفع فى الهواء ويهوى على ركبتيها، ومن بعد على فخذيها تحت بنطلونها الأبيض الواسع، فتصرخ. الشاب يمسك طرف السوط بيده الحرة، يهددها بحركة من سبابة يده اليمنى، نظرة عينيه مخيفة، صامتًا يحدق فيها بغضب. البنت بعينيها رعب مهول، ببطء تمتد يدا البنت وهى ترتعش إلى سوتيانها، تحاول خلعه من الأمام فلا تستطيع، تنظر للشاب مقهورة. الشاب تتحرك شفتاه بسباب ما. ببطء، مترددة تمد الفتاة يديها إلى خلف ظهرها، وتفتح مشبك سوتيانها ودموعها تنهمر ورأسها للأرض. الشاب فاتح شفتيه، يمص لسانه بتلذذ، نهداها مكتنزان، والحلمتان صغيرتان، صدرها يلمع وعيناها جامدتان تمامًا غارقتان فى الدموع. الشاب له وجه مستمنى فى منتصف المسافة إلى الذروة. فجأة يضحك وهو يطرقع السوط على البلاط، ثم يصوبه على ثدييها وحلمتيها، البنت تصرخ وتصرخ ألمًا ورعبًا، والشاب يتلوى جسده، وهو يتأوه كتأوهات من يقذف. يده تمتد لأقصى مداها، وهو يطوح بالسوط، ويهوى به على الصدر العارى، يطرقع صوت جلدها مع صراخها. الشاب سكران بصرخات رعب البنت. الشاب يتراقص جسده، أصابه جنون اللذة، يصرخ وضربات سوطه تتسارع محمومة. الشاب يتأوه ويضرب بكل قوته، والبنت تكورت على نفسها. يداها على رأسها، جلدها الأسمر مرشوق بما تتركه ضربات الكرباج خلفه، الكرباج يترك للأبد خطوطًا ودوائر، وبقعًا حمراء قانية وطويلة. السوط حفر أثره على جلدها كأزميل فى حجر. البنت تبكى صارخة، بكاؤها سيخرج أحشاءها من بين جنبيها، ضربات السوط تزداد عنفًا، تتوالى بسرعة وقوة مفرطة

عليها، كل جسدها الصغير صار كتلة حمراء دامية، تصـــدر عنــه، ومنه، استغاثات وصرخات تأتى من جحيم العذاب، البنــت تصــرخ وتصرخ صرخات رعب وألم مهول لا طاقة لأحد باحتماله..

فجأة تقف الصورة عند هذه اللقطة، ولا مزيد.

نحو ستين ثانية من سادية غابة الجحيم تخلــع القلــب وتشــعل الرأس شيبًا.

قمت من مكانى مرعوبًا وأنا أضع يدى على فمـــى، وجريــت للحمام، أفرغت أحشائى وجسدى كله يهتز مع كل انتفــاض لمعــدتى وفتح لفمى عن آخره، وخروج للطعام والشراب من جــذر معــدتى. أنتفض ورأسى تكاد ترتطم بالحوض، وأنا أكاد أبول على نفسى.

بعد أن تخلصت من كل ما فى معدتى خلعت ملابســى كلهــا، ووقفت تحت الدش تاركًا الماء يغمر جسدى لنحو الســاعة، عاريًــا جسدى يرتجف، أهذى بكلام كثير كمحموم يخرف، خرفــت طــويلاً حتى همدت، ولم يسمعنى أحد، لا أمى ولا امرأتى.

لست متأكدا أبدًا أن هذا الشاب هو أنور جبر، ولــن أســتطيع بحال أن أعود لمشاهدة هذا الرعب مرة أخرى.

لم أر أنور جبر منذ نحو خمسة عشر عامًــا. هــل يمكــن إذا أنقصنا من هذا الوجه الذى ظهر فى الفيديو الملعون خمســة عشــر

عامًا أن يكون هو نفسه الوجه الوسيم، البرىء لتلميذ مدرسة أبى الهول ؟!

لا أعرف. ويبدو أننى لن أعرف أبدًا.

9

صفعة

وجه نشوى الضاحك المستهتر لا يبارحنى أبدًا، يسقط فى سديم رأسى فوق وجه أنور، يخفيه ويزيحه من أمام وجهى، ومن ظلمة أفكارى، ومن لف ودوران مخى داخل دماغى الأسود.

أحداث أمس مازالت تفرمنى تحت ثقلها، تهصر جسدى، وتعذب روحى ولا سبيل للفرار من تسلطها المحموم على خلايا جسدى، على بصرى وسمعى، وقلبى الأحمق الشرير.

جرثومة إفناء الذات، غالبًا، هى شىء ينتمى لما يُسمى القلب الإنسانى، إذ ليس هناك اسم آخر يحمل، ويتحمل، ويشير إلى المعنى المراد. جرثومة إفناء، محو الذات، تتطابق وتتحد مع الرغبة العارمة فى حب الآخر. آخر بعينه يحمل فى قلبه، فى ذاته، جرثومة مماثلة، وعندما تتجذبا وتتلاقيا بلا مقاومة أو إعاقة من بقية الجرائيم الإنسانية الكثيرة، كالأنانية والغيرة والحقد، يكون الوقت قد نفد، ولم يعد هناك قدر آخر سوى اتحاد جرثومة الأنا بجرثومة الآخر، لا يعود هناك مفر من المصير المحتوم: ما يُسمى بالحب، أو ما أسميه أنا فناء

الذات، أى: موت الأنا.

الجرثومة الغالية التى نتجت عن لقائى بنشوى، عن لقاء نشوى بى، تتجول فى الشرايين والأوردة والدم واللحم، وتنشـر ضـوءها الأبيض داخله كله، فيشع، ينير ويتوهج. الجرثومة المخصّبة تتطابق وجلد كامل الجسد، تدمغه فى صحوه ونومه، فى حضوره وغيابـه، فى حركته وسكونه، تطوق الجسد بهالة شبه مقدسة ظاهرة للعيـان، مرئيّة لمن له بصر وبصيرة، لمن له عين وقلب. لكن القلب ضعيف، الجسد واهن، والروح صغيرة، الواحد، بما أنه بشر، لا يقوى علـى احتمال المزيد من المتعة والجمال، لا يقوى على الحـب. لا يقـوى على مواصلة الطريق إلى نهايته، وليس من سبيل عند الوصول إلـى الذروة الصغرى سوى محاولة مريرة للخلاص، تدمير الذات إراديًا، تدمير نفسه بنفسه، لصالح نفسه.

إذا لم يكن المرء محظوظًا، إذا كـان مشـئومًا مثلـى، تعسًـا كحالى، ولم يأت التدمير من الداخل، من القلب نفسه، من قلب العاشق ذاته فسيصير عبدًا ذليلاً لآخر، يتوسل إليه أن ينهى كل هذا العـذاب اللامحتمل برصاصة رحمة، برصاصة انتقـام، ثـأر أو كراهيـة عمياء، لا فرق. فالآخر فى النهاية يسدى لى جميلاً لا يقدر بثمن إذا ما عجل بقتلى. إنه يحمل على عاتقه مهمة خلاصى، جميل تخليصى من مأزقى الخانق. الآخر إن فهم ذلك فإنه لن يريحنى أبدًا، لن يقتلنى وسيدعنى هكذا معلقًا مشلولاً فى انتظار مساعدته، أو فـى انتظـار شجاعتى الذاتية التى يبدو أنها لن تتجاوز وتنتصر على جبنى أبـدًا،

لن ترتقى وتقوى على تخليص نفسى، لن تقوى على قتلى وإنهاء عذابى.

كم بقى لى للوصول لهذه المرحلة، لا أرغب فى إنهاء حياتى الآن بيد غيرى، ولن أقوى على إنهائها بذاتى، على الأقل لأيام وليال قادمة إن استطعت، مازلت أرغب فيها بكل جوارحى، ما زلت أريدها، أريد نشوى.

بالأمس، ذهبت إليها فى شقة عائلتها بشارع النيل، فى نحو السابعة مساء رحت إليها بشوق ولهفة رغم أننى كنت قد تركتها منذ ساعات قليلة فحسب.

كنا قد أفطرنا سويًا، على الواقف، أمام عربة يد.

على رصيف كوبرى كوبرى عباس عربة خشبية مدهونة بألوان مبهجة كثيرة، على خشب مقدمتها كتابة بالأخضر: "كُلْ فول وصلى على الرسول".

العربة تعرض وجبة إفطار من الفول بأنواعه، فول بالزيت الحلو أو الحار، بالبيض، بالطماطم، بالطحينة، وتقدم الطلب للزبائن فى أطباق ستانلس صغيرة، ومعه رغيفان وليمونة وطرشى.

الفوّال عجوز فى مريلة بيضاء نظيفة، محنى الظهر، واقف فوق صندوقين كوكا كولا مقلوبين خلف قدرة نحاسية كبيرة.

اهتز جسمه الضئيل، وخلع طاقيته البيضاء الصغيرة طربًا عندما رآها، وأخذ يحدق فيها بعينين باسمتين غائرتين محاطتين بغضون عتيقة، فوقها حاجبان كخطين أبيضين.

"يا دين النبى.. إيه الحلاوة دى ؟!"

قال لنشوى وغمز بعينه، فضحكتْ له، وقالت: "طب اتوصى".

ازدادت تجاعيد وغضون وجهه، تحت شعر كالقطن، وهو يبتسم ويبش لى بطيبة وود:

"معلهش، أصل نفسى أشتغل حلوانى يا أفندى".

أكلتْ بشهية طبق الفول بالزيت الحار والليمون والرغيفين، وقالت: "يااه.. من زمان ماكلتش فول". دون أن تترك يده المغرفة الغاطسة في القدرة، أو يتوقف جسده عن الاهتزاز ما بين القدرة والطبق فى يده، رفع وجهه إليها، وغازلها المعلم:

"تعالى كل يوم يا أموره.. أنا دايمًا فى الانتظار".

أخذتها تحت باطى، وهى لا تزال تضحك للفوّال، ومضينا مبتهجين.

فى كازينو الحمام، الخالى من الزبائن فى الصباح الباكر جلسنا على مقعدين بامبو كلانا بجانب الآخر، يداها فى يدى، ووجهانا للنيل. كنا صامتين.

شربنا شايًا وقمنا نتمشى.

عبرنا كوبرى عباس إلى الضفة الأخرى، يدها اليمنى حول خصرى ويدى اليسرى تحت شعرها الطويل، على كتفها الناعم ترتاح أصابع وكف يدى، الوجه فى الوجه والعين فى العين. تكلمنا عن العجوز المرح، وحلاوة فوله، والبرد القادم لا محالة بدخول ديسمبر، ووصول زوجها المرتقب، وفيلم " بحب السيما " الذى شاهدته هى منذ مدة طويلة مضت، ولم أره أنا بعد.

تعبنا من المشى وامتلاء القلب بالغرام والعقل بالأفكار المتضادة، وبدأ يزداد زحام المارة، وعابرو الكوبرى. عدنا إلى شارعها، لم أتركها سوى عند مدخل العمارة، قالت " اطلع معايا ". قلت: " واقع، خلصان، عايز أنام ".

قبلتنى قبلة سريعة على شفتىّ فى الشارع، وقالت: " تعال بالليل.. هاستناك ".

مشيت المسافة القصيرة للبيت وأنا مهموم بعودة زوجها أفكر كيف سأعيش بدون نشوى، هل يمكننى أن أعود لحياتى المعتادة كما كانت قبلها، هل، وهل.. وجدت نفسى، أخيرًا، فى سريرى، نمت نومًا عميقًا كقتيل، بلا أحلام ولا كوابيس، وغفا مخى الدوّار فى سبات الموتى.

بالساعة البيولوجية فى جسدى وحدها استيقظت منتفضًا، ملهوفًا

لهفة من سيفوته إنقاذ طفله الذى يغرق، بسرعة أعددت نفسى للقائها.

فى الصالة ابتسمت، قبّلت رأس أمى الجالسة على كرسيها المتحرك تشاهد نشرة السادسة على القناة الأولى، وتطرز لى بلوفر أسود جديدًا، وخرجت من البيت.

ذهبت إليها كطاووس مختال بنفسه، قميصى الصوف الجديد أحمر، ذقنى حليق، وعطر جوتشى الثمين ينتشر أمامى بمتر.

كنت أريدها كمجنون، أرغب فى النوم معها خمس ساعات متصلة.

بلكونة غرفة نوم نشوى تطل على النيل، على البلاط وفوق السور العريض تتوزع أصص الورد، وشجيرات الياسمين، وأنواع عديدة من الصبّار، ونباتات أخرى لا أعرف أسماءها.

أقف هناك، أسند جسدى وذراعىّ على حديد البلكونة، أشعل سيجارة، وأنظر للنيل.

أرى فلوكة صغيرة بها صيّاد يُلقى شبكة كبيرة فى الماء بحذاء الشاطىء تحت كوبرى عباس، وطفلاً يجدف بمهارة محافظًا على توازن القارب، الصيّاد النحيل، برشاقة يتحرك على أطراف أصابعه العارية دائريًا، والهواء ينفخ جلبابه ويطيّر شاله الأبيض.

فى وسط الماء يخت كقصر صغير من طابقين يعلوه حمام

سباحة، يتهادى ببطء على صفحة الماء مرسلاً موسـيقى كلاسـيكية لركابه الأربعة، ثلاث فتيات شقراوات، كأوروبيات، يخطرن بخفـة ودلال حول كهل ضاحك جالس فى عظمة إلى مائدة عامرة، فى يده اليمنى سيجار ضخم، وفى اليسرى كأس. تمر مسرعة زوارق سباق، يباشر رياضيوها الشبان والفتيات تدريبًا مسـائيًا، وتقلـع، بطيئـة، مراكب شراعية وأخرى بمواتير تطلق فى الهواء مزيجًا مركبًا مـن الأغانى الشعبية والموسيقى الصاخبة وطنين المكن. المراكب غاصة بعائلات وشباب يتنزهون، يأكلون ويرقصـون، يغنـون ويلوّحـون للآخرين على متن القوارب والزوارق واليخت.

لا أحد يرقص أو يلوّح على متن سفينة أفندينا الفخمة الراكنـة على مدد بصرى على الشاطىء الآخر.

أنتظر أن تأتى من المطبخ.

أعرف أن زوجها على وشك العودة من سفره الطويل، لكننى لا أعرف إلى أين سافر، من أين سيأتى. لا أعرف حتى أين تعيش هى معه، أين بيت الزوجية المفترض.

نشوى لا ترتدى دبلة زواج مكتوبًا عليها اسم زوجهـا كبقيـة النساء، فى إصبع البنصر بيدها اليسرى خاتم ذهبى رقيق عليه زهرة لوتس بيضاء، وبقية أصابعها الرشيقة الطويلة خالية.

لم تذكر اسم زوجها أوعمله أبدًا طيلة شهور علاقتنـا السـتة.

قالت إن هذا هو سرها الوحيد الذى ستخفيه عنى، وعلىّ أن أقبل إن أردتها.

كنت أريدها للنخاع، قبلت، ونسيت أن لها زوجًا من أساسه، وغرقنا معًا.

لم يكن أمامنا سوى ساعات قليلة من الحرية، كما قالت. لقاؤنا بشقة والديها كان شبه يومى، حتى الآن لم تهدأ فىّ عاصفة الغرام الأولى، لم تخمد النيران بعد.

ستة شهور قضيناها معًا فى بيت عائلتها، نأكل ونشرب، ونتضاجع بلا نهاية، كل يوم، كل ليلة.

ستة شهور من الولع والشهوة الممتدة بلا نهاية.

نشوى هى خلاصة نساء حياتى، فيها من كل من أحببتهن واشتهيتهن، هى الجامعة المانعة لجنس النساء فى الحسن والفراش والحنان.

أرغب فيها بجنون.

لم يزل لسانها أبدًا باسم زوجها، كانت تتجاهله فى حديثها تمامًا، وأنا لم أصر على المعرفة، كنت مسطولاً، سكران دائمًا، وأريد أن أبقى جاهلاً حتى الموت.

وجه نشوى صريح فى الجاذبية والإغواء، حاجباها الرفيعان

هلالان يصعدان، ويهبطان فوق عينيها العسليتين المشروطتين حين تتكلم، وصوتها طروب، يخرج من شفتين مكتنزتين ترسمان طائرًا ورديًا. نشوى أجمل من ضاجعت، وأكثرهن شهوة وجسارة فى أمور الفراش خدعتنى، ودفعت بى إلى هذا الجنون المخزى.

ولا مرة، لاحظت فى بيت عائلتها شيئًا يدل على شخصية زوجها، هى شقة والديها اللذين ماتا، وليس لها سوى أختها الكبرى عبير، التى ترافق زوجها الدبلوماسى فى الخارج. كانت عبير معنا فى مدرسة أبى الهول، نعرفها، جميلة ومؤدبة، بنت ناس، وشاطرة جدًا.

الشقة صغيرة وعادية للغاية، لا تدل على الثراء، ولا على يسر الحال، ولا تشير إلى الفقر، شقة عائلة المهندس الراحل. صورة عائلية قديمة تتصدر الصالة تضم الطفلتين الجميلتين، جالستين أمام أقدام الوالديْن. الأم شابة بشعر أسود لامع، منحنية برشاقة للأمام، بعيون عسليّة تنظر لرأسى البنتين بحب. والأب الكهل منتصب فى وقفته، فى سترة سوداء وكرافتة معقودة، صرامة ملامحه مفكوكة قليلاً بابتسامة رب عائلة محافظ ومهيب .

لا صورة معلقة على الحائط لها وحدها أو مع زوجها.

جاءت من المطبخ فى قميص نوم أبيض قصير، يلمع تحته جسدها البرونزى الريان، وعلى يديها صينية من النحاس فوقها زجاجة شمبانيا، وكأسان.

جلسنا على السرير كدأبنا، ومن جيبى أخرجت قرش حشـــيش لبنانى فاخر.

غرقنا فى الشرب والتدخين وممارسة الحب حتى زلت باســـمه دون وعى، دون أن تعرف ما تقول، وماذا يعنى لى، لا أعرف مـــا الذى بدا على وجهى لحظتها جعلها تخاف هكذا، وتنتفض مـــذعورة من السرير إلى ركن الغرفة.

عاريًا من كل ملابسى قمت إليها، أقف أمامهـــا، أنظـــر إليهـــا محدقًا فيها كأنى أراها للمرة الأولى فى حياتى، صامتًا يلف شـــريط طويل فى دماغى. وجوه كثيرة قفزت إلىّ من الظلمة، وجوه طالمـــا اشتقت إلى رؤية بعضها كما أشتاق أن أرى وجهى قبل عشرين سنة، كان وجهه بين وجوه صباى ومراهقتى.

سألتها ما عمل زوجها بالضبط.

أفاقت وقد ذهب عنها سطلها وسكرها، قالت بصـــوت خافـــت مبحوح، باستهانة، إنها لا تعرف ولا تريد أن تعرف.

تحركت نحوها، اقتربت منها أترنح فاقدًا السيطرة على نفســـى، وبلا وعى صفعتها على خدها الأيمن.

سكنت مأخوذة، مبهوتة للحظات.

بيد صغيرة رقيقة، كنت قد قبلـــت أصـــابعها وكفهـــا، باطنهـــا

وظهرها كثيرًا من دقائق مضت، بضربات ضعيفة ردت إلىّ الصفعة صفعتين، وثلاثًا وأربعًا وأنا متجمد في مكاني، مذهول عـن نفسـي، وهى تصرخ فىّ: "انت جبان.. جبان".

لا أمل.

خرجت من شقتها جريًا وقلبى يتقافز داخل صدرى، فيـرتعش جسدى كله. نزلت السلالم قفزًا، وجريت بأقصى ما أسـتطيع علـى كوبرى عباس، أجرى كفارٍ من حريق هائل اندلع فى الجيزة كلها.

يجب علىّ الوصول إلى الضفة الأخرى من النهر بأسـرع مـا يمكن. كان جبل المقطم يظهر لى فى أقصى الشرق كصخرة رمادية واحدة ضخمة، تعلو القاهرة بطول وعرض السماء، وتظلها كسـقف كونى واطىء.

أعبر كوبرى عباس بأنفاس لاهثـة، بجسـد يـرتعش وقلـب مرعوب.

كان لابد لى من الوصول إلى الجبل، كابن نوح الآبق الكـافر بالرب وبنبوة أبيه، الابن الشاب الذى كان يريـد أن يتسـلق الجبـل ليعصمه من الطوفان، ولا عاصم، لا مكان، ولا مأوى. فى جريـي المتواصل نحو الجبل فكرت أن جهلـى، عمـاى وحـده لا يبـرر سقوطى، ولن ينقذنى أبداً. كنت ألعن جبنى الشائن، هـواى العـارم، ونزقى المعتوه الذى أعمى بصرى وبصـيرتى، وجعلنـى لا أبـالى بشىء، حتى بحياتى.

تمامًا مثل فأر غبى سعى بنفسه إلى قطعة اللحم داخل المصيدة فدخلها، وهو يحرك شفتيه شهوة، وحين استقر تحت الطعم الشهىّ انطلق صوت صاعق، صوت ارتطام باب المصيدة مغلقًا عليه. أغلقها أنور القناص الماهر علىّ، وتركنى مع قطعة لحمى المشتهاة، شهوتى وولعى، محبوسًا ومنتظرًا: شنقى بحبل غليظ يتدلى من سقف حديد فوق حفرة عميقة، سحقى كجرذ بائس تحت حذاء ثقيل ضخم، تغريقى فى ماء عطن أسود، أو... ذبحى بيد غليظة من الخلف ببطء وبتلذذ، ذبحى من رقبتى بشرشرة صدئة، حتى تقع رأسى من فوق جسدى على تراب الأرض.

10

قــاتــل

كيف أهبط من غرفة شوقى وحيدًا ؟

صاحٍ وحدى بعد أن راح جميعهم فى النوم على مراحل، شوقى ممدد على كنبته البلدية يابسة المرتبـــة، حـــارث علـــى الحصـــيرة البلاستيك، وفى الناحية الأخرى من الحصيرة تمدد كاغا مبهدلاً بدلته دون أن يخلع ببيونه الأحمر، كان آخر النائمين، سقط فى جب النـــوم الذى لا قرار له بعد نشيج متقطع، نام خوفًا من العنة والعقم دون أن يخصنى، كعادته، بسر شخصى جديد من أسرار حياة ليلـــه المثيـــرة دومًا.

الغرفة دافئة بأنفاسهم وشخيرهم، الهواء كله دخان أزرق، مظلة ضخمة تظل النائمين السابحين فى فضاءات الصـــور والأحـــلام، لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا الصاحى الوحيد، أنظر إلى أجسادهم الممددة، أنصت لأصوات تنفسهم العالية، وشخير حـــارث المتصـــل كنقيق ضفادع، تتلاحق الأفكار فى رأسى مسرعة كعربات سباق فى مرحلتها الأخيرة. صورة العربات تمر أمام عينـــى بـــبطء وتمهـــل،

الزمن بطيء، بطيء جدًا، لا يكاد يمر، أظافر أصابعى أحسها صلبة وناعمة، أذناى تلتقطان أصوات الفئران التى تتسابق علـــى الســـطح، وتصطدم بصفائح الفسيخ، أصوات ابن عرس، صرير الصراصـــير تحت الحصيرة، أسمع أنينًا خافتًا ومأمأة خروف وحيد مــذعور فـــى قلب الليل.. بياض السقف ناصع كسماء صافية تطير بها عصـــافير صغيرة وطيور فى الفجر.

بعد زمن قمت من مكانى فجأة، لا أعــرف لمـــاذا، تحركـــت بسرعة كأننى أفر من طائرة ستنفجر بعد لحظة. نزلت الســـلم، فيمـــا أظن، فى أكبر سرعة ممكنة. أحاول أن أقفــز الـــدرجات الحجريـــة القديمة، فى رأسى شيء واحد هو ضرورة أن أصل إلى بيتنـــا فـــى شارع بنك أتينا فى دقيقتين، لا أعرف لماذا يجب أن أصل لغرفتـــى فى دقيقتين فقط ؟! أترنح قليلاً وأنا ممسك بالدرابزين المتآكل، أهـــبط لقرار عميق برأس ثقيل ثقيل وعيون غائمة. لا نور فى السلم، بينمـــا لمبة المدخل الصغيرة تلقى بضوء شحيح، أمسك باب البيـــت بيـــدى، أفتحه وأنا أتحسس عتبته الحجرية بطرف حذائى.

الحارة مظلمة والشارع بلا ضوء، البرد قارص وأنا لا أشعر سوى بجبهتى الساخنة وأذنىّ الحارتين، حانق على الأوباش الممددين على الحصير البلاستيك نائمين نوم الموتى.

ألقاه للمرة الأولى. ها هو يخرج من امتداد شارع خوفو خلـــف الساحة البيومية يشخلل فى سكاكينه المثبتة أعلى حزامـــه العـــريض

حول وسطه، تلمع السكاكين والخناصر الموضوعة بحرفنة فى بوته البلاستيك الطويل، يداه الخاويتان بيضاوان تشقان الهواء أمامه، وجهه المنحوت جامد، عيناه لا ترمشان، يمشى ببطء وثقة، على رأسه طاقية ملطخة بالدم، قذرة، وملوثة. ما إن اجتزت حارة الشيخ ومشيت خطوات قليلة حتى صرت فى أول خوفو، حتى رأيته يأتى من الجهة المقابلة سائرًا فى اتجاهى كأنه كان ينتظرنى، تسمّرت قدماى بالأرض رغماً عنى، تلفت يمينًا ويسارًا، حدقت فى شبحه المتجه نحوى، كنت أريد أن أعرفه، أن أراه، وكانت مأمأه الخروف تسرى فى عروقى مجاوبة صليل سكاكينه، الذى يرتفع رويدًا رويدًا...

كان قد وصل إلى ساحة الجمعية البيومية، خلفه الجامع، لمحت وجهه فى نور لمبات المئذنة من بعد خمسين مترًا، ولكن عينىّ شبه مغلقتين، أحاول فتحهما على اتساعهما، ولا أرى سوى هيكله الذى صار يكبر ويكبر كلما اقترب منى. لا أحد بالشارع سوانا، هو فى قلب الشارع، فى وسطه، وأنا على الناصية أنتظره حتى يقترب أكثر. ركبتاى لا ترتعشان، ولكن عرقًا بدأ يسرى تحت إبطىّ، بينى وبينه أربعون مترًا تقريبًا، خطوته واثقة وبطيئة، مأماة الخروف تنهش جسدى المتصلب فى مكانه، يداى فارغتان وخاويتان، وعيناى جاحظتان.. لم أستطع الصمود لوقت أطول، استدرت بجسمى دون أن ألف رقبتى للخلف، عدوت، وجريت المسافة القصيرة حتى بيت شوقى، صعدت السلالم بسرعة كطفل هارب من ثور هائج فى الشوارع. دون أن أخلع حذائى استلقيت فى المسافة الشاغرة على

الحصير بين كاغا وحارث مستشعرًا الدفء اللذيذ الذى ينبعث من الجسدين الغارقين فى النوم.

غرقت أنا أيضا، ولكن فى ذاتى، ليتنى أستطيع أن أغرق فى النوم مثلهم .

لم أر طيلة ساعات استلقائى محدقًا فى السقف سوى وجه جزار يخوض فى الوحل، مشخللاً فى سكاكينه، يقترب ببطء وإصرار.. يقترب منى وجه قاتل محترف.

11

أمّ

مع طلوع النهار على السطح، ودخول أشعة الشمس غرفة شوقى وهبوط ضوئها على أجساد النائمين الثلاثة، ألبس حذائى وأنزل مخلفًا ورائى سيمفونية شخيرهم المتواصل، أمشى المسافة القصيرة من حارة الشيخ إلى بيتنا بشارع بنك أتينا كمن يسير نائمًا. ضوء الشمس الساطع يؤذى عينىّ اللتين أكافح لأفتحهما، أضع يدى على جبينى كمصدة. بقوة العادة والألفة أسير على تراب وأسفلت وحفر ومطبات تعرفها قدماى، وتحتفظان فى ذاكرتهما بصورها وأبعادها المتغيرة كل يوم.

شوارع الجيزة هادئة صباح الجمعة، فلا يرى كثيرون ترنحى وحركة خطواتى التى تشبه حركة المقص. أترنح وأتعثر فى مشىّ من حارة الشيخ إلى خوفو ثم صلاح الدين حتى أصل بنك أتينا.

الزمن فى رأسى محيط عطن ساكن لا يجرى فيه الماء للأمام ولا يرجع للخلف، ولا تهزه رياح. زمن خامد لا يبرح مكانه، ببطء شديد يستدير ويلف، يعطينى قفاه، ويدور حول نفسه كحفّار، يدور فى

الفراغ وفى غير اتجاه. زمن رأسى فيه الماضى والحاضر والمستقبل كتلة واحدة مصمتة.

رجلى ثقيلة، رأسى طاحونة تطن وتطحن بلا هدف.

أدخل البيت كروبوت خربان يتحرك دون سيطرة على سلامة خطواته. كالعادة، زوجتى فى المطبخ، وأمى فى الصالة. كرسيها المتحرك العتيق بعجلتيّه الصدئتين متهالك وقديم، لكنه يحتوى، بحنان، جسدها الضئيل كله. جسمها مستطيل صغير، مثل نصف جسد علوى لا أسفل له. أمى تجلس فى جحرها العتيق هذا، نصفها المعطوب خاف ومحجوب تحت بطانية توبّر نسيجها منذ زمن طويل، على شفتيها ابتسامة عذبة، ابتسامة من سلَّم أمره تمامًا، من لا يملك لنفسه ضرًّا أو نفعًا. وجهها الأسمر النحيل تحجر قليلاً على هذه الابتسامة القديمة، لا تنبسط ملامحها أبدًا، لا يتحرك فكاها، ولا يتحرك لسانها داخل فمها.

كان وجودها كله قد تحول إلى عينين فحسب.

عيناها سوداوان واسعتان تلمعان دومًا ببريق خافت، عيناها موصولتان بمركز البصيرة فى قلبها، عيناها حزن مزمن قديم. أصابها الخرس من صدمات متتالية خافية لا أعرفها، أم اختارت صمتها بنفسها ؟ ربما اختارت أن تصمت من كثرة ما رأت وعانت. لا أعرف.

يداها وحدهما تعملان بسرعة ومهارة. فى حجرها كرة كبيـــرة من الصوف الأبيض، وبين يديها إبرتان طويلتان، تنسج مـــن زمـــن بلوفر أبيض. لا تنسجه لأحد، لا لى ولا لأبى، لم يتشكل منـــه بعـــد سوى هذين الكُمَّين القصيرين، حين تنتهى منـــه، بآليـــة تلقيـــه إلـــى جوارها كخرقة بالية فى صفيحة القمامة. وبعد لحظات تبـــدأ واحـــدًا جديدًا، دائمًا نفس المقاس، المقاس القديم لأبى أو مقاسى أنا حين كنت فى العشرين.

لا أحد يلتقط البلوفر الجديد سواى، أفرح به كثيرًا كطفل، آخذه وأقبّل رأسها ويديها، وهى لا تفهم.

فى الصالة الواسعة على مقعدها المتحرك أقامت حياتها كلهـــا، كل حياتها مشهد واحد.

جالسة فى الصالة على كرسيها تغزل صوفها العتيق، وعيناها، أكثر أجزاء جسدها حياة، مثبتتان موصولتان بشاشة تليفزيون عتيق، تليفزيون " تليمصر" أبيض وأسود، مستقر منذ ولدتُ بالصالة. جهاز مازال يعمل بلا انقطاع من نحو العاشرة صباحاً حتى الثانية عشـــرة مساء. تجلس أمى هكذا، عيناها الواسعتان على التليفزيون المفتـــوح الصامت، لا حاجة للصوت فأذناها معطوبتان، ويداها تعمـــلان فـــى خيوط الصوف. لا شىء يكدر صفو هذه المساحة فى العـــالم ســـوى صوت خطوات امرأتى الرائحة الآتية من المطبخ إلـــى الصـــالة، لا يتعلق بصرها طويلاً بالتليفزيون الحرام. امرأتى، مثل أبى، حرمت على الناس قبل أن تحرم على نفسها النظر إلى هذا الرجس، الصور

المتلاحقة على التليفزيون التى تحض الناس على الرذيلة والانحــلال والكفر!

أمى – لمرة واحدة فى تاريخ خضوعها وصــمتها الطويــل – حركت رقبتها يمينًا ويسارًا رافضة عندما دخلت عفاف هنا، وأرادت أن تتخلص من هذا الرجس. أمى التى لا تسمع، حركت كرسيها حتى وصلت للجهاز فوق شوفنيرتها المزخرفة العتيقة، وأغلقت الصــوت تمامًا. أخرست تليفزيونها وهى تنظر لعفاف نظرتها المعتادة التى لا نعرف لها معنى.

فرحت عفاف لاستطاعتها مكافحة المنكر باليد واللسان والقلب.

أمى لا تخرج ولا تدخل، تقبع ها هنا منذ ربع قرن مضى على مسافة أربعة أمتار من الصندوق الثرثار، تتابع الصــور المتلاحقــة على شاشته بشغف، ويداها تعملان وحدهما. وفى المطــبخ الكبيــر تتحرك عفاف بمهارة بهلوانــة بــين الأطبــاق والحلــل، والثلاجــة والبوتاجاز. المطبخ عالمها النهائى، فيه تخلق عفاف من نفسها امرأة أخرى، تبتدع وتبتكر وتخترع، الذى يرى وجهها وهى تتذوق إصبع محشى ورق العنب سيظن أنها حصلت على أورجازم جنســى غيــر مسبوق. عفاف تقضى بالمطبخ اثنتى عشرة ســاعة يوميًــا، تــروح وتجئ، تطبخ الحار والبارد، الحادق والحلو، الخفيف والدسم، تطــبخ وتطبخ، وكل ما تقدمه على مائدتها شهىّ ولذيذ، ولكن لا أحد يثنــى على طعامها حتى الأم الخرساء.

بقوة الإيمان بالرحمن كانت عفاف تذهب لأمى تقــرب إليهــا منضدة صغيرة، تضع فوقها أطباقها، وابتكاراتها الأخيرة، أمى تأكل كى تظل حية، كى لا تموت فحسب. وعفاف تريد منهــا أن تتــذوق طبيخ امرأة ابنها البارة، تريد دعاءها، تريد أن يصل صــوت أمــى للسماء. أمى تأكل، وعفاف تتابع حركة فكيها، حركة أســنانها التــى تطحن الطعام بلا صوت. عفاف تريــد أن تســمع دعــوات أمــى، ودعوات أمى لا تخرج من فمها المغلق. عفاف تحدق فى وجه أمــى لتعرف إن كانت تدعو لها فى قلبها أم لا. عفاف تريد أن تحرك أمى يديها، ترفعهما لأعلى، للسماء، ترفعهمــا متــوازيتين، مبســوطتى الكفين، تريدها أن تحرك شفتيها، تصنع ولو فرجة صغيرة بينهمــا، تريدها أن تتمتم كأنها تدعو لها، وأمى لا تفعل.

عندما يئست عفاف من الحصول على رسالة موجهة للســماء، ممهورة بتوقيع امرأة مقعدة عاجزة، كفت تمامًا عن النظر فى وجــه أمى. عفاف تضع الطعام بين يديها وتمضى إلــى المطــبخ لتصــنع الحلو، "عاشوراء" فى غير أوانها، بعد دقائق تعود، وترفــع معظــم الطعام الذى لم تأكل منه أمى سوى لقيمات، ترفعه فى صمت يشــبه سكوت أمى الطويل.

عفاف ترضى عن نفسها تمامًا، فرحة لأن الله من فــوق ســبع سموات قد نظر إليها، ورآها وهى تبر حماتها العاجزة المقعدة، رآها وهى تعطف على المسكينة التى لا حول لها ولا قوة، واستحسن فعلها ووهبها عشرات الحسنات.

طيلة الوقت مسجل عفاف الماليزى مفتوح على أعلى صوت ممكن فى مكانه فوق رف خشبى بين البوتاجاز والثلاجة. المسجل، أغلى ما لدى عفاف والذى أهداه أبى إليها، صاخب فى المطبخ، يمد الشقة والبيت كله بآيات الذكر الحكيم، بتلاوة وألسنة شيوخ لا أعرف أسماءهم. أصواتهم غليظة وحادة، غاضبة ومنفرة، ترتفع منذرة بآيات الوعيد وعذاب القبر، ونار جهنم الحمراء. أصوات مجدبة وخاوية، وجرداء كصحراء. أصوات الصحراء ملائمة تمامًا للصحراء التى أعيش فيها مع امرأتى.

عفاف مغرورة مثل نملة تعيش فى جحر تتوهمه آخر العالم، يقينها الذى لا يتزحزح حجر يسقط فوق دماغى ليل نهار. دائمًا تبدو سعيدة راضية عن حياتها مثل إوزة بيضاء تصدح بين بط أسود.

عندما أخبرها أبى - زوج أمها - أنه يريدها عروسًا لابنه الوحيد خجلت مثل عذراء فى خباء، ولم تقل شيئًا، كان أبى، بسرعة مذهلة، قد علّمها فضيلة الطاعة منذ دخل بيتهم زوجًا لأمها الأرملة.

كانت تحسبنى نسخة مطابقة من الأب، لكننى النسخة "النيجاتف"، النسخة الوقحة التى لم تتعلم أبدًا كيفية تشغيلها، كيف تفكها وتركبها، لا تعرف كيف تعمل النسخة النشاز ؛ لهذا اكتفت بأن أهبها ابنًا استكملت به حياتها الفاضلة الشريفة التى لا حاجة فيها لأشياء من قبيل العاطفة، الجنس، التساؤل والشك، لكنها أغرقته، غرق منها فى البحر.

عفاف ترفل فى جنتها السعيدة التى خلقتها لنفسها واضعة إيـــاى على رأس الخيمة، خيال مآته كريم يحمل سيفًا خشبيًا يهش العـــابثين إذا اقتربوا، يحمى ويذود، ويعطيها النقود فى يدها التى تصـــنع بهـــا أطعمتها الغريبة، ولا شىء أكثر، لا شىء أكثر.

غرق أحمد فى البحر، وغرق معه كل القش الواهى الذى كـــان بيننا.

اقتربت من كرسى أمى، جلست بركبتىّ على الأرض ونظرت فى عينيها، لم أفهم نظرة عينيها أبداً.

على الرغم من أننى أعرف أنها لا تعرفنى، وأنها لن تسمعنى، لن تلمسنى أو تربت على خدىّ ، قلت لها: " أنا.. خايف ".

لم يهتز فيها شىء، لم تدرك شيئًا، لم تشعر بشىء.

قبلت رأسها، وذهبت لأحاول النوم.

لم أنم، أهدهد جسدى الممدد على السرير، والمفكوكة أعضـــاؤه بحركة رتيبة. أهز نفسى وأهتز كبندول معطوب، دماغى غابة سوداء فى عز النهار، أسمع منها أصـــوات الـــذئاب والبلابـــل، الجنـــادب والخفافيش والثعالب...

12

سلسلـة

أنام على بطنى فاردًا يدىّ على امتدادهما مشكلاً بجسدى صليبًا بائسًا على ملاءة السرير البيضاء، ظهر الصـليب للسـقف وباطنـه مدفون فى نعومة قطن المرتبة، ولا راحة لجسدى. أنقلب على جنبى الأيمن دقيقتين فتتسلل حشرات صغيرة من رجل بنطلون البيجامـة، وتصعد من قدمى لأعلى فخذى، تقرص وتمص، لا أشعر بضـيق أو ألم لكنها تضايقنى. أغير الوضع وأنسى الـزاحفين فـوق جسـمى، فأضع يدى اليسرى تحت دماغى، وأضبط نفسى على جانبى الأيسر، وأنتظر.

لا أنعس، لا أغفو ولا يأتينى نوم أو موت، ألصق وجهى فـى السقف وأتخبط مع نفسى، مسطولاً بلا نـوم، وسـكران كـأعرج أو أعمى أبحث عن باب للخروج من متاهة، أبحث عن باب الخروج من مبنى كيرومول، مثلاً!

عيناى تتخبطان بالجدران العالية لغرفتى ككرتى بـنج بـونج، أرسلهما إلى الحائط فترتد إلىّ صورة بصرية واحدة ! لعبـة مسـلية

جدًا، نرسل العين إلى الحائط فترتد ككرة بنج بونج صغيرة، ونـــرى ماذا سيحدث. نرسل العين، نرسل البصر إلى الحوائط، الكرات ترتد إلىّ من الحيطان الأربعة بصورة وحيـدة: صـــحراء قاحلــة يلفهـــا الضباب على رمالها جثة ضئيلة ممددة، ولا شيء أكثر.

السقف لا تصله كراتى.. السقف عال جدًا وبعيد، هل ترى كـــم هو بعيد ؟

الكرات تتكاثر وتتكاثر وتخبط كل مساحات جسمى المكشـــوفة لها، تقع على قدمى ورجلى، بطنى وصدرى، ووجهى، وتتراكم ككوم كبير يغطى السرير، وتغطى كل جسدى بآلاف النسخ مـــن صـــورة واحدة، صورة الجثة.

حالما أغلق عينىّ تختفى الكرات البيضاء، تختفى الصور.

لا أطيق الظلمة لثوان، فأفتح عينى مرة أخرى فتقع جبرًا على الحائط بجوارى، فتبدأ اللعبة من جديد، الكرات تعود بصورة واحدة، أغلق عينى فأرى الظلمة، لا أطيق الظلمة فأفتح عينى وهكذا.......

الحيطان يخرج منها أسمنت جاف ينشر حبيباته الرماديـــة فـــى كل هواء الغرفة، ويكاد يخنقنى برائحته، فأكف عن الضرب بالكرات أو بعينى يعنى، وماذا بعد ؟

أنا غير قادر على القيام من مكـــانى، أو الحركـــة حتـــى فـــى سريرى؛ لهذا أنظر لأقرب نقطة على مدد سقف بصرى المـــنخفض،

فأرى أبراصاً صغيرة كثيرة تغطى معظمه، أسمع هسيسها الخافـت، صوت زحفها السريع على المصيص، انتشارها المنظم، وتجمُّعها فى الأركان والزوايا. أبراص صغيرة جدًا جدًا فى حجم النمـل، بشـعة المنظر لا شك. تتحرك بلا هدف، بعشوائية مربكة، فتتصادم، لكنهـا لا تقع على وجهى. نتيجة التصادم تتعـارك الأبـراص، تتصـارع وتتقاتل، ويأكل قويها ضعيفها، لمصلحتى تتقاتل الأبراص، الأقـوى، على الإطلاق، سيأكل ويشبع ويضع فى معدته كل الأبراص الأخرى، ومن ثمة سيبقى وحده على كل مساحة السقف، وهذا أفضل كثيرًا من الحالة الأولى إذ يمكن احتمال رؤية برص ضخم واحد، برص كبيـر ومهيب يقف فى دائرة ضوء اللمبة فى هيبة ووقـار، بـرص يمثـل ويجسّد ويذكرنى بمنظر أسقف معظم المنـازل والمسـاكن الشـعبية والفيلات والمبانى والمصالح الحكومية والنوادى والمستشفيات... كل الأماكن يحتل سقفها برص واحد، كبير ومهيب.

أتشملل على نفسى.

أقول لنفسى: "الهرب من الصراع لن يجعلك مشاهدًا مفصـولاً عن الأحداث أبدًا، لأنك ببساطة أحد أبطال الفيلم إن لم تكـن أهمهـم على الإطلاق، أنت لست مجرد متفرج صُنِعَت المسـرحية لأجلـه، بالتأكيد الفعل الدرامى اليومى المتجدد دومًا يجب أن يعنيك، يجب أن تعرف. إذا حصرت نفسك وواصلت، طيلة الوقت، مشاهدة المبـاراة الأزلية المستمرة فستبقى عمرك كله خارج الحلبة، جالسًا على مقعـد الصمت والموت والعدم، أن تتشرنق وتتضاءل داخل نفسـك، لـيس

كافيًا أبدًا أن تعيش مجرد معيشة.

هاهاها

منكم أوارى جسدى الضئيل؛ خشية أن يصيبنى رذاذ معارككم، ضراوتكم وضجيجكم فى الملعب، فى الساحة المفتوحة للافتراس، للقتل اليومى، للتخلص من الضعفاء والعجزة والحالمين والعشاق.

تعبر أمامى وجوه أنور وحارث وأبى وسيمون وأحمد ابنى، ولا يبقى منها سوى وجه نشوى.

وجهك أنتِ.

أقول لكِ الخلاصة..

أنا مجرد مصد أحاول فقط منع القتلة المنتقمين من التمثيل بجثتى التى ماتت منذ زمن طويل، أنا الحارس الميت الذى يحرس جثة متعفنة ويابسة، ملقاة فى عراء الشوارع والميادين، فى ماء النهر ورمال الصحراء.

هل تفهمين من هذا شيئًا ؟

لا أعتقد.

أنتِ غبية غباء تامًا، وعلاجك الوحيد هو فقء عينيكِ الواسعتين.

لا تحتج أنت. " مالك أنتَ ؟ "

"عيش فى حالك.. عيش فى حالك".

أقولها بغطرسة ونفور صاعق للذى لا يعجبه منظرى العام "المهرتل"، لمن ينظر للون قميصى وحذائى الرياضى وتسريحة شعرى الغريبة، على الأخص، التى لا تناسب رجلاً محترمًا فى سنى ومكانتى!

سأقول: "وأنت مال أمك ؟!" للذى يحدق فى سلسلة القط الفضية المعلقة دومًا على صدرى.

سلسلة لطيفة لقط أسود جالس فى وضع التأهب للانقضاض. القط على صدرى فاتح نصف فمه فى وضع استعداد دائم للانقضاض. منذ ثلاثة أشهر وضعت نشوى القط الفضى على صدرى من غير مناسبة، قالت: " مجرد هدية، تذكار "، وقبلتنى على شفتىّ.

"مالك انتَ ؟"

أقولها للذى لا يعجبه طريقة تجرعى للبيرة، تعفيرى للدخان والحشيش، لمن يحتج على انسطالى وقلة أدبى ولغتى البذيئة إن تكلمت، وهى مرات قليلة على أى حال، أقولها للذى ينظر لسوستة بنطلونى إذا سهيت عن إغلاقها وأنا راجع من الحمام. أنا شخص

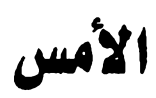
عدوانى، إياك أن تقترب من لحمى وإلا قتلتك بقلب شـــجاع كقلــوب أبطال الإغريق.

أنور جبر إغريقى حقيقى، فيه عرق منهم، من جدتـــه روز، أم أمه.

أنا أرتعش، أرتجف، أشخلل مثل كومة صفيح، ولكن لا يغرنك مظاهر ضعفى، ففى قلبى تتزاوج الخسة والنذالة، وشـــجاعة أفعـــى تقاتل من أجل صغارها. اقتلنى ولا تخف ــ إن استطعت ــ قبـــل أن تصل رصاصاتى إلى قلبك المريض، الواجف، الخائف من نفسه.

"الخائفون والمترددون لن تقوى أيديهم المرتعشة على البناء".

هع هع هع هع


الأمس

13

قتلتان

ما زلتَ تذكر

فوّهة الطبنجة وُضعتْ واستقرت على جبهتى مرتيْن. أربع أيدٍ كانت تملك أمرى، تستطيع قتلى ببساطة وبرود. بأربع قبضات من فولاذ ضُغطت الطبنجة بقوة حتى غاصت مقدمة ماسورتها فى جلد ناصيتى، وأَدْمَتِ العظمَ بين حاجبىّ.

فى المرتيْن كانت المسافة الزمنية بين دماغى وبين انفجاره، تفجيره، نسفه، وسحقه، أجزاء قليلة من الثانية، لحظة واحدة، ضغطة وحيدة بسيطة بإصبع السبابة على الزناد، وتخترق الرصاصة منتصف جبهتى، وتنفجر رأسى وجمجمتى بما فيها، دون صرخة مدوية أو شهقة أو حشرجة موت أسقط على ظهرى بارتطام عنيف على الأرض، وجهى مغطى بالدماء، وجثتى ممددة هامدة.. جيفة.

ولكن هذا – للأسف؛ لسوء حظى أو حسنه – لم يحدث حتى هذه اللحظة، لم يحدث بعد.

مرتان، زكمت أنفي، وملأتْ رئتيّ وصدرى رائحــةُ البــارود الشايط الحارقة، وصفّر فى أذنىّ صوت الموت.

الطبنجة السوداء على جبهتي استقرت ساكنة، وأطبقــت علــى رقبتي يدا ملاك الموت. كَفَّاه، أصابعه، وقبضتاه من حديد. لــزمن لا يمكن حسابه ثبتنى، صلبنى فى مكانى، استولى علىّ وأخذنى، لكنــه قبل أن يقبضنى خفف قبضته شيئًا فشيئًا، رفع أصــابعه مــن فــوق رقبتي ثم تراجع، وتركنى أخرج الزفير المحبوس بصدرى، وأتــنفس من جديد. نزع يديه تاركًا فىّ أثرًا لم يُمح أبدًا، ولــن يــزول حتــى يعاودنى مرة أخرى. مرة أخيرة، فى يوم قريب، سيأتى، يقبضنى ولا يتراجع.

فى المرة الأولى كنت الشاب الروِش المرح.

كنت قد تخرجت منذ شهور قليلة من قســم الفلســفة بجامعــة القاهرة، مانحًا نفسى لقب: فيلسوف أبيقورى ناشئ ! وكنــت عائــل أسرة يعوله أبوه وحماته، وبلا عمل، بلا شغلة أو مشــغلة. وشــاكرًا جدًا وممتنًا للحكومة إغداقها علىّ، وكرمها المــذهل: الإعفــاء مــن الخدمة العسكرية ؛ نظرًا لأننى وحيد أبوىّ.

حسين الكِنك موقفه التجنيدى "تحت الطلــب" لــثلاث ســنوات. ونحن فى الميكروباص عائديْن من منطقة تجنيد الرمايــة، حــاملين شهادتين رسميتين، تعنيان أننا سنبقى مدنيين مصغيين لنداء الــوطن وتحت أمره فى أى وقت، بزغت فى رأس حســين الفكــرة عنــدما

اجتزنا كوبرى المريوطية: لماذا لا نبحث عن عمل؟ لماذا لا نعرض أنفسنا على بازارات السجّاد والبرْديات فى المريوطية وسقارة ؛ لنعمل كبائعين للسائحين؟

مال حسين على أذنى: "فلوس حلوة من ناحية، وتدريب حىّ على اللغات التى نعرفها من ناحية تانية.. شغل كله منافع يا شقيق".

حسين يتمتع بالكثير من المزايا، فهو يجيد الإسبانية بوصفه خريجًا حديثًا فى قسم اللغة الإسبانية بآداب القاهرة، إضافة إلى الإنجليزية بالطبع. لبق وبشوش وخجول قليلاً. ذهبت معه لأشجعه من جهة؛ ولأملأ بعض فراغى وأتسلى من جهة أخرى !

كنت عاطلاً، معطوبًا كذكر عقيم. أملك وقتى كله ولا أشكو من شىء سوى الملل، والخواء العاطفى ! المسافة بينى وبين عفاف تباعدت كثيرًا بعد أربع سنوات من الزواج.. عادى، عادى جدًا.

مثل رب أسرة يسعى، كبقية خلق الله على رزقه، خرجت مع حسين؛ للطواف على البازارات بحثًا عن واحد يقبل تشغيلنا.

حسين يمر علىّ فى البيت فى نحو التاسعة صباحًا. حليق الذقن، قميصه نصف كم، مشجر، وبنطلونه جينز رانجلر، فى قدميه حذاء أديداس، على عينيه نظارة شمس ريبان، فوق رأسه كاب ليفيز، وحول معصم يده اليسرى إنسيال فضة.

كل صباح، نشيطيْن ومرحيْن، نركب ميكروباص فيلوكس مـن أمام مدرسة أبى الهول، وعند كوبرى المريوطية ننزل، ونسير علـى الأقدام.

المريوطية ترعة واسعة طويلة، كفرع نيل، تمتد من الهرم إلى الجنوب حتى تصل إلى سقارة، ومن بعدها دهشـور. علـى يمـين الماشى بحذائها فيلات أوروبية العمارة، كأن الثلوج ستهطل بغزارة، يومًا ما، فوق سقوفها الحمراء المثلثة، وقصـور فخيمـة متنـاثرة، وبازارات كبيرة للسجاد والمنسوجات والبردّيات.

نعاين حالة البازار أولاً، قبل أن نعرض أنفسنا على مـديره أو صاحبه. حسين له نظرة وهو قائدى بسبب خبرته السابقة، كان يعمل بأحد البازارات هنا الصيف الماضى، ولكنه لا يريد أن يعود لـنفس البازار الذى كان يعمل فيه ؛ لأن المستر صاحب المحل سرقه، ولـم يسدد له مرتب شهرين وألف جنيه عمولة.

حسين يزن البازار حسب مساحته وحجم مبناه، درجة فخامتـه، نوع مبيعاته وأثمانها، مساحة ورشته وعدد العاملين فيـه، وأسـماء الشركات التى تركن أتوبيساتها السياحية أمامه، والتى سيتوقف عليها درجة ثراء الزبائن، ومستوى المرشـدين المـرافقين للمجموعـات السياحية، وبالتالى الدخل المتوقع والعمولة المأمولة.

لستة أيام باءت رحلتنا اليومية بفشل ذريـع ؛ نتيجـة اكتظـاظ معظم البازارات ببائعين من نفس سننا، يجيدون اللغـات وخريجـى

جامعات. لم تنفع حسين إسبانيته ولا خبرة بضعة أشهر، ولأن العرض أكثر كثيرًا من الطلب، سيدى.

من اليأس صرنا نعتبر مشوار كل يوم رياضة جسدية وفكرية، يتأبطنى أو أتأبطه ونمشى. ننبش معًا كل حياتنا الماضية كلانا أمام الآخر، ذهابًا وإيابًا، ندخن ونسخر من أنفسنا، ننكت، ونضحك على خيبتنا الثقيلة.

على مدد نظرنا كانت الشمس قد مالت للغروب فى صحراء سقارة. وكنا قد طفنا طيلة النهار نحو عشرة بازارات، وتعبنا من طول المشى، وأحبطنا الرفض المتكرر لأصحاب البازارات ومديريها. معظمهم رجال فى منتصف العمر أنيقون ومتغطرسون، كأرباب وكهنة ممفيس القدماء، وجوههم وردية ومكتنزة ومتجهمة، تفوح منهم مع روائح العطور الغالية، روائح الغنى الفاحش والسلطة والعزوة، يهزون رقابهم يمينًا ويسارًا، ويقلبون شفاههم، ويتكلمون بهدوء وبطء آلهة قديمة.

"بالسلامة.. الله يسهل لك انت وهو".

عندما وصلنا منطقة المثلث فى مدخل الجبل، حيث الطريق إلى الهرم المدرج بسقارة، قررنا أن تكون هذه محاولتنا ومحطتنا الأخيرة، بعدها نعود للجيزة، بلا رجعة.

المحطة الأخيرة بازار "توت عنخ آمون". مبنى أصفر ضخم

من الحجر بشبابيك أرابيسك، وباب عربى مشغول بدلفتين من خشب الزان، ويعلوه قبة هائلة. إلى مكتب كبير تتناثر فوقه تماثيل فرعونية صغيرة، فى صدر البازار الواسع، يجلس عملاق أسمر فى نحو الأربعين، وسيم وجذّاب، شعره الطويل المفلفل ينسدل على كتفيه، وتتدلى من رقبته سلسة ذهبية عليها وجه أسد.

كالعادة تقدم حسين رأسًا لمدير البازار:

"أنا تخصصى أسبانى، وإنجليزى بيرفكت، ومقبول فرنساوى، وعندى خبرة".

أومأ السيد راضيًا ومبتسمًا، وأشار بيده إلىّ، قلت:

"أنا إنجليزى وسواحيلى".

"نعم ؟!"

"سواحيلى حضرتك، بتكلم سواحيلى.. مش بيجيلكم زباين من سواحيليا ؟"

كنت فى مرحلتى السريالية من الوجهة الفكرية.

"دى دولة إفريقية شقيقة سعادتك".

ضحك مستر محسن الشقيق الأصغر لرجل الأعمال صاحب البازار، واستبشر بزبائن سواحيليا خيرًا. آملاً أن أصير مضحكه

الشخصى، عيننا بائعيْن مستجدين، يخضعان لتدريب صبحى المايص، أقدم بائعى البازار وأمهرهم، صبحى جسد شديد الرشاقة كراقص باليه.

برقة شديدة، وحركات ناعمة من يديه وخصره، وبصوت موسيقى خافت، علّمنا صبحى أصول الكار فى يومين. فى الورشة حفّظنا أكلشيه الشرح الإنجليزى والفرنساوى، كلمات بسيطة ومقتضبة توجز طريقة إنتاج السجاد اليدوى بأنامل الأطفال وخيال الفلاح الفنان، وفى الجاليرى درّبنا عمليًا، وهو يمتعنا بعرض بهلوانى رشيق، على فنون عرض " الحتة ": كيفية تطييرها فى الهواء فوق رؤوس الزبائن ولقفها بمهارة، وضعها على الأرض والتشقلب والتنطيط حولها والقفز من فوقها بحركات الجمباز الأرضى ؛ لإبراز جمالياتها الفنية. تعريض قطعة الحرير لأشعة الشمس بزاوية قائمة فينبهر الزبون ويطلق "واااو" طويلة، وهو مذهول من تغير الألوان وتبدلها على سطح الحرير وتحولها لمنظر جديد، وعلّمنا الكيفية الصحيحة لفرد الحتة وطويها كمنديل، ووضعها فى جيب البنطلون. وأسهب صبحى وأخلص فى تلقيننا قواعد الإغواء السياحى، وأصول جذب وإقناع الزبون، والإغراء بديسكونت خيالى ووهمى، كما توقف طويلاً، بشرح تفصيلى شامل وممل، عند الطرق التقليدية والجديدة الناجعة فى تدبيس وقرطسة الزبون جيدًا.

وطيلة شهرين، كل يوم، كان مستر محسن يفاخرنا بأنه، شخصيًا، حفيد مباشر لفراعنة ممفيس.

هو – على الأخص، ويقينًا – من نسل المعبود الأعظم، الإلـــه "مِن" إله النكاح عند فراعنة ممفيس الذين ما زال أحفادهم يتناكحون، ويتكاثرون فى ميت رهينة على بعد خطوتين من هنا.

ذات مساء، وهو مصهلل، مسطول بالأفيون، أخرج مـــن درج مكتبه تمثالاً من الحجر الجيرى متوسط الحجم لرجل نحيف الجســد، ساقاه قصيرتان، نحيلتان جدًا كمريض بشلل الأطفال، وجذعه ممتلىء طويل وعريض. كهل ممدد على ظهره، عضـــوه غلـــيظ كهـــراوة، يخرج من منبته بين خصيتين كبرتقالتين كبيرتين، ليمتد فوق بطنـــه وصدره، وقد تطاول رأس عضوه العظيم حتى علا وجهه كمظلة. أنا وحسين أصابنا خرس وتحديق طويل فى الحجر القديم المهيب. قـــال مستر محسن دققوا جيدًا فى ملامح الوجه. وجه التمثال فرعونى قح، هادئ ورزين كرب مجيد. قال المستر إنه يشبهه، هو، تمامًا.

"هذا التمثال أثر وأصلى، كما إننى رجل أصلى".

وهو يسوى شعره الأسود الطويل بكفين غليظتين تباهى:

"والطلب الأوروبى والأميركى نار علىّ أنا، وعلى الإله" مِـــن، "وعلى أى حاجة من ريحته".

وقهقه المستر طويلاً حتى اهتز جسده الفارع، وانحنـــى وهـــو يعبث بأصابع يده اليمنى بين فخذيه، بحركته المعتادة عنـــد الضـــحك والانبساط.

"توت عنخ آمون" صالة مستطيلة واسعة على مساحة نحو خمسمائة متر، متخصص فى السجاد اليدوى والجوبلان والحرير، حوائطه العالية مغطاة بقطع فاخرة، صنع معظمها الريس حمامة، وفنانان فطريان آخران، وأطفال سقارة وميت رهينة. معظم الرسومات تقليدية ونمطية، عليها الأهرام والنيل والنخيل، الكرنك، وملوك وملكات الفراعنة.

فى البدروم ورشة بها عشرة أنوال يدوية يجلس إليها نحو ثلاثين طفلاً، أعمارهم لا تتجاوز التاسعة، يعملون بأنامل دقيقة تستطيع أن تصنع أرهف العقد وأدقها. أولاد وبنات فلاحين، هادئون ونظيفون، يعملون فى صمت وأدب، لا يذهبون للمدارس، ويجيدون ملاغاة الخواجات.

فى "توت عنخ آمون" أرخص قطعة بعشرة جنيهات، وأثمن "حتة" قطعة مربعة من الحرير الخالص، طولها ستة أمتار وعرضها ستة أمتار، فوقها الأهرام وأبو الهول، وثمنها ربع مليون دولار!

عملنا بجد واجتهاد، ولم نقبض مليمًا بعد شهرين من العمل، وكلى أمل أن أقبض آخر النهار، وُضعت فوهة الطبنجة فوق جبهتى.

كان اليوم قد مضى هادئًا بغير الكثير من الزبائن. أنا وحسين جالسان على دكة الغفير الخشبية، ووراء ظهرينا تمتد حقول قمح وذرة، نخيل، وبرج حمام طينى شاهق الارتفاع، قديم وشبه مهدم ومهجور، وفى مواجهتنا باب البازار المفتوح على مصراعيه. كنا

نتسلى بثرثرة عادية، محورها فلوسنا المنتظرة من المستر هذا المساء. هدوء وسلام يحط حولنا، وريح خماسين خفيفة تهب على وجهينا.

أمام باب البازار توقفت مرسيدس شبح سوداء، وخلفها شاحنة لورى بصندوق كبير، عالٍ ومغلق، متخصصة فى نقل الأثاث. سكنت المرسيدس للحظات، بينما انفتح الباب الخلفى للورى على مصراعيه، وقفز منه، دفعة واحدة، نحو ستة رجال مسلحين، بعلامات مسجّلة على الوجوه. ندوب، قروح، بشلات، جروح غائرة، وغلظة أجساد طبيعية جدًا. فى لمح البصر انتشروا، واحتلوا مدخل البازار والجاليرى والورشة شاهرين رشاشات طويلة وطبنجات، وخلفهم تحرك آخرون فى سترات بيج بالية، ظهورهم محنية ووجوههم مجهدة، لهم مظهر الحمّالين النموذجى. فى لحظات كان المسلحون قد حاصروا جميع العاملين فى البازار، مثبتين الجميع فى أماكنهم، أبوشميلة الغفير الكهل، والريس حمامة والأطفال فى الورشة بالبدروم، وصبحى وباقى الموظفين داخل الجاليرى.

بانقضاض نمر، قفز أحدهم أمامى وزعق فىّ شاهرًا مسدسه: "انت مين ؟ بتعمل إيه هنا ؟"

يبدو أننى، لا إراديًا، حاولت الوقوف على قدمىّ وخرست مصدومًا. قبض على الطبنجة بكلتا يديه، ووضع فوهة ماسورتها على جبتهى، بين عينىّ.

بصوت ممتلئ وهادئ أمرنى " ايديك لفوق.. لفوق ".

رفعت ذراعىّ لأعلى فاتحًا كفىّ عن آخرهما، وبلعت ريقى بصعوبة، وأنا مذهول من المفاجأة والصدمة.

وأخيرًا، استطعت النطق بصوت مرتجف "أناااا.. موظف.. هنا.. سيلزمان".

بسرعة خاطفة كانت جميع محتويات البازار من حرير وسجاد يدوى فاخر وجوبلان قد اختفت، حتى موكيت الأرضية أُنتزع من البلاط، وحُمّل فى صندوق الشاحنة الكبيرة.

ظلت الطبنجة ساكنة ومستقرة على جبهتى، حديد ماسورتها قاس على جلد جبهتى. جسدى متصلب فى وقفتى، يداى مرفوعتان فى الهواء بضراعة، رائحة البارود الحارقة تختلط بالهواء الداخل لصدرى، وجهى المذهول ينشع منه عرق غزير يشر على عينىّ وخدىّ.

ببرود مهنى، وحياد تام، كان الرجل ينظر إلىّ بعينين نفاذتين، بوجه جامد صلب كالحجر.

طيلة وضع الطبنجة على جبهتى كنت أفكر فى شىء واحد، كنت أحاول تصور ما سيحدث بعد أن يدوس هذا المحترف على زناد الطبنجة، وتخترق الرصاصة جمجمتى..

بعد وقت من مصرعي سيأتي أبي وعمي وأقربائي، يلمّون جثتي الدامية من فوق الإسفلت، يضعونها في عربة إسعاف أو عربة حانوتي، ويذهبون بها إلى البيت. يمددونها على سريري. باسم الله وبالأدعية والماء والصابون وطِيب الموتى يغسّلون المرحوم، ويلفونه في كفن أبيض، ويضعونه في خشبة نقل موتى مستعارة من جامع الاستقامة. تحتي خشب يابس، وفوقي غطاء أخضر من القطيفة.

أُوضع داخل صندوق الخشبة، وأُحمل فوق أكتاف أربعة من أصدقائي وجيراني. يشيّعني صوات عفاف وزوجة عمي ونسوان الحي، وأنا خارج من باب البيت. يدخلون بي جامع الاستقامة. يضعون الخشبة بحذاء محراب المسجد. يصلون عليّ صلاة الجنازة، ويدعون لي ولأنفسهم بالرحمة والمغفرة. يعودون فيحملون الخشبة على الأكتاف، ويمشون باتجاه الجبّانة. يسير ورائي المشيّعون في الطريق إلى المثوى الأخير. يفتحون القبر، يهبطون بي لباطن الأرض، ينزلونني ملفوفًا في كفني الأبيض. في أذنيّ وفتحة إستي، في فمي وفتحتي أنفي وعينيّ قطع قطن أبيض، ومن جثتي وكفني تفوح روائح عطور الموتى النفاذة. أُسجى على التراب. يهمسون بحزن "يا ابن آدم.. من التراب وإلى التراب تعود".

يداي متقاطعتان على صدري، رأسي وجسدي في اتجاه القبلة. يخرجون، يغلقون عليّ الباب الحديدي للقبر، ويمضون عائدين لحيواتهم.

أصير وحيدًا فى الظلمة ممدداً على التراب ساكنًا وقد ماتت كل حواسى، وتوقفت عن إدراك ذاتى ووجودى، ثم ظلام.. ظلام طويـــل كعمر الكرة الأرضية..

أم تُرى سيكون هناك ثمة نور ما، ضـــوء ضـــعيف ســـأحس بوجوده يتسلل إلى قبرى. بأى شىء سأحس، أية حاسة ســـتبعث أولاً أو تُخلق..

عندما بدأت التخبط فى الظلمة ارتفعت الفوهة من فوق جبهتى، ومازال الرجل المحترف يشهر سلاحه فى وجهى، يتراجع بظهـــره للوراء قليلاً حتى يحاذى كتف سيده، ضئيل الجسد من الخلف.

ألقف الهواء كغريق طفا على سطح الماء، أجفف العرق علـــى وجهى بطرف قميصى، يعود لعينىّ البصر، فأرى مستر محسن على بعد مترين منى مُلقى بظهره على السيارة السوداء رافعًا يديـــه فـــى الهواء، جسده الضخم يرتعش بشدة، وجهه المذعور غارق فى عرق غزير، وأسنانه تصطك ببعضها. أمام أنفه فوّهـــة رشـــاش طويـــل، يحمله بكلتا يديه رجل قصير نحيف، بدلته بيضاء من الكتان ويفـــوح منه عطر ثقيل.

بحزم مالك مصائر يقول: "قول لأخوك الشركة اللى بينى وبينه انفضت.. خلاص، ومش هخرّمك زى الغربال، انت وهو المرة دى".

عندما انتهوا من تحميل كل ما فى البازار قفزوا إلى صـــندوق

الشاحنة، ورمى الكهل مدفعه الرشاش فى المرسيدس، بـــان وجهــه الصغير، بدا لى مألوفًا، شخصية عامة، سياســـى، رجــل أعمــال، شخص يظهر فى التليفزيون كثيرًا، شىء من هــذا القبيــل. ركــب المرسيدس، وأدار محركها على مهله. ومضوا فـــى اتجــاه ترعــة المريوطية والطريق إلى شارع الهرم، المرسيدس فى المقدمة وخلفه الشاحنة.

قعدت فى مكانى على الدكة ذاهلاً صامتًا.

على التراب، أمام وتحت الدكة، كانت بركة صغيرة من البــول قد ظهرت، وحسين جالس إلى جوارى يخفى رأسه بين يديه، جســده مكوّر على بعضه ومتصلب، عيناه فـــى الأرض، وحجــر بنطلونــه الثمين مبلول. ومن الجاليرى خرج صبحى وهـــو يـــرقص بعنــف، بحركات متشنجة يهز رقبته يمينًا ويسارًا بقسوة بالغة، نظر إلينا بعين الجنون، وضحك بهستيرية، أعطانا ظهره وبدأ الجرى فى الطريــق إلى جبل سقارة، مخلفًا وراءه ضحكه المتواصل، صداه يتردد ويـــرن فى أذنىّ..

كان لنا، أنا وحسين، مرتب الشهرين وعمولة كبيرة عن ثـــلاث بيعات بنحو ثلاثة آلاف جنيه، لكننا لم نذهب هناك مطلقًا مرة أخرى.

بعدها بخمس سنوات وُضعت فوهة الطبنجة على جبهتى للمرة الثانية.

أرانى جالسًا على كرسىّ جلدى وثير فى مكتب ناظر مدرسة "العهد المشرق" الخاصة بشارع المحطة. رأسى مرفوع لأعلى، جسدى كتلة ساكنة، عيناى لا تطرفان، وعلى جبهتى تستقر فوهة مسدس صغير فى يد سمينة مشعرة، تخرج من جلباب واسع الكم. كهل مهيب المنظر فى عباءة فاخرة، جثة ضخمة، وجه كبير سمين، أمامه كرش مربع متين، وفوق رأسه شال أبيض يغطى رأسه، يحيط بوجهه، ويتدلى على كتفيه.

كان الناظر قد أخبرنا، وهو يبتسم ابتسامة واسعة للحاج، أنه ذاهب للمرور على الفصول، وسيتركنى مع السيد منصور عضو المجلس المحلى وولى أمر الطالب محمد منصور: تلميذى بالصف الثالث الثانوى.

لم يتجاوز الكلام بيننا تبادل التحية عندما وقف الحاج بجسده فارع الطول فجأة وخطا نحوى ببطء، وأخرج من تحت عباءته مسدسه الصغير، ووضع فوهته على جبهتى، وبدأ يتحدث، ببرود الثلج، بصوت معدنى رنان.

قال إن من يرى الموت بعينيه يستطيع أن يتخيل وراءه منظر نار جهنم التى تنتظر الكفرة من أمثالى، الداعين إلى الإلحاد والانحلال والفجور، وإنه يستطيع بضغطة بسيطة أن يكسب ثواب وجنة الله، وإنه، والحمد لله، قد مُنح القدرة على تغيير المنكر باليد، وإننى يجب أن أفهم كلامه جيدًا. وزعق أن الولد محمد قد تغير

سلوكه كثيرًا، لم يعد يذهب للجامع لأداء الصلوات، يشــرب الخمــر الرخيص، ويدخن البانجو، ويخرف بكلام عجيــب عــن الله واليــوم الآخر وأنبياء الله المرسلين، ومؤخرًا صرح لزملائه بموقفه الفلســفى الجديد، وصار يتباهى فى كل مكان بأنه وجودى، على ملة سارتر.

يعنى ملحد، وزنديق يا أستاذ.. "يعنى كافر يا مدرس الفلسفة ".

أحسست بجسدى يتجمد وبنبض قلبى يتوقف.

"انت مدرس الكفر.. مش مدرس فلسفة".

حاولت الدفاع عن نفسى، قلت ضارعًا، لم يحدث، وإننى أدرّس منهج الحكومة فقط، ولا غير، ولا شأن لى بابنه.

قال عضو المجلس المحلى: "الحكومة كافرة تدرّس الكفر".

رفع المسدس من على جبهتى، وأبقاه مشــهرًا فــى وجهــى، وانحنى علىّ محدقًا فى وجهى بعينين سوداوين واســعتين حاقــدتين، وتباهى، متعالمًا وبغرور زائد، بأنه يعرف حدود الله، وسينفذ فىّ حكم الله.

توقفت أنفاسى وصار حلقى حجرًا.

أفتى وقال إننى، شرعيًا، أتحمل مسئولية إلحاد ابنه، فمعلم الكفر كافر، وإننى قد خرجت من ملة الإسلام، وداعية كفر زنديق، وإنــه،

للأسف، ليس بوسعه أن ينفذ فيّ حد الله قبل أن يطلب منى التوبة، إما أن أرجع عن كفرى وغيّى وأردد الشهادتيْن وإما أن...

تشبثت بسرعة بطوق النجاة الذى ألقاه، قاطعته بسرعة ناطقًا الشهادتين، بشكل آلى، بصوت عال خرج من سقف حلقى، رددتها مرة، واثنتين، وثلاثًا.

نظر إلىّ باحتقار وقرف، وبصق على الأرض، وهو يضع مسدسه فى جيب عباءته البيضاء.

وهو خارج من المكتب أمرنى بصوت كالرعد:

"شوف لك شغلانة غير دى.. وطهر نفسك يا نجس".

وصل الناظر بمجرد خروج الحاج، وأرسلنى إلى الإدارة لإنهاء التعاقد معى.

كيف سلكت طريقى الخطأ ؟

لماذا لم أسمع كلام الوالد ؟!

14

والـــد

أبى.

لحية سوداء كثة، مشذّبة بعناية فائقة، تتنــاثر بــين شــعراتها الطويلة شعيرات بيضاء، تضيف لوجهه الأبــيض المــدوّر ســماحة وطيبة خاصة يؤكدها خلوّ وجهه من الشارب، فقط، خط من الشــعر المحفوف فوق شفتين رقيقتين.

رجل فى منتصف الخمسينات من عمره، بشوش الوجه، متوسط الطول، ممتلىء الجسد. دائمًا، أنيق فى ملابسه الرسمية، بدلته الكاملة سوداء أو كحلية شتاءً وصيفًا، لا لون ثالث لهما، ورابطة عنقه السادة غالبًا معقودة بتعسف.

فى جيب القميص سِواك صغير، يخرجه كل ساعة ليمــر بــه على أسنانه ثلاث، أربع، خمس مرات، ويعيده لموضعه. رائحة عطر المسك الطيّبة عالقة بجلد جسده لا بملابسه فحسب، تنتشــر حولــه، وتفوح من على بعد أمتار.

دائمًا وأبدًا، بيده اليمنى مسبحة من الكهرمان الأسود تجرى عليها أنامله الدقيقة، وهو يتمتم باستمرار بصوت خفيض "سبحان الله.. سبحان الله". يتمتم بها ليلاً ونهارًا، وفى كل مكان، فى بيته، فى الصالون، فى المطبخ، وفى غرفة نومه حين يكون وحده، وفى وجود الآخرين.

وهو مضطجع على سريره ينظر إلى امرأته تتزين أمام المرآة الكبيرة للتسريحة. زوجته "وردة" ما زالت جميلة ومثيرة. تمر أنامله وحدها، لا إراديًا، على حبات مسبحته ويهمس بامتنان عميق "الحمد لله.. الحمد لله".

الأستاذ ينام فى الثانية عشرة مساءً، ويصحو فى السادسة صباحًا بانتظام شمس.

بأصابع طويلة يلف مسبحته بحنان، ويضعها فى جيب ثوبه حين ينهض لأداء الصلاة. صلاة الفجر يؤديها وزوجته فى البيت فور استيقاظه من النوم فى الصباح الباكر، والصلوات الأربع الأخرى يصليها بمسجد الاستقامة.

المسبحة، دائمًا، تتحرك حباتها السوداء الكبيرة اللامعة هبوطًا إلى أسفل، وصعودًا إلى أعلى بين أصابع يده اليمنى، وهو يخترق أزقة وحارات وشوارع الجيزة بخطوات وئيدة رافعًا يده وملقيًا السلام على الجميع: المعلمين والمعلمات، الأسطوات والجزارين، الباعة فى الدكاكين والمحلات، البائعات المفترشات الأرض، ربات البيوت

والصبايا على عتبات البيوت ،" سلامو عليكم، سلامو عليكم ". والسلامات كثيرة متقطعة بينها تمتمة " سبحان الله "، فالمسافة طويلة نسبيًا من بيت زوجته الثانية بشارع الفاتح لسعد زغلول، حيث مكتبه المطل على الميدان بعمارة الخواجة خير.

فى المكتب تتباطأ حركة أنامله على حباتها الكروية، الحركة البطيئة تساعده على إجادة الإنصات، والتركيز فى الكلام الكثير لموكليه الثرثارين القلقين دائمًا.

حين يرفع الشيخ فتح الله الظاهرى، بصوته الجهورى الأجش، الأذان من مسجد الاستقامة بأقصى غرب الميدان، يهبط من مكتبه بالطابق الثالث الدرج القديم للعمارة يسبقه طيب المسك. وعيناه معلقتان بالقبة الخضراء الصغيرة للجامع تجرى أنامل يده اليمنى على حبات المسبحة، ويردد برهبة وخشوع "الله أكبر.. الله أكبر".

يجتاز زحمة وصخب الناس والسيارات والباعة، ويعبر من تحت الكوبرى، يسير باتجاه باعة الكتب والعطور والسيديهات الذين يحجبون مدخل الجامع، والمسبحة تتدلى من يده يصعد الدرجات الست الرخامية، يدخل الجامع الكبير، ويصلى بورع متصوف خلف الإمام فى الصف الأول. عقب الصلاة يخرج مسبحته من جيب جاكتته ويسير عكسيًا، فى نفس الطريق الذى أتى منه، يعود للمكتب وقد أدى الفرض والسنة، "الحمد لله، الحمد لله"، ورأى الناس تسعى على أرزاقها فى الميدان.

حركة أنامله على حبات المسبحة تساعده على التفكير في حلول عملية للمشاكل النقابية، حين يناقش الأوضاع المهنية مع زملائه في حديقة نادى المحامين المواجهة لمحكمة الجيزة الابتدائية.

المسبحة في يده، وهو جالس بركنه المعتاد بعيدًا عن تليفزيون مقهى السّمر، إن ذهب يوم الجمعة للقاء بعض أصحابه بعد صلاة المغرب.

زمان، قبل أن يفتح أبى مكتبًا خاصًا به كان يعمل بمكتب الأستاذ عمر الجبالى المحامى الشهير، بعمارة مقهى كوكب الشرق، قدام مبنى مُجمّع المصالح الحكومية الرابض بميدان المحطة وشارع الربيع الجيزى. وكان محاميًا شابًا نحيلاً، صارم النظام، ومنتظمًا كساعة.

فى صباى كانت إجازاتى الصيفية تمضى على وتيرة واحدة، شكل ولون وطعم واحد، حلو نسبيًا بوجود أبى. كانت آخر إجازة، بصحبته، لمّا نجحت فى الابتدائية بتفوق، وكان بينى وبين الالتحاق بالصف الأول الإعدادى شهران.

كل صباح، كان يأتى لحجرتى فى بيجامته القديمة، زرقاء مخططة بالطول، والشبشب الزنوبة يطرقع بكعب قدميه على بلاط غرفتى، يوقظنى فى نحو السابعة بلمسات هينة لخدىّ وابتسامة رقيقة كأمّ.

"ربيع.. ربيع" يأتينى صوته الخافت وسط استغراقى فى الحلم. بصعوبة، أقطع الحلم بفتح عينىّ، أتمطع، وأتلكع وقتًا، ثم أقوم لأبحث عن الشبشب وقتًا أطول.

يضع فى يدى نقودًا لأذهب لشراء الإفطار. يكرر - كدأبه كل يوم - وصيته التقليدية "خلى بالك من ماما".

كل صباح كان يوصينى بالعناية بأمى. لا ينام معها فى سرير واحد. منذ وعيت عليه وهو ينام بغرفة "المسافرين" على سرير سفَرى صغير، الغرفة الثالثة بين غرفة نوم أمى وغرفة مكتبه ومكتبته. قبل أن تنتهى رنّات المنبه، المضبوط على السادسة والنصف، يصحو بسهولة ويسر بينما أدفن أنا دماغى فى مخدة، وأضع أخرى فوقها حتى لا أسمع زن المنبه المستمر.

يذهب إليها، يوقظها، ويحملها الزوج الطيب بين يديه كطفلة صغيرة، ويضعها فى كرسيها المتحرك، برفق يدفعها إلى مكانها فى الصالة، على بعد ثلاثة أمتار من التليفزيون، ثم يفتحه.

فى هذا الصباح المبكر، يكون التليفزيون بلا صورة، مساحة شاشته الواحدة والعشرين بوصة ترتع فيها إليكترونات، وبروتونات ونيوترونات، فى فوضى لا تشكل أية صورة سوى صورة غبش فضية. لم يبدأ الإرسال بعد. التليفزيون يوش ويوش. بعد نحو ساعتين ونصف، عندما يقترب بث الإرسال الحكومى ستتحول الفوضى إلى درجات لونية من الأبيض والأسود والرمادى تخطط

الشاشة بالطول، وسيتحول الوش إلى صفير متصل ؛ استعدادًا للوصول إلى السلام الوطنى الذى يقوده الموسيقار محمد عبدالوهاب بنظارته الطبية - وعصا المايسترو ترقص فى يده - مرتديًا زىّ لواء ومنسجمًا مع فرقة الموسيقى العسكرية.

أبى يفتح لها التليفزيون هكذا لأن أمى ستنتظر إلى الشاشة السوداء، وتنتظر أن تضىء بأى ضوء، ولو بلا شىء، بلا صورة. الصوت ليس مهمًا؛ لأنها لن تسمعه أبدًا، لكن أبى سينسى إغلاقه كالعادة، وأخشى أنا أن أخفضه أو أسكته، أو أغير شيئًا صنعه أبى بلا إذن منه.

كنت ولدًا مطيعًا لا يشكو. بالتدريج اعتدت صوت وش التليفزيون المستمر، وتحملت شاشته الفارغة منتظرًا أن يبدأ الإرسال بمحمد عبدالوهاب والقرآن الكريم.

بين النوم واليقظة أجرجر قدمىّ فى الشبشب وأتحرك. أجده فى الحمّام مفتوح الباب أمام الحوض العتيق فى فانلة بيضاء بحمّالات. رغاوى الصابون كثيفة على ذقنه وخديه وحول شفتيه، شعر صدره أسود وغزير كالشعر الهش المجعد تحت إبطيه.

وهو يحلق ذقنه يدندن بخفوت وشجن "قدر أحمق الخُطى".

عندما ينتبه إلىّ، ويرانى واقفًا على عتبة الباب نصف نائم، أنظر إليه مبتسمًا، يمسك زجاجة الكولونيا، خمس خمسات، يوجه بخاخها نحوى، ويرش على وجهى " ششش " ضاحكًا. وهو خارج

من الحمّام يضرب مؤخرة رأسى بمرح: "فُوق.. فوق يـا كسـلان". ويمضى ليرتدى ملابسه.

أفرغ مؤخرتى، أغسل وجهى وأرتدى ملابسى وأذهب لـدكان عزت الفوّال، أشترى فولاً وطعمية وبطاطس، وأعود لأضع الفطور بين يدى أمى. نأكل، أنا وهى، وأنظر معها إلـى تليفزيـون يـوش بشاشة فضية بلا صورة!

ساعات، أكلمها عن أحلامى والكوابيس الكثيرة التى تـداهمنى فى الليل، وأراقب وجهها وأنا موقن، ببراءة طفـل، أنهـا تعرفنـى، تسمعنى وتفهمنى.

يكون أبى قد خرج على لحم بطنه.

بعد مراجعة سـريعة لأوراق القضـايا، فـى نحـو السـابعة والنصف، يخرج الأستاذ من بوابة بيتنا الحديدية فى قميص وكرافتـة وبنطلون متأبطًا ملفات ودوسيهات عديدة تحت إبطه الأيمـن، علـى وجهه، ولابد، ابتسامته الأسيانة الدائمة.

يسير بخطوات واسعة نشيطة من بنك أتينا إلى شارع الناصر، ومنه لأحمد ماهر. الشارع شديد الصخب والازدحام نهارًا وليلاً، مـا زال هادئًا والمحلات والدكاكين والبوتيكات على جانبيـه مازالـت مغلقة. يصل أول سوق الخضار، حيث دكان فسخانى المحبة.

يكون المعلم فرج قد فتح دكانه، وواقف قُدّامه. جسده ضخم، كفيل شاب، وجلبابه الواسع نظيف وشاله أبيض على رأسه، بيده خرطوم بلاستيك طويل موصول بحنفية الدكان، يرش تراب الساحة الواسعة أمام الدكان ومدخل السوق بماء غزير.

على يسار باب الدكان المفتوح ترابيزة مربعة، فوقها مفرش بلاستيك أصفر وثلاثة كراسٍ خشبية بقعدة وظهر من القش، الترابيزة والكراسى مستعارة من قهوة الكابتن التى يفصلها عن فسخانى المحبة دكانان، بقالة السلام وخردوات العبور.

"صباح الخير يا فرج".

يقول الأستاذ وهو يضع ملفات الورق والبلاستيك العديدة على الترابيزة، ثم يجلس على كرسيه المعتاد، الكرسى الأوسط بين الكرسيين الآخرين، كرسى المعلم وكرسى الزبون المحتمل.

يبتسم له المعلم ابتسامة واسعة: "صباح الفل يا خوى"، ويواصل الرش.

يفتح الأستاذ ملفاته ودوسيهاته، وينزع القلم الفرنساوى الأزرق من تعليقته بجيب قميصه، ويبدأ التشاغل بأوراقه منتظرًا قدوم الزبائن. موكلون صغار من تجار وباعة السوق، يحملون بعض أوراق حسابات الضرائب والمخالفات التجارية وقضايا المشاجرات ونحوها، يقدرون مواهب الأستاذ القانونية، ويعرفون موعد قدومه ومكان مكتبه المرتجل ؛ فيأتون إليه ليفحص أوراقهم ويقدم نصائحه

القانونية، أو ينهيها بنفسه بمصلحة الضرائب أومحكمة الجيزة مقابل أتعاب بسيطة.

الأستاذ يعمل بإخلاص وتفان، بصبر ولسان حلو يرد على أسئلة واستفسارات طالبى استشارته وموكليه، وإلى جواره يجلس المعلم فرج بيده جريدة الأهرام يقرأها فى سره، يرفع عنها عينيه من حين لآخر ليدلو بدلوه، كوكيل محام أريب، مناقشاً بعض التفاصيل القانونية مع الأستاذ والموكلين، وهو ينفث الدخان، ويهز مبسم الشيشة فى يده بحركات تنسجم مع كلامه القانونى الصعب.

من وقت لآخر يطلب المعلم للأستاذ، المنهمك فى الكتابة والكلام والتدخين، كوب شاى من الولد زقلة قهوجى مقهى الكابتن.

ساعة على الأكثر، ويكون الأستاذ، حسب الأحوال وعدد القضايا والمسائل المطروحة عليه، قد انتهى من عمله القانونى والمحاسبى، وتدخين نحو علبة سجائر كيلوباترا كاملة، ورحل آخر موكل.

عندها يفرك المعلم يديه البرتقاليتين، ينشط لسانه بين شفتيه، ويتهلل وجهه.

بهمة وتلذذ، وهو يشخّص بوجهه ويديه، يبدأ المعلم فرج فى شرح ما ورد من أخبار سياسية واقتصادية بصحيفة الأهرام للأستاذ، ويتوقف طويلاً عند صفحة الحوادث وباب المحاكم الذى يمنحه

الأستاذ اهتمامًا خاصًا. يتناقشان لنحو الساعة فــى أمــور السياســة العالمية والمحلية، ويحليّان بآخر أخبار كرة القدم.

وأخيرًا يتلذذان بالفاكهة، حيث وجب موعد النكات الجديدة.

المعلم فرج يحفظ الكثير من النكت التى تبدأ بــ "مــرة واحــد صعيدى.."، ويضيف إلى حصيلته، كل يوم، نكات جديدة من مصادر متعددة، كباعة وبائعات السوق وزبائنه القلائل، ورواد مقهى الكابتن.

أشك فى أن المعلم فرج كان كثيرًا ما يؤلــف نكتًــا بمعرفتــه الخاصة، ويتوخى كتمان أنه هو شخصيًا مؤلفها.

يرن ويرتفع ضحك أبى لوقت طويل، وتســتمر قهقهتــه بــلا انقطاع زمنًا، والمعلم السمالوطى منطلق فى إلقاء النكــت القصــيرة بسرعة تفوق سرعة حماده سلطان.

يهتز جسد أبى من الضحك مع كل نكتة جديدة حرّاقــة تخــرج من فم المعلم بلهجته الصعيدية الخالصة من شوائب عامية الجيــزة. عندما يغرق لأذنيه فى الانبساط تطفر دموعه لدرجة تهــدد أفنديتــه، عندها يُسْكِت فرج بوضع يديه الاثنتين على كتفيه:

"كفاية.. كفاية، اللهم اجعله خير".

كان أبى، ولا يزال، يخشى الضحك الكثير، واقتراب الــدموع من عينيه.

تكون الساعة قد وصلت الحادية عشرة عندما يقوم الأستاذ من كرسيه، ينتصب شادًا قامته، ويعدل رابطة عنقه الملبوسة على القميص بلا جاكتة:

"نهارك أبيض يا فرج".

"ربنا معاك يا إدريس".

ويسير الأستاذ بخطوات واسعة مخترقًا شوارع السوق العديدة، غائبًا عن نظر فرج فى زحام الناس وعربات اليد والباعة الجائلين. يصل خوفو ويجتازه مسرعًا للربيع الجيزى، حيث محكمة الجيزة الابتدائية على مرمى حجر، فى الجهة الأخرى من الشارع الواسع.

يخلص بعض قضايا مكتب الأستاذ الجبالى بالمحكمة، ويلتقى بزملائه المحامين، وبالموكلين حتى نحو الرابعة بعد الظهر. يخرج من المحكمة ليذهب إلى سوق الخضار لشراء مكونات وجبة الغداء، خضراوات وأرز أو مكرونة، زائد لحم أو دجاجة أو سمك، إن كان رزق يومه وفيرًا.

يعود للبيت ؛ ليدخل المطبخ ويعد وجبة غدائنا المتأخرة دومًا، وأنا واقف معه، أنقى الأرز، أناوله زجاجة الزيت وأتفرج عليه وهو يطبخ بمهارة ست بيت شاطرة. نتناول الغداء، ثلاثتنا معًا، على منضدة الصالون الرخامية التى يحولها أبى لسفرة بوضع مفرش بلاستيك أبيض فوقها. أحملها أنا وأبى من وسط الصالة، ونضعها

أمام أمي، ونأكل والتليفزيون شغّال لا ينقطع له إرسال، يدلق برامجه وثرثراته فوق دماغنا، ويمدنا بسيل من الصور المتتابعـة والأخبـار اللامتناهية. أنا أحب نشرات الأخبار، أعرف مواعيدها على القنوات الثلاث. أنتظرها، وأتابعها بشغف وإعجاب بوقار قـرّاء النشـرات، وأناقتهم الرسمية فى البدل الفاخرة والكرافتات اللامعة.

أقلد محمود سلطان، قارئى المفضل، حـين أقـرأ مانشـيتات الصفحة الأولى وأخبـار الرياضـة بصـحف الأهـرام والأخبـار والجمهورية فى طابور الصباح، بالإذاعة المدرسية لمدرسـة أبـى الهول.

أبى يأكل وجبته الوحيدة بالبيت، وهو يتكلم عن أحداث صباحه وظهيرته، يرفع وجهه تارة إلىّ، وتارة إلى أمى، يوجه لهـا الكـلام كأنها تسمعه وتفهمه. ساعات أستوضحه أو أوجه له بعض أسـئلتى الصبيانية، يجيبنى بـ "خُد بالك يا رُبع.." ويسترسل فى شرح أشـياء تبدو لى مدهشة وممتعة.

أحيانًا، وكل وجهه حزين، ترتفع عينـاه بأسـى لوجـه أمـى الصماء.

بعد الغداء ينام قيلولة قصيرة يقوم بعدها ليـذهب إلـى مكتـب الأستاذ الجبالى، حيث يبقى هناك، يعمل بصبر وقوة بغل إلـى نحـو الحادية عشرة مساءً.

بعد أن يغادر الأستاذ الجبالى يغلق أبى المكتب، وينــزل إلــى مقهى كوكب الشرق. يجد القعدة منصوبة حول ترابيــزة الــدومينو، واللاعب الجالس أمام المعلم فرج مثقل بالخسارة، ومهموم بحســاب المشاريب وشيشة المعلم التى سيدفعها.

المعلم ضجرًا يتسلى، قبل حضور الأستاذ، بهزيمة ثلاثة، أربعة من اللاعبين متوسطى الحال. يبدأ اللعب الحقيقى بوصول الأســتاذ. يقوم اللاعب المهزوم سعيدًا بالفرار من وجه المعلم ويــده الطائلــة، يخلى للأستاذ كرسيه مبتسمًا، وينضم للمتفرجين الذين نشطوا متهيئين لفرجة ممتعة ولذيذة.

فى مواجهة المعلم يجلس الأستاذ، ويشــعل ســيجارة متحفــزًا لمواجهة كل ليلة.

لذة اللعب وبهجة الفرجة تأتيان من قوة المتنافســين، والأســتاذ والمعلم خصمان حرِيّفان شرسان، لا يحبان الدومينو الأمريكانى الذى يُلعب بأربعة لاعبين.

فى دومينو ١٠١ لاعب فرد مقابل لاعب واحد، دماغ لــدماغ. يلعبان طابقًا وراء الآخر على مشاريب القعدة. بجدٍ وصرامة ينهمكان فى اللعب باستغراق تام، وينسيان العالم من حولهما، يشــحذان كــل طاقتيهما الذهنية فى الحساب والعد، وخبط حجر الدومينو بأيدٍ ترتفــع لأقصى مداها فى الهواء وتهبط، كنسر شرس، على سطح الترابيــزة الفورومايكا، المضخم للصوت. يشحذان قوة حدسهما فى توقع ما بيد

الآخر من أوراق، ما يبدى وما يخفى.

يلعبان بضجة وهيصة وطرقعة صاخبة ومهارة، وحولهما المتفرجون يتدخلون دومًا بمناصرة أحدهما، بإغاظة الآخر، بالتصفيق والتريقة، والاستمتاع بالحرب الشرسة بين اللاعبيْن المجيدين.

ليلة يتغلب الأستاذ وليلة يكسب المعلم، ويستمر اللعب حتى يخلو المقهى إلا منهما وجمهورهما.

بعد أن يدفع المغلوب حساب الليلة يمضيان معًا، يد المعلم الخارجة من الكُم الواسع لجلبابه مشبوكة بذراع الأستاذ، يتأبط كل منهما الآخر ويتكلمان كثيرًا وهما ماشيان. عند حارة الشيخ زهران يأخذ المعلم الأستاذ فى أحضانه "تصبح على خير يا إدريس".

يقبله الأستاذ على خديه "تصبح على خير يا فرج".

ويختفى المعلم فى ظلمة الحارة الضيقة، بينما يواصل الأستاذ مشيه حتى خوفو، ومنه لصلاح الدين. يجتاز شارع الدرّى ويعرج يمينًا لبنك أتينا.

بمفتاحه يفتح باب بيتنا الحديدى، ثم باب شقتنا مدندنًا فى عتمة الليل "قدر أحمق الخُطى". دون أن ينير أى ضوء فى الشقة يدخل حجرته، وينام وحيدًا.

أمى نائمة، الشقة واسعة، وأنا، كالعادة، وحدى، سهران فى سريرى وخائف.

أسمع صوت غنائه وخطواته. يزول خوفى المقيم بقدومه. أرفع عينىّ عن المجلة بين يدىّ.

لحظات، وأتوقف عن قراءة القصة المصوّرة، ألقيها بطول ذراعى، ثم أشد البطانية فوق دماغى وأنام مطمئنًا، راجيًا ألا تداهمنى الكوابيس، فأبى موجود تحت نفس السقف.

استمر الحال على هذا المنوال حتى سافر أبى للعمل بالخليج.

بعقد عمل متواضع، دبره بعض معارف الأستاذ الجبالى، حصل أبى على فرصته المرتجاة التى كان يتوق إليها، وسعى من أجلها كثيرًا. وضعنا، أنا وأمى، أمانة فى عنق شقيقه الأكبر. عمى موسى كان قد خرج من المعتقل لتوه، واستأنف حياته بشقته بالدور الثانى مع امرأته: أبلة كاميليا مُدرّسة العلوم بالجيزة الإعدادية بنات، وابنتهما منى التى كان عمرها ثلاث سنوات.

كل شهر تصل النقود من أبى بانتظام إلى يد عمى موسى، ومعها شريط كاسيت يوجه فيه أبى إلىّ، بصوته الخافت، القليل من السلامات والأشواق والكثير من النصائح.

أفرح بسماع صوته، وبأننى سأسجل صوتى.

مثل المطربين والمذيعين أمسك، بقبضة قوية، مايك تسجيل عمى، أضع شفتىّ على كرة المايك السوداء، وأعمل بروفة "آلو

آلوو.. ٢، ٤، ٦، ٨، ١٠.. تجربة الصوت، آلو آلووو". حولى أبلة كاميليا ومنى وعمى موسى يضحكون من منظرى وعلىّ، وأنا أتأهب للتسجيل أتنحنح وأسلك صوتى كمذيع نشرة أخبار وقور، أبدأ بإمداده بموجز للأخبار والأحداث الجديدة فى بيتنا والمدرسة، وشارعنا والحى، ثم أشرح له ذاكرًا كل سكان البيت:

"إلى.. تفاصيل النشرة..

أمى بخير، ما تخافش عليها - ضاربًا قبضة يدى اليسرى بصدرى - وراك رجالة. جدى عيّان بس مش هيموت ولا حاجة، ومراته لسه عندها صرع زى ما بيقول عمى.. مُنى بقت بتنزل السلالم لوحدها.. أبلة كاميليا اترقت، بقت مدرس أول.. وأنا زى ما انت عارف أشطر تلميذ فى الفصل، طلعت الأول فى امتحانات نصف السنة.. وعمى موسى هيعلمنى الشطرنج".

أختتم النشرة بضرورة ألا ينسى إحضار تليفزيون ملوّن وتسجيل ومروحة، ودراجة رالى وكرة قدم وبنطلونات وقمصان، وبدلة كاملة سوداء على مقاسى وكرافتة حمراء.

يضحك عمى ويصفق "برافو يا رُبع.. صوتك مميز جدًا، تنفع مذيع".

فى شهور سفره الأولى كان يرسل شريطًا كل شهر، يقول فيه إننى أوحشته كثيرًا وإنه يحبنى جدًا، ويعدنى بجبل من الهدايا

والأشياء الثمينة، ثم صار الشريط يصل كل شهرين، يتحدث فيه عن انشغاله بالعمل الكثير ومتاعبه ومشاجراته. بعد زمن صارت الشرائط نادرة، بها سؤال مقتضب عن أحوالى وأحوال أمى، وحديث شديد القصر عن مرارة الغربة والوحدة، والنقود التى يجب أن يجمعها.

انقطعت الشرائط تمامًا قبل عامين من عودته، واكتفى بإرسال النقود المعتادة لعمى موسى.

مستر موسى، مدرس اللغة الإنجليزية بالسعيدية الثانوية، رجل منهك وسياسى معروف فى الجيزة، يكبر أبى بعدة سنوات، ومهموم طيلة الوقت بقضايا الوطن والشعب والفقراء.

حبسه معتاد، متقطع. كل زمن يأخذونه للمعتقل، يقضى فيه شهورًا، سنة أو سنتين، ثم يطلقون سراحه. كلامه صعب وغريب، وخلقه ضيق، يخانق ذباب وجهه، لكنه يحبنى كثيرًا، يدللنى و"مش فاضى لى"، ولا يدرى عن حياتى السرّية فى شوارع الجيزة شيئًا.

طيلة خمس سنوات لم يأت أبى فى أية إجازة، ورأيت فيها بحارًا وجبالاً من الكوابيس المرعبة.

عاد أبى قبل شهور قليلة من حصولى على الثانوية العامة، وقد تغيرت فيه أشياء كثيرة كما تغيرت أنا، ولم أعد ذلك الطفل الذى تركه خلفه ومضى.

تغيرت ملامح وجهه كثيرًا، شكله وثيابه وطريقة لبسه ونظـــرة عينيه، أطلق لحيته وتغيرت نبرات صوته الخافت الرقيق ولهجته فى الكلام ومفرداته. حضوره صار مختلفًا جدًا بالنسبة لى، كأنه رجـــل آخر غير ذلك الأب الذى كنت أعرفه قبل خمس سنوات، حتى رائحة جسده تحولت من رائحة التبغ الثقيلة، التى اعتدت عليها طفلاً وصبيًا، إلى رائحة المسك.

استأجر أبى شقة، حجرتين وصالة، فى الدور الثالـــث بعمـــارة الخواجة خير بسعد زغلول، ودفع "خلوّ رجل" كبير وغير مسبوق فى الجيزة كلها، أصر عليه الخواجة العجوز، ولم يتزحزح عنـــه قيـــد أنملة – كما يقول أسلافنا العـــرب – إثـــر خـــلاف بســـيط. فأثنـــاء المفاوضات بين أبى والخواجة، والفصال فى قيمة خلو الرجل، وعن طريق سهو برئ، أو ربما غير برئ بالمرة، فتح أبى فمه وتحـــرك لسانه بنداء: " يا خواجة خـــ..."

قبل أن يتم الأستاذ المحامى جملته انتفض العجوز وقـــام مـــن مكانه، وزعق فيه بصوته الجهورى:

"لأ يا ابنى لأ.. أنا مصرى زيى زيك.. ما يصحش كـــده، أنـــا مش خواجة".

العجوز الثرى أشقر وعيونه زرق كالخواجات، وقبطى، وشهير فى السوق والحى بذمته الواسعة كأستك، ومناصـــرة حـــزب الوفـــد القديم. لا يعرف الشيكات والطريق إلى البنوك، ولا يتعامـــل ســـوى

بالبنكنوت، ويرفع لوحة بارزة فى متجره للأقمشة والمفروشات، بالجملة والقطاعى، تحذر زبائنه:

"لو نطق الديك شُكُكْ أَدِّيك".

اعتذر له أبى واستسمحه، وفتح حقيبته السامسونيت الجديدة وارد الخليج، وعدّ للعجوز، سائل اللعاب، عدة آلاف. أخذ الخواجة النقود، ووقع على عقد الإيجار، وبارك له وهو ينصرف:

"مبروك عليك يا خواجة إدريس".

أصلح أبى نقاشة وسباكة الشقة القديمة وخلافه على حسابه، ومتوخيًا الرصانة والشياكة أثثها بمزاج رائق. المكتب فخم وكبير من خشب الأرو، وفوقه طاقم من الجلد الطبيعى البنى، والقلم فى يد الأستاذ باركر أصلى. مقعده خلف المكتب وثير، معدنى و دوّار يتيح له الحركة واللف حول نفسه، والإيحاء بالأهمية ورفعة المقام. بحوائط الغرفة الواسعة دواليب خشبية فيها ملفات جديدة تنتظر أوراق القضايا، وخلف الأستاذ مكتبة قانونية ثرية، كتبها مجلدات ضخمة بكعوب مكتوبة بماء الذهب.

مقاعد الموكلين فى حجرة الأستاذ جديدة، ومريحة ومن الجلد الأسود. أما المطبخ فمجهز ببوتاجاز وثلاجة ويعمل به ساعٍ عجوز يجيد صنع قهوة أبى السادة. والأستاذ مبروك، وكيل الأستاذ، يجلس فى الصالة على مكتب إيديال جديد فى مواجهة الداخل للمكتب

مباشرة. يقعد منتصب الظهر مبتهجًا بعمله الجديد، يفرك يديه راسمًا على وجهه ابتسامة عريضة للزبائن، الذين ينتظر وصولهم بصبر لا ينفد.

أخيرًا بعد طول كفاح افتتح أبى مكتبه الخاص، وصار له وكيل محام يرتدى جاكته قديمة بدلاً من وكيله القديم: المعلم فرج !

تدريجيًا، وبلا أسباب معلنة، وهت علاقته بالمعلم حتى توقفت عند حد إلقاء تحيته المعتادة الجارية على لسانه لكل الناس، إذا ما مر من أمام دكانه:

"سلامو عليكم يا معلم فرج".

"وعليكم السلام يا أستاذ إدريس.. اتفضل الشاى".

"بارك الله فيك، والله مستعجل".

ويسير أبى فى طريقه بينما ينفث عم فرج دخانًا كثيفًا من منخريه الواسعين.

جاء المكتب الجديد برزق لا بأس به، وبموكلة فى نحو الخامسة والثلاثين، حسناء وأرملة، اسمها "وردة".

على عجل صارت الأرملة الحسناء زوجته الثانية خلال الشهور الثلاثة الأولى من افتتاح المكتب.

أمى مقعدة والشرع سمح، وأبى كـان مـا يـزال فـى عـزه وصبابته.

فى أحوال نادرة ينبسط مزاج أبى فيتباسط معى، بعد أن صرت زوجًا وأبًا، يتمايل فى جلسته على كرسيه المذهب القـديم، الـذى لا يقربه أحد فى الصالة الواسعة، ويشرح لى نظريته التى توصل إليهـا بعد طول تجارب وخبرات كثيرة، وصارت إيمانه ويقينه الأخير.

يتمايل نصف جسده الأعلى تمايل الشيخ حُب الدين حين يتلـو القرآن، ويردد: "حبب إلىّ من دنياكم ثلاث، العطر، والنساء، وجُعِلت قرة عينى فى الصلاة."

يتعطر أبى كثيرًا، ويصلى طويلاً، ولا أدرى عن نسائه الكثير. يحب اتباع السنة الشريفة، ويستغفر الله كثيـرًا، حـين تـزل قدمـه وتتراخى تقواه فيرتكب بعض الذنوب سرًا، وبحساب صارم.

أبى الأفوكاتو المعروف - حاليًا، فى الجيزة - بالورع والنزاهة وقلة العمل، كاد يرفض، منذ اثنى عشر عامًـا مضـت، اختيـارى لدراسة الفلسفة فى جامعة القاهرة بجملة مُكَفرة:

"يا ابنى، من تمنطق فقد تزندق".

أيامها ركبت رأسى كحصان جامح.

كذبت عليه، وقلت له إن مجموعى فـى اللغـات لا يـؤهلنى

لدراسة شيء فى كلية الآداب غير الفلسفة، لأنها تقبل جميع المقبولين بالكلية وبلا شروط!

ثم "يا بابا.. أنا هدرس علم أصول الـــدين، والفقـــه، والفلســـفة الإسلامية".

مر بالسواك على أسنانه وتنحنح، وقال:

"آه.." وسكت.

بعد دقائق من الصمت قال:

"بس.. مالكش دعوة بالملاحدة، والكفار، والنصــــارى.. ادرس علماء الإسلام فقط".

كيف؟ ومعظم الفلاسفة والمفكرين كما وصف ؟!

لا أعرف.

كولد مؤدب طيب همست: " حاضر يا بابا ".

صمتَ ثانية يفكر، وأنا جالس أمامه يداى على فخذى ووجهـــى فى الأرض.

"طيب، سيبنى أفكر.. ولو إنه فى النهاية، ليس هناك طائل مـــن كل هذا الكلام الفارغ اللى بيسموه فلسفة وبتاع".

وقف على حيله:

"يا ابنى، لا حاجة لنا بدراسة الفلسفة مطلقًا.. كله موجود فـــى القرآن يا حبيبى".

لم أجادله، ولم أظهر تحديًا له.

أنا ولد مطيع يتعرف أبوه عليه حديثًا، وليس من مصلحتى فـــى شيء أن يأخذ الوالد عن محروسه الوحيد الفكـــرة الصـــحيحة، الآن على الأقل.

وقفت إذ لا يصح أن أبقى جالسًا وهو واقف.

لا أدرى، حتى الآن، هل كان أبى خائفًا علىّ مـــن التفكيـــر، أم من الكفر؟!

وضع يده على كتفى، وأخيرًا صرح بما بدا لى وقتها سببًا تافهًا جدًا: "على كيفك.. بس الفلسفة مش هتوكلك عيش".

شم رائحة فمى والدخان الراكد بصدرى.

"والسجاير هتدمر صحتك، بطلّها يا ابنى".

مضى أبى لبيت زوجته الجديدة، وتركنى برأس كصخرة فـــى محيط، لا يفتها ضرب ولا اصطدام.

بعد أيام، كصفقة عادلة، اقترح أبــى تســوية وديّــة ترضــيه وترضينى، يبدو أنه فكر فيها طويلاً من قبل. البنــت عفــاف، ابنــة زوجته، فتاة حلوة فى السابعة عشرة، أكبرها بسنة واحدة، بليــدة ولا مستقبل تعليمى لها، تحب قعدة البيت كعينيها، وتعكر صفو حياة أبــى الزوجية بوجودها الدائم قريبًا من حضن أمها. وجودها يعكر صــفو عرسه الجديد، ويقطع، بشكل مؤكد، شهوته العارمة التى كبتها لدهر طويل.

طبعًا، لم يقل أبى هذا. قال إننــى صبــرت رجــلاً، والتبكيــر بالزواج عصمة لأمثالى، خاصة الذين ينوون دراسة الزندقة بالجامعة المتفرنجة.

زواجى لن يكلفه أو يكلفنى شيئاً، والمغانم من ورائه كثيرة !

أيامها كنت مزهوًا بقمصانى الملونــة اللامعــة، وبنطلونــاتى المحزقة وارد الخليج، وبخط شاربى الأسود النامى فوق شفتى العليــا والسيجارة فى فمى، وأترك دائمًا أزرار قميصى العلويــة مفتوحــة لأثير البنات بكثافة شعر صدرى.

كشاب صايع من صيّع الجيزة الأصلاء، والصياعة، كما تعلم، أدب وشطارة يا ذوق، حسبت الموضوع مع نفسى، وطلعت كســبان جدًا على النحو التالى:

أولاً: إضافة امرأة لحياتى لن يضر، بل ســينفع فــى نطــاق الإقلاع عن إدمان ضرب العشرات.

ثانيًا: التعرف عن قرب على الطبيعة الأنثوية التى تخلو حياتى منها، إذ لم يتح لى أبدًا أن أصنع علاقة حقيقية متصلة ببنت من سنى، لا فى مدرسة أبى الهول، ولا فى الحى، مع استثناءات قليلة تتوقف عند حد ملامسات جسدية سريعة مخطوفة، أو حب رومانتيكى وحيد. حبى وهيامى بسميرة فرج. سميرة تأتينى فى أحلام يقظة متواصلة، بعد أن طارت منى، وتزوجت وسافرت مع زوجها.

ثالثًا: البنت عفاف شهية، ومقلوظة، وغبية كجحش، وهذا لا بأس به فى ظل ظروفى الراهنة.

رابعًا: إضافة بعض الطبيخ والوجبات الساخنة إلى طعامى، حيث نشفت معدتى من السلمون والجبن بسبب ظروف أمى وخيبتى فى الطبخ؛ وهو ما سيؤدى إلى تحسن ملحوظ فى صحتى العامة.

خامسًا: خطوة نحو الأناقة، وتحسين مظهرى العام عبر غسيل منتظم، وكوى جيد لملابسى.

ثم إن الأب سيدفع مصروفى الشهرى كما كان الأمر سابقًا، وعفاف ستأخذ نقودها المعتادة من أمها، ومن أبى، ولن أكون مطالبًا بترك دراسة الفلسفة والبحث عن عمل لإعالة العروس المرتقبة.

الحقيقة، كل ما سبق ليس حقيقيًا ولا مهمًا على الإطلاق !

لا مؤاخذة، السبب الوحيد لهذه الزيجة، هو أننى كنت أريد تجربة الجنس ولو مع معزة !

تزوجتُ عفاف وأنا فى سنتى الجامعيــة الأولــى. كنــت قــد تجاوزت الثامنة عشرة بأيام، تزوجتها غرًا، وبريئًا كرضيع يلقيه أبوه فى اليم، ويأمره أن يسبح.

ومضى أبى فى طريقه الزاهر المفروش بوردته الحسناء، العَبِق برائحة تقوى الله والمسك، بينما كنت أطبش أنا فى البحــر المخيــف محاولاً ألا أغرق.

15

امــرأة

عندما لا تعود ترفع، مع عفاف، الأطباق والأوانى والمــواعين الفارغة عقب الوجبات من فوق السُفرة، تحملها للمطبخ وأنت تبتســم لها، تغسل الأكواب والشّوك والسكاكين، تلمّع حوض المطبخ معها، ويدك بيدها، عندما لا تعود تسلك أســنانك، أولاً، بســلاّكة خشــبية، تغسل يديك ولا تغسل فمك، تضع كفيك على رمانتى كتفيها وتحتوى جسدها كله فى صدرك، تداعب خصلات شعرها الطويــل وتلحــس رقبتها وتبوسها بلطف، وتهمس فى أذنيها "الأكل لذيذ، لذيذ جدًا"، تقبّل شفتيها قبلات قصيرة، متذوقًا مزيج طعم الأكل وطعم شفتيها متلــذذًا بالحلو والحادق معًا، ثم تتبادلان قبلات طويلة عميقة، وتغيبان وأنــت تهصر خصرها بين يديك، عندما لا تعود تقول لهــا "أكلــك لذيــذ، وطعمك ألذ"، وأنت تقع فوقها، تخلع عنها ثوبها، وتواقعها على بلاط المطبخ، كما كنت تفعل فى شهور زواجكما الأولى، فإن كــل هــذا يعنى ببساطة أنكما وصلتما إلى عتبة الجفاف، وسقطتما معًا فى بركة الجفاء الراكدة.

على الطعام بدأ الجفاف.

هى تطبخ بمهارة شيف خمس نجوم. ما تطبخه، ولو كان القلقاس أو الخبيزة أو الكوسة التى تكرهها بعماء، رائع، شهى ولذيذ، وهى تريد أن تقول لها إن طبيخها حلو، ترغب أن يتهلل وجهك وأنت تنظر إليها ممتنًا ومبتهجًا، تقول لها إنك تحب أكلها.

تحدق هى إلى الشوكة ؛ لترى إلى أى طبق تمتد يدك أكثر، كم بلعت من دقية البامية، ومحشى ورق العنب، وكباب الحلة، وسلطة بابا غنوج، تتابع حركاتك وسكناتك، تحملق فى وجهك بعد كل تقطيع وطحن وبلع، تتمعن فيك منتظرة أن يظهر تأثير فنها عليك، أن ينطق وجهك بما لا تلفظ به وهى تعض على شفتيها. كانت تقول "دوق دى" مبتسمة بصفاء، وتمتد الشوكة فى يدها إلى فمك محملة بأم علىّ.

دائمًا الطعم حلو، لذيذ وشهى، وأنت لم تعد تتذوق شيئًا.

بعد وقت، كنتيجة منطقية وطبيعية جدًا للامبالاتك وظهور أعراض الضجر عليك على الأكل، تباعدت مرات تحرك الشوكة فى يدها من الطبق إلى فمك، لكن تحديقها فى وجهك وعضها على شفتيها، وأنت تأكل، مازال مستمرًا.

هى تنتظر كلمتك، يقتلها الشغف والترقب. قل لها طبيخك ممتاز، وأنتِ طباخة ماهرة وشاطرة وزوجة رائعة، قل لها إنك تحب أكلها كله، وأكلها هى كلها، كما كنت تقول من قبل.

لم تعد تغازلها، صرت صامتًا وأخرس كآكل "سد الحنك" كما تصفك، وأنت لا تعلق بحرف، بكلمة، بعبارة. تأكل بهدوء وأنت تقول لنفسك: مع أننى أحب تذوق الطعام واللحم الشهى إلا أننى أحب أشياء أخرى أكثر كثيرًا من ملء الجوف، التقطيع والطحن والبلع.. ما تقدمه لا يكفى، هى ليست كافية أيضًا.

صارت معظم الطعوم التى تقدمها رديئة فى فمك.

ماذا يبدو على وجهك حين يكون الطعم غير سائغ وماسخًا كطعم حياتكما معًا ؟

هل تراك ؟ هل تفهم ؟ هل تدرك ما بك ؟ هل صارت تعرفك ؟

فى الفراش الكبير الذى كان لا يزال جديدًا بشوكه، يعطى كل منكما ظهره للآخر، يمدد جسده على جنبه المعاكس لشريكه، ولا يرى إذا ما كانت عيناه مفتوحتين أم مغلقتين. يسكن كل منكما، ولا يسمح لجسمه بالفرد والثنى أو تغيير الاتجاهات، أو الفساء. الأدب واجب فى سرير الزوجية الشرعى، يا صغير السن.

لما كنت تنام بجوارها ورغبتك فيها كلب جائع عطشان ينبح فى جوفك، بتردد تقترب منها، تمد يدك إليها، بخوف وببطء تتلمس الطريق إليها، كانت تزفر نافرة وتبتعد، تلزق وجهها فى الحائط، وتعطيك عجيزتها الكبيرة، وتغرق فى نفسها هامدة. أنت لا تسمع صوت تنفسها، تنصت فقط لصوت نباح شهوتك يتعالى، هو صوت

أصم فى أذنيها، لا تسمعه، لن تحسه أو تحدسه، لن تشعر به أبدًا ولن تفهمه. بعد دقائق سيخفت نباحك رويدًا رويدًا حتى يخرس تمامًا، يهمد ويموت ؛ فتكتم ألمك وتزم شفتيك كى لا تخرج من بينهما زفرة أو آه، وتبدأ فى الإنصات إليها هى، إلى أصوات جسدها، فاسمع وأنصت.. بعد دقائق من الصمت المتوتر ستشنف آذانك بشخير خافت مطمئن اطمئنان من أدت صلاة العشاء، وصلاة الشفع والوتر!

وبعد زمنٍ من وضع وجهك فى الحائط، وإعطاء ظهرك لها تركت لها غرفة نوم الزوجية، التى هى فى الأصل غرفة طفولتك التى لم تغيرها منذ خلقت، وعدت بغصة فى الحلق والجوف إلى السرير السفرى القديم فى غرفة المسافرين، سرير وحدة أبيك الطويلة. تستلقى عليه وتنام، تنام طويلاً، بأحلام لا تظهر فيها تلك المرأة الحاصلة على شهادة رسمية من المأذون بأنها شريكة حياتك.

ثم، ثم ماذا؟ سريعًا، وصلتما للتململ، للامتعاض بقلب الشفتين، ومنه إلى ندرة الحديث الموصلة للسكوت الحكيم، ثم صمت الغضب، ومنه إلى صمت الأموات فى القبور.

خلال شهور قليلة، تحت سقف بيتك، كانت قد صارت، أمام عينيك، مكشوفة، معروفة وثابتة، لا تكشف عن شىء جديد، لا تكشف عن أى شىء بالمرة له علاقة بالمهارات العقلية والروحية لبنى البشر. امرأة بلا قاع مثل لوح ناعم من الزجاج ليس فيه أو تحته شىء. امرأة ظاهرية ليست فى حاجة إلى إمعان نظر أو تأويل.

منذ البداية كنت تلاحظ أن الشعر على ذراعيها وساقيها وفخذيها ينمو بمعدل أكبر من المعتاد قليلاً عند النساء. تنتشر شعيرات هشة طويلة تخرج من منبتها فى البداية على استحياء، ثم تطول لتصبح نصف إصبع، ثم تصبح فى طول إصبع كاملة.

كنت تنظر إلى ذراعيها خلسة، وتقول لنفسك: "ماشى الحال، إنه ينبت، لكنه مازال قصيرًا".

هكذا كنت تطمئن نفسك، ليس مقززًا جدًا، إنه موجود فحسب، قصير، وهش، وناعم.

ذات مرة، تبدو بعيدة جدًا الآن، كانت تحدثك بصوتها الذى نسيت تقريبًا نوع موسيقاه، درجة شدته وضعفه، موضعه بين الرقة والخشونة، كانت تكلمك عن اختراع جديد ظهر فى اليابان: معجون لتنعيم بشرة النساء مأخوذ من دهن الإنسان ومنى الرجل ودم التمساح!

كنت مطرقًا تحملق فى منابت الشعر فى بطن كوعها.

سكتتْ لما رأتك لا ترفع وجهك إليها. بعد لحظات دخلت غرفتك القديمة، وأنت تفكر أن مصير العلم وقيمته عندها موقوف على قدرته على نزع الشعر من جلدها الشخصى.

عفاف ليست مسكينة تمامًا، ليست مسكينة على أى نحو؛ لأنها

تستطيع أن تعاقبك كناظرة مدرسة محنكة، مع إنها كانت تلميذة بليدة. تعطيك ظهرها فى الفراش، وهى تعرض عليك جلدها السميك وشعر إبطيها الغزير بلا مبالاة، تقريبًا باحتقار لشهوتك ورغبتك الجامحة، بتقزز من شخصك الراغب فى نكاحها - الآن وهنا - فورًا.

كنت تلجأ إليها لأنه لا شيء تفعله بالخارج، ولا شيء تستطيع فعله مع حيوانك الجامح.

هى مستلقية على بطنها ممددة على السرير الوثير كعروس بحر مستديرة العجيزة، وشعرها الأسود الطويل ملقى بإهمال على ظهرها العريض، فى قميص نومها الأبيض عارى الظهر، المفتوح عند وركيها الممتلئين، دائمًا ما يثيرك منظرها هذا.

تقفز من السرير إلى الأرض كى تراها وتتمعن فيها.

تقف بجانب السرير محنيًا مأخوذًا، تبتلع ريقك الجاف، تترك نفسك على راحتك واقفًا تنظر إلى فخذيها وركبتيها الجميلتين، لا شك أن دماء غزيرة تجرى تحت هذا الجلد الأسمر المتورد.

تقنع نفسك بأن الشعيرات الهشة لا تضر بالغرام، الشعيرات الجافة القاسية وحدها هى التى تكرهها.

لا توجد شعيرات جافة فى أى جزء من جسدها الخلفى، ظهرها وعجيزتها الرائعة، وركيها وساقيها وكعبيها. تحرك لسانك خارج

شفتيك وتمتصه بشهوة، وأنت تجاهد لئلا تمتد يداك إلى ردفيها على حين غرة منك، بلا إرادة منك.

عفاف ليست نائمة، إنها فقط ممددة، مسترخية، مغمضة العينين، تستريح قليلاً من أعمال مطبخها الشاقة. ربما كانت تفكر في أنها ليس لديها عمل يدر عليها نقودها الخاصة، ليس لديها تليفون محمول، أو فستان فاخر.

تعرف نوعية أفكارها عندما تستلقى هكذا، لا تشعر أنك ملزم بأن تأتى لها بمثل هذه الأشياء، هى تعرف أنك لا تملك، لكنها لن تتراجع أبدًا عن إلزامك بها.

عفاف، تعاقب فحلها لأنه ليس فحلاً بما يكفى.

فى أول عيد ميلاد لها فى بيتك طفتَ بخمس محلات للزهور فى وسط البلد، كنت تريد باقة مميزة من الزهر البلدى الأحمر والوردى والقرنفل الأبيض، لم تجد القرنفل فى نحو أربع محلات بعد أن لففت وهرولت نحو ثلاث ساعات، عدت إلى الجيزة فدرت على أكشاك زهورها واحدًا واحدًا، وأخيرًا فى كِشك زجاجِي صغير لا يكاد يظهر للمارة تحت مطلع للكوبرى، كشك "تمرحنة"، وجدت القرنفل مرصوصًا فى الخارج بجوار الحائط الزجاجى، قرنفل أبيض كبير تخرج ورقاته الصغيرة من جسد الزهرة كترتيلة ناعمة.

المرأة العجوز، بيّاعة الورد، كانت تبتسم لك مثل زهرة قديمة.

الناس يشبهون ما يبيعون، ضحكت للمرأة، وقلت لها: "انتِ كمان وردة".

كانت ترتدى جلبابًا أخضر واسعًا، بورود كثيرة، بيضاء وصفراء وحمراء. كانت كريمة للغاية، صنعت لك باقة كبيرة رائعة من الورد البلدى والقرنفل، ووضعت ياسمينًا كثيرًا بدون أن تطلبه.

قالت: " كده الريحة هتبقى أجمل ".

كنت ترتدى جاكت أسود عزيزًا، لا تستخدمه سوى فى مناسبات خاصة. قالت العجوز إنك عاشق وإن حبيبتك يجب أن تكون جميلة جدًا.

كان الورد بيدك مثل ثريا ضخمة، سرت به مسافة طويلة فى شوارع الجيزة، لكى يراك كل معارفك والناس وأنت تحمل الزهور على صدرك. عدت للبيت مبتهجًا بصحبة الورد، وعلى وجهك ابتسامة عريضة. كنت متلهفًا لرؤية وجهها لحظة وضعك الزهور بين يديها. فتحت باب الشقة برفق ودخلت، كان بيتك مظلمًا فى العاشرة مساءً، لم تقرب مفتاح نور الصالة، تسللت فى الظلام على أطراف أصابعك، وصلت حجرة النوم، وجدتها هناك، مستلقية على بطنها، فى وضعها المحبب.

رأسها مدفونة فى المرتبة، يداها مفرودتان على امتدادهما كأنها تحتضن القطن، ظهرها رحب، عجيزتها قبة مدورة، و قميصها

الأبيض مفتوح عند وركيها. كنتَ تعتمد على شذا الورد الذى لا بــد أنه ملأ هواء الغرفة فجأة. أنت كنت تشمه يتخلل ذرات الهواء ببطء.

كانت العجوز ذكية للغاية، تعرف أن الورد بشير ليالى الغرام، الياسمين رقيق وناعم ولكن رائحته وحدها قادرة على إيقاظ فيل مــن مرقده. ابتسمت لنفسك، تركتها علــى حالهــا منتظــرًا أن تســتطيع زهورك أن تعبق كل هواء غرفة نومكما، هل يزعجها هذا؟ الزهور مثلنا تمامًا تتنفس، الورود تتنفس فى الليل، وأنتمــا هنــا فــى ليــل غرفتكما الخاصة.

ألا تريد أن تذكر ذلك الذى حدث حين لمست كتفها برقة كــى تصحو؟ أتهرب من ألمك ؟ هل وجدتها ميتة فى الغرفة؟

كانت أقرب إلى أن تكون ميتة منها إلى نائمة. كانت تتــنفس، جسد فاتن نائم يخرج ثانى أكسيد الكربون السام، والشخير المتصــل، تراوده أحلام ليس فيها موضع لك. لماذا تتركها إذًا تعيش فى حياتك هكذا ؟ كنت صغيرًا يا رجل، وعاطفيًا كمراهق.

ثرت وحطمت غرفة نومكما. برواز التسريحة الزجاج تحطــم وسقط على الأرض، والدولاب تحطم فيه ثلاث دلف، هدرت وزأرت كأسد جريح، وسببتها، وقبّحت، وخرجت تاركًا لها البيت كله.

هل تخاف أن تكرهك؟ هل تخاف أن تدس لك السم فــى أكلهــا الشهى ذات يوم؟

من غرفة وحدتك صرت تتسلل إليها أحيانًا لتسكت صوت حيوانك، بينما تؤدى هى واجبها الشرعى.

أنجبتما أحمد نتيجة طلعة كهذه.

فى المرة الوحيدة التى ذهبتما فيها للمصيف بالإسكندرية، بصحبة وبفلوس أبيك وأمها، غرق أحمد.

لم يكن قد أتم الثالثة من عمره حين غرق، كان صورة مصغرة منك، أوسم كثيرًا وخفيف الدم جدًا وشقيًا. غرق فى البحر، ولا زال يدوّى فى أذنيك صوت استغاثته.

لا تبك.

لم تعد عفاف تعنى لك شيئًا. امرأة تعيش هنا، تحت سقف هذا البيت، مثلما تعيش أمك، امرأة عمك وبنتها، وامرأة جدك.

16

جَـــد

فى أحيان نادرة أتذكر جدى، يُبعث من عتمته وعدمه، ويقفــز إلى دماغى وأنا ممدد على سرير وحدتى أحملق فــى السـقف، فــى حجرتى بالطابق الأرضى. هو على سريره العتيق بالطــابق الثالــث والأخير، بالضبط، يفصلنا سقفان عاليان، بيننا حوائط مرتفعة طولها نحو عشرة أمتار، ولكنه ينام فوقى مباشرة، سريره فى نفس الموضع من الغرفة، فى الركن إلى جوار الحائط، فوقى مباشرة، ينــام هــو هناك نومًا عميقًا متصلاً كسُبات الموتى، بينما أعــانى أنــا الجــزع والخوف والرعب الدائم، هنا طيلــة النهــار والليــل، فــى حبســى الاختيارى.

الحاج، الذى لم يحج أبدًا، عجوز عتيق يرتــدى بيجامــة مــن الكستور القديم، بيجامة عمرها ثلاثون، أربعون عامًا، لا يهــم، إنهــا نظيفة وحائلة اللون، وفوق دماغه طرطوره القديم، جســده الضــخم يملأ السرير، عيناه ما زالتا تبرقان ببريق ساطع، كانتا مخيفتين لــى جدًا فى طفولتى، ما زلت أرى بريقهما، بريــق العيــون الخضــراء

للقطط، العيون التى تلمع فى الظلمة وتشيع الرهبة. عيناه كبيرتان واسعتان خضراوان، وغائبتان تحت تجاعيد وجهه الكثيرة، ومربعات ومثلثات منحوتة فى جبهته الضيقة.

البطانية القديمة مسدلة فوق قدميه الطويلتين وخصره الضخم، بكرشه الكروية، كرشه تظهر كطفل صغير فى حجره.

الجد غائب عن العالم، لا يتحرك سوى من السرير إلى الحمام بمساعدة زوجته الأخيرة.

منذ ربع قرن جاءت صبية هنا ؛ كى تتداوى من جنىّ شرس: عفريت يسمعها غناء جهنميًا كل يوم، كل ليلة ؛ فيجعلها تتراقص بلا سبب. يطاردها فى حجرات بيت الطين بقريتها، يلاحقها فى الشوارع المتربة والحقول وساحة السوق ووابور الطحين، يُسّمعها موسيقى غريبة من آلته الموسيقية التى لا يعرفها البشر فيتسلط عليها ويملكها. تبدأ الموسيقى خافتة رقيقة، على مهل يعلو إيقاعها شيئًا فشيئًا، تبتسم البنت الجميلة وتصغى للنغمات، تطرب، تبدأ تهتز فى مشيتها، يتحرك جسدها الغض وحده مع الإيقاع، كأنها ترى عفريتها العاشق يقف أمامها مبتسمًا، يتمايل ويهتز سكران بجمالها الطازج، يريها سحره بنغماته، تطرب وتذوب، تحس فى جسدها حرارة تسرى فى العروق مع الدماء، حرارة لا تطاق، تهتز وتهتز من أعماقها، تعرق، تحس رأسها الحار سينفجر بعد دقيقة، حلمتى صدرها انتصبتا ببطء حتى صارتا مسمارين. تحتها يسيل، يرغى، ويزبد بماء دافىء، تتأوه

ألمًا ولذة دون أن يدخلها رجل، دون أن ينخسها ذكر، يضج جسدها الفاتن، جسدها العفى النضر، فتزعق من تسلط الشهوة فى أنحائها، تريد هواء وبردًا فتبدأ فى خلع ملابسها على الملأ الملتف حولها، لكنها لا تراه كجسم حى، لا ترى آدميًا ولا جانًا، لكنها تحس حضوره، تشعر بوجوده، وتسمع الموسيقى العجيبة ترتفع وترتفع..

تأخذها الجلالة فيشع من وجهها وميض ساطع وتجن يداها. يداها الطويلتان السمراوان تخلعان عباءتها السوداء الواسعة التى تخفى جلابيتها البيتية المشجرة، تحتها تصان كنوزها الكثيرة. تلقى بالعباءة على الأرض وهى تتمايل طربًا، ووجهها غائب فى نشوته اللذيذة، كأن الأنغام دخلت فيه من أذنيها واستقرت تحت عينيها، تحت أنفها، بين العظام والجلد، فى اللحم، فى الشرايين والأوردة، الموسيقى استقرت فى بؤبؤى عينيها السوداوين، الموسيقى لا يسمعها أحد سواها. بعد خلع العباءة تنزع عنها جلابيتها الملونة المشجرة بورود وزهور صغيرة ؛ فينكشف لحمها الأسمر البض، تلمع أكتافها وجيدها الجُمَّار، وينفتح جيب صدرها الناصع بين نهديها العظيمين الكبيرين. نهداها ممتلئان وقويان بحلمتين بنيتيين منتصبتين، ساقاها وأفخاذها مدوّرة عريضة تسطع، تملأ المكان بضوء باهر. عارية إلا من سوتيان ستان لا يستر نهديها ولباس بفتة أبيض لا يغطى سوتها الحمراء الرابية ترقص، ترقص أينما وجدت، فى البيت، فى ساحة السوق، وفى الشوارع والحقول. تصرخ الصبية وتولول حين يقترب منها أحدهم، يخلع جلبابه الفلاحى الواسع ويلقيه على جسدها

المفضوح ليستره. تفلفص كعروس بحر متملصة من الأيدى الكثيرة التى تمتد إليها لتكتفها، لتوقفها عن الرقص الشرير. مرات، ومرات تصرخ الصبية وتبكى، تصوّت وتولول لأن الموسيقى تلاشت وتوقفت، لأن العازف قد خاف من المحيطين بها، وفزع من القابضين على جسدها بقوة لا يفلتونه.

ربما تمنت مرة أن تموت ولا تنقطع هذه الموسيقى أبدًا، ربما دعت الله كثيرًا أن يموت أهلها جميعًا، أن يخلو البيت منهم وتمتلئ بهم القبور، ويتركوها وحدها للأبد فى جنتها مع عفريتها.

يخاف أهلها دائمًا أن ينفجر نهداها فى وجوه المارة، أن تمتد يدها ذات مرة للباسها فتمزقه وتلقى به فى وجوه الناس. البنت انكشفت وانفضحت فى القرية كلها، واتجرست فى طول وعرض البلد. وموسيقى الجن التى تسمعها لا تختفى ولا تزول، ولا تتركها فى حالها أبدًا.

موسيقى الجنىّ الشرير فشل السحرة والمخاوون وأولياء الله الصالحون وأصحاب الأعمال السفلية فى التغلب عليها وإيقافها. موسيقى الجنىّ صدَّت عنها الخُطَّاب والأقارب، والناس الذين صاروا يخافون عليها من تسلط الجن، ويخشونها هى. "ملبوسة" ركبها جبار من جبابرة الجان.

حالها أورث أهلها جهامة متصلة، وخوفاً من الفضيحة، ورعبًا أن يهتكها ويطأها أحد أشقياء القرية.

فى النهاية أشار عليهم أولاد الحلال. جاءوا بها إلــى صــاحب الصيت والمقام الرفيع فى هذا العالم الغامض المخيف، جدى الشـيخ عيسى فى عليته المقدسة، جاءوا إليه كَحَلٍّ أخير، ربما جاءوه بعد أن قرروا أن يقتلوها ويتخلصوا منها ومن جنيّها للأبـد إن لـم يسـتطع الحاج حرق العفريت.

كان الحاج هو الملاذ الأخير، وإن لم يذهب الجان سـيوارونها الثرى الطيب، الذى يستر الأجساد والشرف والعرض.

الحاج الأريب مهيب المنظر فى طولـه وعرضـه وملابسـه البيضاء وعمامته السوداء الخاصة، التى اخترعها لنفسه، حجز أهلها عنه، واختلى بالصبية فى حجرته زمنًا.

فى الخارج سمع الأهل صوت حرق البخور وصـوت الحـاج وهو يهمهم ويتمتم ويردد، بصوت رقيق خفـيض، أدعيـة وتراتيـل غامضة استمرت طويلاً. ثم ارتفع صوت الحاج بصـفير صـاخب كدوامات ريح، وصرخت البنت صرخة واحدة طويلة. ثم سكت كـل شيء، انكتم حتى النفس فى صدور أهلها المتحلقين حول الباب.

بعد دقائق من الصمت المهيب سمعوا البنت تضـحك، وتقهقـه كأنها لم تعرف الضحك من قبل.

وبعد ساعة أذن لهم الحاج فى الدخول عليه، لـم يـروا فـى الحجرة شيئًا غريبًا أومريبًا. فى وسط الغرفة مقعد كبير يجلس عليـه

الحاج، أمامه حامل جميل من خشب الأرابيسك والصدف، فوقه مصحف ضخم مفتوح، وعلى يمينه مبخرة تنفث روائح مختلطة طيبة وألوانًا كثيرة كألوان قوس قزح، وعلى الأرض، عند قدمى الشيخ، كانت البنت نائمة فى سبات عميق.

سكتوا لما رأوه لا يرفع إليهم وجهه، ووقفوا بين يديه خاشعين، يملأ أنوفهم وصدورهم ريح المسك والصندل، ويغشى أبصارهم ألوان تتشكل على الحيطان والسقف.

أغمض جدى عينيه وصمت لزمن طويل، فظلوا واقفين بين يديه كتماثيل من حجر.

أخيرًا رفع إليهم وجهًا أبيض عجوزًا يفيض بالتقوى، ورسم ابتسامة شديدة الخفة، تكاد من فرط خفتها لا يراها أحد.

ظلوا واقفين أمامه فى خضوع، قلوبهم معلقة بشفتيه.

أخيرًا نطق بصوت رسولى: "الحمد لله رب العالمين، الصبية بخير".

تهللت وجوههم كأرض عطشى وصلها الماء للتو بعد طول عطش وتشقق. أبو البنت وأمها وقعا على الأرض يقبلان يدى الحاج. ترك لهما يديه وقدميه حتى أغرقاها بلعاب قبلاتهما الطويلة، وحتى انتهى أهل الصبية من "ربنا يخليك يا حاج"، "الله يكرمك زى ما

سترت عرضنا".. إلى آخره من أدعية صادقة خرجت من قلوب ساذجة.

قال الحاج الرزين المهيب: "لكن الصبية لن تخرج من هنا".

ثم صمت برهة.

"حرقت الجن الملعون، وصار فى نار جهنم ينوح، ولكننى لا آمن أن يتلبسها آخر، إن أردتم حياتها وعدم فضيحتكم تبقى هنا لا تغادر بيتى".

قالوا: "إزاى يا حاج ؟"

قال: "أتزوجها على سنة الله ورسوله".

الجد يحدث الناس دائمًا بالعربية الفصحى، عنها لا يحيد.

جاء الشيخ عبدالله مأذون الجيزة، وأقرب الأصدقاء لقلب الحاج موسى - أبعدهم عن قلبه الشيخ حب الدين - وعقد له على البكر، بنت السادسة عشرة، على صداق قدره خمسون قرشًا لا غير، المقدم منه خمسة وعشرون قرشًا والمؤخر لأحد الأجلين، الطلاق أو الموت خمسة وعشرون قرشًا أخرى.

مضى أهل الصبية إلى قريتهم -الشيخ عثمان، بجنوب الجيزة- فرحين، وقد ستروا عرضهم وضمنوا عدم انكشاف ابنتهم وفضيحتها

إلى الأبد بفضل زواجها من الحاج المهيب ذائع الصيت، واروها بما رأوه أفضل من الثرى على أى حال.

هى لم تخرج من يومها من غرفته سوى للسوق، لم تحدث زوجته الأخرى إلا لمامًا. ماتت الجدة العجوز بعد ذلك بثلاث سنوات دون أن تقول شيئًا عن ضرتها الصغيرة، وبقيت الصبية التى لا يناديها جدى بسوى "يا بنت".

هى الآن فى نحو الأربعين، مازالت بنتًا جميلة تسمع موسيقى الجن، وترقص وتتعرى كما كان حالها حين دخلت بيتنا لأول مرة، هى الآن تطبب طبيبها الغارق فى ملكوته.

أحيانًا كنا نتساءل جميعًا متى يموت هذا الطاعن فى السن كى نحصل على كنزه المخبوء، أبى وعمى متأكدان أن الجد البخيل يخفى تحويشة عمره فى مكان ما، ربما فى قطن مرتبة سريره، تحت بلاط حجرته، فى حزام حول خصره، يمكن، ولكن لا أحد يجرؤ على سؤاله أو تفتيش حجرته، انتظر أولاده موته منذ سنوات طويلة مضت، كما أنتظره أنا أيضا منذ قالوا لى من عشرين سنة مضت "جدك تعبان "، لم ير الشارع منذ دهور، أحقاب، الله أعلم. هو فقط موجود، جثة قابعة فوق السطح هناك على سريره، غارق فى أفكاره وتوهماته وأحلامه دون أن يبدى شيئًا ذا بال لأحد، أى أحد.

الحاج يطوف العالم من فوق سريره، ويحكى للبنت عن رحلاته المكوكية العظيمة التى تشمل جميع قارات العالم، يتخيل بحارًا

ومحيطات اجتازها، سفنًا وطائرات ركبها، أهوالاً ومصائب اعترضت سفراته، يغادر سريره ويعود إليه بحكاية جديدة.. ويحكي للصبية؛ كي يسليها؛ كي لا يخرجها من حجرته أبداً.

والبنت تضحك وتضحك، نفس ضحكتها الأولى التي أطلقتها في نفس الغرفة قبل ربع قرن.

ارتفع صوت الشيخ حب الدين بالأذان في زاوية الرحمة، فوصلني في غرفتي، محبسي.

جدي يكره هذا الناسك.

17

ناسك

أراه، فى جبته وقفطانه وعمامته، عمودًا كأعمدة الكهرباء الخشبية المندثرة، طويلاً عريض الصدر والكتفين ونحيلاً، جسده متين، وجهه قاتم البنية مجدور، ومنطفئ العينين، شاربه كث كشوارب الصعايدة، ولحيته الطويلة مازالت سوداء رغم سنوات عمره الخمسين. عكّازه الغاب الأصفر، بقبضته الملتوية لأسفل، مضموم بقوة بكفه اليمنى، يرتفع شاقًا الهواء أمامه، ويهبط لينقر الأرض يسبق خطوته.

يمشى فى ظلمته التامة بقلب منير.

كنت فى نحو العاشرة من عمرى، وكان الشيخ حُب الدين إمام مسجد السّاحة البيومية وشيخ مكتب تحفيظ القرآن الملحق به، صوته الرقيق الرخيم هو أحب الأشياء إلىّ فى طفولتى وصباى. على يديه حفظت نحو نصف القرآن الكريم فى عامين.

سرادقات المآتم الكبرى، التى عادة لا تقام لأحد فى الجيزة

سوى للأثرياء وكبار العائلات، لا يُدعى للتلاوة فيها سوى الشيخ حب الدين.

يذهب الشيخ للتلاوة كأنه ذاهب لعرس أو لحفلة موسيقى كلاسيك، يروح فى كامل وقاره وأبهته، صدريته وقفطانه وجبته نظيفة ومكويّة على الشعرة.

مرسى المكوجى يولى ملابس الشيخ عناية خاصة، عناية المريد، المحب، لا المهنى. ينظفها ويكويها ويطيّبها بعطر المسك، ويساعد الشيخ فى ارتدائها. فلا يُرى الشيخ فى المساجد والسرادقات والشوارع إلا وهو متأنق، مهيب، يفوح منه ومن ملابسه ريح الطيب.

الشيخ يقوده أحياناً ولد صغير، هو حفيد صديقه اللدود الحاج عيسى، هو أنا.

أصلى مع المصلين خلفه صلاة العشاء فى جامع الساحة البيومية. بعد الصلاة أقترب منه وهو يختم، أهمس بأدب "حرمًا يا سيّدنا"، يبتسم ويواصل تمتمته، يتكئ على عصاه وكتفى ويقوم معى واقفًا، كجمل.

ونحن خارجان من الباب الخشبى الكبير، أساعده فى اجتياز العتبة المرتفعة، وأحمل عنه عكّازه وأعلقه تحت إبطى، يضع يده اليسرىِ الثقيلة فوق كتفى، ونسير مخترقين قلب الجيزة. أزهو على

أقرانى بمرافقة الشيخ، أكاد أخرج لهم لسانى كلّما رأيت أحدهم. ألف به العطفات والحارات والشوارع من أبعد الطرق وأطولها؛ ليرانى الجميع أقود سيدنا.

هولا يبالى، لا يمتعض، ولا يتململ. أرفع بصرى إليه فلا أرى سوى وجه مطمئن، يبدو لى كأنه يبتسم بسماحة من لؤمى وتفاخرى. لا تتحرك شفتاه بشىء. كلامه قليل وعزيز.

عندما نصل سرادق العزاء أُجلسه على دكة التلاوة الخشبية المزينة بالقطيفة الزرقاء، أرفع قدميه ليتربع فوق الدكة، فيقرفص فى جلسته مثل تمثال الكاتب المصرى القديم، أعدل عمامته البيضاء وشاله بيدىّ، أصب له الماء فى الكوب أمامه، وأحتفظ بزجاجة الماء البارد فى يدى حتى يطلب الشرب، أضبط الميكروفون أمام فمه، أنقره وأجرّبه نافخًا فيه "الله.. الله". عندما أطمأن لسلامة الميكروفون وجودة الصوت أقعد عند قدميه، متربعًا على السجادة مثله، فاتحًا له أذنىّ على اتساعهما.

الشيخ حُب الدين يتلو آيات الله بخشوع يهز القلوب، بخضوع يحنى الهامات، صوته موجود، ظاهر، خفىّ وباطن، غامض كصوت دوران الكرة الأرضية، يصدر من القلب والروح، لا من الفم والبلعوم والأحبال الصوتية والحنجرة. أنصت إليه بكل جوارحى، ويتحرك لسانى مرددًا خلفه الآيات بنفس طريقة تلاوته، نفس طبقة الصوت، نفس الأداء والنّبرة والورع. أفتح كفىّ عن آخرهما وأضعهما على

أذنىّ، وأتمايل فى جلستى يمينًا ويسارًا مثله تمامًا. أهتز، ويسرى فى جسدى لحن شديد العذوبة، وتمتلئ نفسى بصوته السماوى فأطرب، أغمض عينىّ ويحلق قلبى بنزق طائر، وتكاد ريالتى تسيل من بين شفتىّ.

كان يتلو، يصدح ككروان، فيذهب بعيدًا بعيدًا، يغيب بكلّيته، ويترك لمستمعيه جسد ووجه رجل غائب، طار من دنيانا إلى السماوات العُلى، دخل الجنة فشرب من أنهار مائها ولبنها وعسلها وخمرها، ورأى الحور العين، مؤمن تقى باشر وعرف متعة ولذة فردوسية لا نظير لها، هنا، على هذه الأرض.

دائمًا، يبدأ الشيخ تلاوة الربع الأول بسورة "المؤمنون"، فى الربع الثانى يقرأ من "غافر"، وفى الربع الثالث يتلو من سورته المفضلة "يوسف"، ثم يختم تلاوته بجوهرته "الرحمن". نظام صارم لا يبدّله الشيخ ولا يستبدله، ولا يرضخ لأحد من أجل تغييره، فالشيخ لم يكن يعنيه من أمر مستمعيه أحد. كان يتلو لنفسه، يشدو لمصلحته الخاصة فحسب، لمزاجه وهواه. الغريب أن الناس أحبوه لهذا السبب فحسب، لأنه ينسى حضورهم ولا يعبأ بوجودهم، وكف بصره يمنحه حريته كاملة، يجعله غائصًا فى أعماق ذاته غير مكترث بما حوله، غير عابئ بشىء، سوى صورة روحه المعلقة بالكلمات المقدسة.

وسواء كانت المناسبة عزاء راحل ثرى، أو ختمة نذر، أو احتفالاً بمولد أحد الأولياء، فإن شيخنا لا يغير ذمته ولا ضميره ولا سوره الحبيبة.

بأربع سور فحسب صنع الشيخ حب الدين شهرته العريضة فى الجيزة، وتجاوزها إلى الجنوب حتى قرى البدرشين والعيّاط، وشمالاً حتى وصل صيته بشتيل والقناطر الخيرية. وأينما ذهب، أينما تلا الشيخ سوره الأربع تتصاعد "الله الله" فى جوانب وسقف السرادق، تتوالى الزفرات والآهات من السمّيعة المأخوذين بالصوت الضارع الخاشع، وتردد الألسن "الله يفتح عليك يا شيخ" عقب كل وقفة، وسكتة، وقفلة.

سيدنا يجلس للتحفيظ فى قاعة المكتب الصغيرة، أعلى مسجد الساحة، من بعد صلاة العصر حتى صلاة المغرب. بعد الصلاة يعود للبيت للراحة حتى قبل العشاء. أرافقه فى طريق العودة، هذه المرة أخترق السوق مباشرة من أقصر الطرق للوصول إلى بيته، فمازالت حوارى وشوارع السوق عامرة بالناس.

كانت البائعات الجالسات على الأرض أمام فرشات الجبن والعسل الأسود، والليمون والخضراوات، والواقفات أمام عربات اليد، وخلف أقفاص الفاكهة، وأمام أبواب المحلات والدكاكين، والنسوان الجالسات على عتبات البيوت، كن يتطلعن إلينا، يسلّطن أبصارهن علينا، يتغامزن ويحدقن فينا بلا حياء، بلا أدب يليق بمرور الشيخ. أحيانًا يحدث ما هو أسوأ من ذلك. تميل الواحدة منهن متوردة الخدين على الأخرى، وتهمس فى أذنها بشيء وهى تبتسم، فتخجل الأخرى قليلاً ثم تفتر شفتاها عن ابتسامة عريضة، تستمر المرأة الأولى فى الهمس باحتياط كأنها تبوح بأسرار خطيرة حتى تضحك الأخرى

وهى تنظر، من تحت لتحت، إلى جسد سيدنا الفارغ، ثم تستقر عيناها عند ما بين ساقىّ وحجر الشيخ، ولا تتزحزح.

أنظر إليهن بحنق، ساخطًا، غاضبًا، وهن مستمرات فى البحلقة، التهامس، الغمز واللمز.

أحاول زجرهن، صامتًا، بحركة غاضبة من رأسى ورقبتى، بوجه أحمر وأذنين ساخنتين، فيبتسمن هازئات بى، ضاربات كفوفهن الواحدة بالأخرى، وضحكاتهن تتصاعد. أغضب وألوح فى وجوههن بعصا الشيخ فيزداد ضحكهن مياصة وارتفاعًا. الشيخ يسمع ضحكهن الماجن ولا يبدو عليه أنه سمع شيئًا، ولا ينطق بشىء. أنظر إلى وجهه فلا أرى فيه سوى الطمأنينة والرضا، وعلى وجهه شبهة ابتسامة مضيئة. برقة، يضغط على كتفى أن أهدأ، وأن نواصل السير، أشيعهن بنظرة غضب ولعنات مبهمة لا تجاوز فمى، فلا أسمع منهن سوى ضحك صاخب غزير، خلف ظهرينا.

كنت أعرف أن شهرة الشيخ السّرية فى النكاح وعظم الآلة تكاد تساوى شهرته المعلنة فى الورع والتقوى، جمال الصوت وروعة التلاوة. فالشيخ الذى ليس له ولد أو بنت معروف بأنه "صاحب الأرجل الثلاثة". قيل لأنه يسير على قدميه وعصاه، وقيل غير ذلك. يُشيع السُوقة الخبثاء أنه اشتهر بهذا اللقب عقب وفاة زوجته الأخيرة، متأثرة بمتعة قصوى، جراء مضاجعة استمرت عشر ساعات، زلزلها الشيخ خلالها بقضيب، فى طول وعرض قدم رجل متوسط الطول!

أنا، لم أره سوى كهل، عذب رقيق، ووحيد.

كان الشيخ قد تزوج كثيرًا من النساء فى مطلع شبابه وفتوته. لا تعمّر واحدة منهن معه، ولا تمكث فى بيته أكثر من عام واحد، بعده تنتهى، فإما أن تتوارى وترحل عن الجيزة كلها مطلّقة، أو يشيّعها الناس إلى القبر، حتى تزوج صبيحة آخر زوجاته. لم تنجب هى أيضًا ولكنها كفته، كلفت به، ورعته بمحبة دافقة عدة سنوات حتى ماتت. بعد رحيلها لم يقرب الشيخ النساء أبدًا، وصارت تلاوته شجية، خافتة وحزينة، وصار يغنى عندما يكون وحيدًا، وأحيانًا فى غرزة "بُحلُق" بعطفة القسيس.

فى جلساته الخاصة بالغرزة، كان الشيخ يُسَرّى عن نفسه مع صحبة قليلة، عمى موسى، حسن الأفندى الملحن، والأسطى مرسى، واثنين ثلاثة آخرين من أحبابه.

كان ينبسط، يتمايل ويغنى. يغنى بسلطنة قصائد غناها الشيخ على محمود، ويرق صوته ويحنو بمواويل وأدوار لناظم الغزالى، ويصدح بطقاطيق وقصائد لصباح فخرى. لا يقرب البيرة، المشروب الأوحد بالغرزة، فقط يدخن على الجوزة ما تيسر من أحجار الحشيش.

فى ظلمة الليل، نحو الثالثة صباحًا يعود الشيخ إلى بيته مسحوبًا بذراعى عمى والملحن حسن الأفندى. يحكى لهما فى السكة دائمًا حكاية واحدة. حكاية بكائه المتواصل، حين يكون وحيدًا، حزنًا ؛

لفراق صبيحة التى ماتت بين يديه، وهى منكبه علـــى يـــده تقبلهـــا، وشوقه للحاق بها.

عند ناصية الشارع يتركهما الأفندى ليسير فى اتجـــاه شـــارع المحطة حيث يسكن، بينما يقود عمى الشيخ لبيته الأخضر ذى الطابق الواحد المجاور لبيتنا، يدخله غرفة نومه ويتركه. بعد دقيقة أسمع وقع أقدام عمّى وهو يصعد درج بيتنا لشقته.

من كثرة ما دخلت بيت سيدنا أعرف. بيت الشيخ وغرفة نومه تامة الظلمة، لا ينير فيها مصباح ولا تدخلها الشمس. بيـــت خـــاو لا يشاركه فيه أحد، لا صوت فيه ولا حس.

وحيدًا، يتخبط الشيخ بين السرير والـــدولاب طـــويلاً ؛ ليخلـــع قفطانه الثقيل وعمامته. يغفو ساعتين على الأكثر، ويقوم مـــن نفســـه وحده؛ ليذهب لمسجد الساحة ويؤذن للفجر.

كان الشيخ قد أقسم بعد عشر دقائق من وفاة صبيحة ألا يقـــرب امرأة ما بقى له من العمر، فلم يدخل بيته قريبة أو خادمة. أعرف أنه يفتح المسجل ويترك الشيخ رفعت يتلو ويتلو، ويترك دموعه تنســـاب فوق المخدة، يئن بحشرجة خافتة، ويدع جسده القوى ينهار تحت أنين روحه.

هكذا يفعل كل ليلة قبل أن ينام مقلوبًا على ظهـــره، محتضـــنا مرتبة سريره الخشنة، فاردًا ذراعيه على امتـــدادهما.. تمامًـــا مثـــل

مسيح مصلوب، مثل مسيح نائم على فراش الشوك.

يقول عمي موسى إن الشيخ كان بصره ضعيفًا فحسب، لكنه قد صار عاجزًا، لكثرة ما بكى على فراق النساء.

18

سميرة

لم أبك على فراقها طويلاً حتى أفقد نظرى، لكنى كدت أنتحـر فحسب!

ربما لو استطعت التخلص من حياتى بتلك البراءة التى كانـت لى، وامتلكت الشجاعة لفعلها، لما وصلت لما أنـا فيـه الآن، لكـان أعدل، وأرحم، وألطف.. أظرف كثيرًا.

أتذكرها وابتسامة ممتنّة على وجهى، وعيناى متألقتان لامعتان تنظران إلى طيفها، وقلبى يتقافز داخل صدرى كصبىّ غض.

سميرة أيقونة سنوات مراهقتى، تشرق فـى رأسـى كشـمس صغيرة؛ فأشعر بكثير من الشوق إليها، شوقى أن أحس تلك المشاعر الغُفْل، التى كنت أحملها لها، مرة أخرى. بتذكرها أعود لأشياء أكـاد أقتلعها من نفسى: البراءة، النزاهة، المثالية، والسذاجة الطيّبـة التـى فقدتها منذ زمن طويل.

أستحضرها الآن ولا أحس بألم، ولا بوجع قلب، ولا بمـــرارة، فقط ضحكة ساخرة طويلة تخرج من بين شفتىّ وقلبـــى علـــى ذلـــك التلميذ الذى كان فى أولى ثانوى.

أذكرها وينتابنى حنين لتلك الأيام التى ولت بلا عودة، وفرحـــة لأننى لا زلت أستطيع تخيل ملامح وجهها الرقيقـــة، لـــون عينيهـــا العسليتين، أنفها الدقيق المستقيم، شعرها المجعّد القصير، رنة وبحـــة صوتها المميزة.

صورها كثيرة وساطعة، تتلاحق فى دمـــاغى وأمـــام عينـــىّ بسرعة بطيئة كبكرة شريط سينمائى، أمسكه بين يدىّ، وأتأمله صورة بعد صورة.

قاعدة على البسطة، والدرجة الأولى الحجرية من سلم بيـــتهم، جسدها القليل مستقر على الحجر وساقاها منفرجتان قليلاً، وأصابعها الطويلة تطل من شبشب بلاستيك بوردة خضـــراء، علـــى البســـطة النظيفة. بالماء والصابون والخيشة تمسح سميرة السلم كل صباح.

جسمها مرتاح فى القعدة ومائل بزاوية، وظهرها مركون علـــى الحائط الأصفر، ووجهها مدفون فى ديوان شعر مفتوح بـــين يـــديها. ساقاها نحيفتان طويلتان، وركبتاها السمراوان الحلوتان تلمعان تحـــت طرف جلابيتها المنزلية القصيرة. جلابية بيضاء تتناثر فوقها وردات حمراء كبيرة، ومن الراديو الترانزستور فى حجرها يصدح صـــوت نجاة الصغيرة "أنا باستناك..أنا".

على يمين باب بيتهم الخشبى المفتوح واقفة تمضغ لبانة، يـــدها فى وسطها، ووجهها مرفوع لأعلى، تتطلع للبلكونة فى الدور الثـــانى فى البيت المقابل، وترغى مع صاحبتها: أسماء المنحنية لأسفل، تتكئ بصدرها الناهد على حديد البلكونة. سميرة تسألها، بإلحاح ولهفة، عن أحوال جامعة القاهرة.

ما شكل مدرجات الكلية؟ ماذا يلبس البنات هناك يـــا سُــومة؟ كيف يمشين، كيف يتحدثن؟ ماذا يقول الدكاترة فى المحاضرات؟ مـــا أخبار الشبان فى الحرم الجامعى؟ ما آخر قصص الغرام فى الكلية؟

هل وجدتِ واحدًا يرضى بك يا "معرقبة" الرجلين؟

احكي كل حاجة بالتفصيل يا بنت الكلب.

وتتفتح حنفية كلام أسماء بلا محبس. أثناء رغى أسماء تتنهــد سميرة، تقول "آه..آه" كثيرًا، وتسأل "ها.. وبعدين، حصل إيه؟". تسهم وتذهب عيناها لبعيد، ويدها تسوى شعرها، وتستمر فى مضغ لبانـــة سمارة المرّة بلا وعى، بحركة آلية من فكيها الصغيرين. بعد وقـــت، تمل، تزهق، وتحط عليها الكآبة؛ فيرتسم على وجهها حزن يحـــاول ستر نفسه بابتسامة باهتة.

فى آخر الكلام، وهى لم تعط ظهرهـــا لأســـماء بعـــد، تزفـــر بحسرة، ربما لأنها لم تر الجامعة، وراسبة ثانوية عامة ثلاث مرات، والمعلم فرج، أقعدها فى البيت، وينتظر بفروغ صبر الخلاص منها، ستر العانس بنت العشرين، وتزويجها بأول واحد يطرق الباب.

أيام، وأنا مزوّغ من المدرسة أتسكع فــي الشــوارع بصــحبة حارث، نراها ماشية فى السوق فى فستان أخضر ضيق، وبَنْس أسود بكعب عال، تتمختر فى مشيتها بجرأة " بنت الحتة "، فيهتز ردفاهــا السمينان، وتتمرجح، مع حركة يدها اليمنى، شنطة خضــار كبيــرة وفارغة.

أجر حارث بالعافية ؛ لنتبعها من بعيــد، ونحــاذر أن ترانــا، تخترق سوق الخضار دون نظرة على محل أبيها، تشترى لحمًا مــن جزارة آل جبر، تنحنى وتميل، تنقى الطماطم والخضروات والفاكهة، وتعود بحقيبة ممتلئة ثقيلة للبيت ولا تتكلم ولا تفاصــل كثيــرًا مــع الباعة. معظمهم يعرفونها، ابنة المعلم فــرج والســت تريــزا، ولا ينادونها سوى بأبلة سميرة، أنا أناديها باسمها مجردًا، أحبه كثيرًا.

فوق السطوح فى ليلة حارّة مقمرة قاعدة على صفيحة فارغــة، وجهها بين يديها، سارحة وساهمة ترفع عينيها إلــى الســماء فــى صمت، وأنا وشوقى ندخل غرفته بعد أن قلت لها "مساء الخيــر يــا سميرة"، ولم ترد علىّ. بعد وقت سمعنا نهنهتها وأنينها الخافت.

بعد العصر، أنا وهى قاعدان على البسطة، فى ضــوء مَنْــوَر السلم. هى تقرأ فى كتابها صامتة، وأنا جالس على بعد شبرين منها، أتكئ بيدى على الدرابزين الخشبى للسلم وأحدق فيها مبتسمًا. ادَّعيت أننى يجب أن أنتظر عودة شوقى من الدكان؛ ليشرح لى درس الجبر الصعب، فقالت لى برقة "طيب.. اقعد". وجلست إلى جوارها صامتًا،

أسترق النظر إلى الصفحة التى تقرأها، وأتردد فى سؤالها عن سر ولعها بالشعر، أهم بالكلام، ولكن الكلمات تتحجر فوق شفتىّ المرتجفتين ؛ فأتململ فى جلستى. لا تحس بى، ولا ترفع عينيها عن الكتاب. أتأمل جسدها كله للحظات طويلة باستمتاع، وأنا مضطرب، شبه مرتجف. تحط عيناى على ركبتيها اللامعتين وتستقر هناك، أسكن مرتاحًا غير خائف؛ فمنظرى منظرِ ولد مؤدب طيّب، قال يعنى، خجلان ينظر للأرض.

فى غرفة شوقى، قبل امتحانات النقل بشهر، ونحن جالسان متواجهان على الحصيرة، كتابا اللغة العربية والنصوص أمامنا مفتوحان فوق الطبلية الخشبية، أنا أنظر فى اتجاه الباب بعيدًا عن الكتاب المفتوح، وأسمّع لشوقى - بفتور شديد - إحدى القصائد "الحفظ":

" ثاوٍ على صخر أصم وليت لى قلبًا كهذى الصخرة الصماء".

تدخل هى حاملة صينية صاج عليها سندوتشات جبن وبيض وكوبان شاى. تنتابنى فجأة الحماسة؛ فيعلو صوتى ويرن، فتبتسم لى، أستمر فى التسميع، وأحاول التجويد وتحسين الإلقاء الشعرى. تلتقى عيناى بعينيها؛ فأضطرب، وترتفع الحمرة إلى وجهى، أخطئ وأتلجلج، "وليت.. وليت.. وليت لى قلب كهذى الصخرة الصماء". تضع الصينية على الطبلية وتميل علىّ وهى تغمز بعينها: "صوتك حلو.. بس كده غلط يا حلو.. الصح وليت لى قلبًا.. قلبًا يا فالح".

وتمضى خارجة، بقوام رشيق، وأنا غرقان في الخجل والكسوف.

على عتبة باب بيتها واقف أمامها يَنِزّ عرقى "من ساسى لراسى"، قلبى يخفق بشدة، وريقى ناشف، ووجهى أحمر وأذناى ساخنتان، وهى تحدق فىّ مندهشة من منظرى. أتهته بلا شىء، بأصوات ليس لها معنى، أستجمع شجاعتى كلها وأخرج من جيبى ما قضيت الليل كله سهران أفعله. قالت بانزعاج " مالك يا ربيع ؟ فيه إيه؟" بأصابع مرتجفة، وضعت فى يدها قصيدة شعر كتبتها فيها وعنها، ولها وحدها. ابتسمتْ لها ابتسامة شاحبة، وجريت من وجهها، فارًا أركض. عدوت حتى وصلت حجرتى.

فى اليوم التالى، وأنا طالع السلم لشوقى خرجت من شقتهم الأرضية واستوقفتنى، كان وجهها متوردًا وجميلاً جدًا، نظرت فى عينىّ ساكتة لزمن، وتفرست فى وجهى طويلاً، ثم مدت يدها إلى شعرى ومسحت عليه، وقالت بعذوبة لا تُنسى "أنا كمان بحبك.. بس.... بس انت لسه صغير".

وأعطتنى قبلة وحيدة رقيقة على خدى، هى كل ما نلت منها.

جسدها العارى مضىء ومبهر، شعرها الأسود مبلول ومحلول حول وجهها وفوق كتفيها، وشفتاها لذيذتان بطعم الشيكولاته، نهداها الصغيران مدوّران بين يدىّ وحلمتها فى فمى، يداها على شعرى وظهرى، وتيار ماء غزير ينساب فوق رأسى وجسدى من مصفاة

الدش. أتأوه، وأرتجف من اللذة، ورغوة الصابون كثيفة وبيضاء، وغزيرة على يدى اليسرى، وعلى ما بين فخذىّ.

سميرة فى فستان فرح أبيض، يدها اليمنى معلقة فى ذراع لوقا على عتبة باب كنيسة مار جرجس. لوقا – ابن عمها – فاشخ فكيه الكبيرين عن آخرهما، ووجهه الدميم الأسود كله فرحان ومبتهج، شعره الشايب ممسوح بالزيت ولامع، وسميرة قزمة بجانب جثته الضخمة.

وجه سميرة أسمر وجميل على الماء أسفل كوبرى عباس، ومراهق فى الخامسة عشرة ينظر إليه ويبكى بحرقة، وهو متردد فى القفز من فوق السور الحديد.

لا أضحك الآن على هذا المنظر ولا أبكى. فقط، أشتاق إلى رؤيتها، وهى لم تعد إلى الجيزة أبدًا منذ سافرت مع لوقا إلى آخر الدنيا: كندا.

لماذا لم أنتحر أيامها، وأخلص ؟ لماذا وصلت إلى هنا ؟

19

عشيق مكشوف

الفضيحة كانت كامنة، ينبئ بها ما حدث فى ذلك اليـوم غيـر البعيد، منذ ثلاثة شهور، شهرين، شهر، هل نسيتَ؟

فاكر يا عشيق الليدى. تذكر يا أستاذ.

ذهبتُ إليها رغم التسلخ، ورغم أن النـدوب الصـغيرة علـى عضوى من أثر المضاجعة الشرهة الأخيرة، لم تكن قد اندملت بعـد، ومازال يؤلمنى مع الحركة والقيام والقعود، وعلى الرغم من قـولى لها إننى تعبت، وخائف. قلت لها لم أعد أحتملك، ولم أعـد أحتمـل نفسى، لا أريدك، ولن ترى وجهى مرة أخرى أبدًا!

نشوى، هى التى وضعت الحبل حول عنقى منذ لقائنـا الأول، وحدها تملك الحل والعقد والحبل الغليظ، تشده وتشدنى إليهـا عنـدما تريد، تشده بقوة وعنف ساحبة إياى من عنقى عندما يحلو لها، عندما ترغب فىّ، وترخيه لى قليلاً حسب نوع مزاجها، درجة مللها وزهقها منى أو زهدها فىّ. أحيانًا ترميه من بين يديها على أرض صالة بيت أبيها، أو على سريرها أو على بلاط المطبخ. تلقى به فى شارع النيل

أو البحر الأعظم أو ميدان الجيزة، وتتركنى حر الحركة، ومنتظرًا خطوتها القادمة، الحبل الغليظ معقود حول رقبتى جيدًا، لكن طرفه الآخر بلا يدها الرقيقة التى تشدنى، تسحبنى وتقودنى، الطرف الحر معلق فى الفراغ، وأنا مستقل وحر يمكن أن أتحرك كما أشاء وعلى هواى، ولكن الحبل مازال ملفوفًا حول رقبتى.

فى ذلك اليوم رحت إليها ساخطًا على نفسى، مقهورًا من عدم قدرتى على الاستغناء عنها، ومترددًا. فتحتُ باب شقتها بنسخة مفاتيحى التى أعطتنى إياها؛ حتى آتى إليها فى أى وقت أشاء، وتوكيدًا لشىء آخر فوق الغرام، قالت: "الثقة، الإحساس بالأمان".

دخلت بيتها أقدم رجلاً وأؤخر الأخرى، ولكنى تقدمت وأغلقت الباب خلفى بهدوء صاحب البيت.

من المؤكد أنها سمعت صوت إغلاق الباب من الداخل، وعرفت شخص المقتحم، ولكنها لم تتحرك من مكانها لاستقبالى، ولم تصدر صوتًا أو تقول حتى "مين؟"، حتى وصلت إليها.

كانت مضطجعة على سريرها الرحب فى غرفة النوم. قميصها أحمر مفتوح الصدر، ويعلو ركبتيها بكثير، فخذاها الرابيان يلمعان بسمرة رائقة، وبين يديها مجلة أزياء إنجليزية. لم ترفع رأسها عن الصفحة، نظرت إلىّ بطرف عينها فحسب. لم أقل شيئًا. بملابسى وحذائى، كما جئت، تمددت إلى جوارها فى السرير آخذًا شهيقًا عميقًا له صوت.

وتجمد المشهد على هذه الوضعية لوقت طويل.

بعد أن انتهتْ، تقريبًا، من تصفح كل صفحات المجلة، خرقت لامبالاتها المتعالية بى، وأغت بحركتها المبحوحة التى تقصد بها السخرية الدائمة منى، وقالت هازئة "يعنى جيت تانى يا بطل ؟.. إيه اللى خلانا نشوف جمال سعادتك؟"

كنت، أنا أيضًا، أشمت بنفسى معها. ابتسمت مداريًا خجلى واشمئزازى من نفسى، وملت عليها أبوسها وهى جامدة كصخرة.

بعد قبلات طويلة متعددة لرأسها وخديها ثم شفتيها ثم ما بين نهديها المكتنزين، كررت فى أذنها الشريفة الكثير من الاعتذارات عما قلت آخر مرة، وقلت الكثير من عبارات التوسل والرجاء، وطلبت العفو والصفح. تباعدت عنى بدلال، وهمست، بنزق طفلة، ألم تقل إنك تكرهنى، وتكره نفسك؟!

سكتُ طويلاً، وقاومت الانفجار فى البكاء بشراسة.

اقتربت منها، واحتضنت جسدها كله واضعًا رأسى بين نهديها، وأغمضت عينىّ فلم تصدنى، لم تتحرك ولم تنطق بشيء. فقط أسمع صوت نبضات قلبها منتظمة وعادية.

بعد دقائق طويلة - وكنت على وشك النوم السريع، تقريبًا كرضيع، محتضنًا إياها - رفعت ضحكة شامتة، تجيب آخر الشارع.

"ما قلنا لك.. مش هتقدر يا خفيف.. انت تقدر على بعدى؟"

هززت رأسى كثيرًا نافيًا قدرتى على بعادها، وحاولت أن أجد كلمات تعبر عمّا بى، وأن أقول شيئًا يرضـــى غرورهـــا، وأنوثتهـــا الفاحشة، لكنها لم تمهلنى.

لم تضيّع الوقت فى الاستماع إلىّ، وغيّرت الموضوع بســرعة مدهشة. وفى لحظة رجعنا كما كنا، كأن خرقًا واسعًا فى ثوب علاقتنا لم يكن، ولم يحدث. أنا الأذن الكبيرة بالنسبة لها، أذن ضخمة يجــب أن تتغذى دائمًا على كلماتها، وحكاياتها التى لا تنتهى.

قالت إن زوجها جاء بالأمس من سفره، ومأموريتــه المبهمــة التى استغرقت نحو أسبوعين، وإنه راجــع معهــا بعــض الفــواتير والإيصالات وخلافه، وأعطاها فلوسًا زيادة على نفقات الشهر القادم، قبّلها باقتضاب وسرعة معتذرًا لأنه لن يستطيع حتى قضـــاء الليلـــة معها، ومضى لمأموريته الجديدة حتى بدون " ما ياخد شَوَر ".

"يا حرام".

قلت وأنا أضحك.

"أصلك معفن، عادى.. ما بتقدرش قيمة الشــور، والنضــافة، والحاجات دى!"

وهجمت علىّ كبهيمة هائجة. أغرقت شفتىّ ورقبتى وصــدرى بالمص والعض، وفخذاها العظيمان يسحقان نصفى الأسفل، لم ترحم

ولم ترأف بالتهاب حيوانى الواضح، ضاجعتنى طويلاً، وأنا أحـــاول احتمال ألمى المتزايد، زامّا شفتى كى لا تخرج صـــرخاتى، تأوهـــتُ فحسب. وأخيرًا تركت نفسى تعبر عن عطبها، وهى تطلق صـــرخة شهوتها الممتدة الطويلة صرخت أنا أيضًا من ألم مريع.

تركتنى وقامت بعد قبلة امتنان طويلة على شفتىّ، فانقلبت على وجهى ودفسته فى المرتبة الوثيرة، وسريعًا رحت فى غفوة مباغتـــة عميقة، كأنها موت لذيذ ونهائى، أمام عينىّ المغلقتين ضـــوء أبـــيض باهر، وفى أذنىّ يطن صوت شلال ماء غزير، ومتصل. كنت مبتهجًا فى سباتى، ولم أدر كم نمت أو مت.

أناملها رقيقة فوق ظهرى، وهى توقظنى برفق. عدلت جســـدى على جنبى، رفعت رأسى نحوها وفتحت عينىّ فرأيتها عارية تمامًـــا، يتساقط من تحت إبطيها ومرفقيها وشعرها قطـــرات مـــاء، رائحـــة جسدها طازجة ولطيفة للغاية، ونصفها الأسفل عار، خصب ومثمـــر كحوض زهور حمراء. ابتسمت لى بصفاء، ومالت علىّ تقبلنى قبلـــة طويلة ثم استدارت، جسدها العارى من الخلف بالغ التناسق والجمال. فتحت دولابها وأمام مرآة التسريحة ارتدت فســـتانًا أبـــيض بزهـــور فضية صغيرة، بدا كفستان زفاف فاخر، ارتدتـــه بفـــرح وابتســـامة وضيئة وأخذت تغنى.

جرتنى من يدى، وخرجنا إلى مطعم فى الزمالك. أكلنا ســـمك وجمبرى، وتعاملنا كعاشقين مستهترين. تعطينى يدها فأمسكها بولـــه،

أمسدها، وأنا أنظر في عينيها الجريئتين بينما تسبل هي عينيها وتهيم، أقول لها: "أنت جميلة للغاية الليلة".

تطلق "هاه" طويلة. أقول لها "حياتى من قبلك لم يكن لها معنى!". كأن لها معنى الآن!

"أنت أجمل، وألذ حاجة فى مصر اليوم".

"هاه..." وتضحك بسخريتها المريرة "وماذا عن مصر الأمس، والمستقبل؟"

كانت لعبة مفضلة بيننا، أنا أقول لها كلمات غرام وحب و"كده يعني"، وهى تحاول إيجاد الرد المناسب للعبارة. هى اقترحت هذا الاقتراح الرومانتيكى، كما تسميه، لإضفاء طابع عشقى أصيل على علاقتنا الجسدية العارية.

بعد أن مللنا اللعبة بدأت تحكى بتمثيل مؤثر. قالت إنها ذهبت فى الصباح إلى شركة كبيرة للإنتاج الفنى؛ لعرض موهبتها التمثيلية على مخرج معروف.

المخرج الطويل النحيل كعود قصب انبهر بها من النظرة الأولى. قالت، وهى تربت على صدرها الخلاب، إنه أبدى حماسًا عظيمًا واقتناعًا فوريًا بإمكانياتها التمثيلية الظاهرة والكامنة، وأطرى طويلاً جمالها المتفرد وصوتها الأخاذ، ويرى أنهما كافيان جدًا

لإعطائها دور البطولة فى عمل فنى كبير على خشـبة المسـرح أو الشاشة الصغيرة أو الشاشة الفضية.

أصرت نشوى، وهى تستعرض نرجسيتها المعتـادة، علـى أن الرجل لم يبالغ ولم يجامل، ولم يزد على الحقيقة وواقع الحال شـيئًا من عنده. قلت "مبروك.. مبروك".

زفرت بألم حقيقى، ونعى للذات.

"على إيـه يا حسرة ؟"

"الله !!.. مش بتقولى الراجل معجب وولهان.. وقريبًا ستنطلقين فى طريق المجد، وتنورى علـى المسـرح والشاشـات، وتمتعـى الجماهير بفنك العظيم؟"

"طُق طُق.. دماغك راح لبعيد قوى".

"يعنى إيـه ؟ ما فيش مسرحية، فيلم، ولا عقد ولا تمثيل ؟"

"أبدًا، يا ريت، كنت هزت لك هز تحية كاريوكا الليلة !"

"امال إيـه اللى حصل ؟"

"عادى..عادى جدًا.. زى كل مرة".

"إزاى ؟"

"قال لى سيادته خفيف الدم: عال جدًا يا نشوى هانم، إحنا على

كده زمايل، أنا كمان خريج معهد الفنون المسرحية.. إيـــه رأيـك تسهرى معاى الليلة يا زميلة ؟

قلت له: "معلهش عندى راندفو".

قال لى: "الشغل أهم"، قلت له طبعًا، بس الحقيقة الراند فو مـع جوزى، أصلى ما بشوفوش إلا كل حين ومين. سـألنى إزاى؟ حـد يسيب البطة الحلوة دى كده لوحدها؟!

خفيف قوى عود القصب المخوخ المتصابى ده.. مش كده ؟ "

"كده طبعًا، مخوخ وتافه ومتصابى، وابن كلب."

"بس يا سيدى.. قلت له أصل جوزى بعيد عنك ظابط. عنهـا، ووشه احمرّ واخضرّ وقلب ألوان.. سألنى ظابط بحق وحقيق ؟ قلت له آه ظابط ورتبة، مش ظابط إيقاع سعادتك. الراجل اتنحنح وقلب وشه بجدية وقورة كأنه وزير الخارجية، وقال لـى: نشـوى هـانم، حضرتك عارفه طريق الفن صعب، لكن أصعب منه طريق الظباط، ومع ذلك سنحاول المشى فى الطريقين ! إن شاء الله لو قـدامى دور مناسب هتصل بسعادتك. سبته، ومشيت بعد ما بصّـيت لـه بنظـرة احتقار لا يستحقها كلب بلدى أجرب من كلب لولو."

وقهقهنا طويلاً.

قطعت ضحكنا، وسكتت فجأة، رفعت وجهها إلى ما ورائـى،

مالت بنصفها الأعلى للأمام، ونقرت بأصابع كفيها ظهـرى يـدىّ، وهمست: "واحد من أصحاب جوزى.. أخو ضحى، احتـرم نفسـك شوية لو جه ناحيتنا".

وجاء لمائدتنا. كان شابًا أنيقًا فى بدلة غالية، برابطة عنق عليها لوحة ليوناردى دافنشى، "الموناليزا"!

بعد انحناءة خفيفة، وقبلة خاطفة على يد نشوى هانم، وأهلاً يـا أفندم، تفرس فى وجهى مبتسمًا بثقة مدرّبة، قدمتنى نشوى إليه بجدية صاحبة صالون ثقافى، قالت مشيرة إلىّ: "الأسـتاذ ربيـع الحـاج.. المذيع، وزميل ضحى أخت حضرتك فى الإذاعة."

زادت ابتسامته واتسعت.

غادرنا وهو يضع فوق جبهته تكشيرة التفكير العميق، الملائمة تمامًا لضابط داهية.

هل رأى الرعب يرتسم على وجهى؟ هل شـم الخـوف الـذى جرى فى دمائى من قدمى لرأسى، وفاحت رائحته منى؟

هل سمع صوت الذعر ينطلق من اصطدام عظام هيكلى بعضها ببعض؟ هل حدس ما بينى وبينها ؟ هل سمع عويل لحمى وجلدى؟

و.. غرقت فى بحر الرعب العظيم، بئر الخوف الذى لا قـرار له.

20

هَـــرَب

تعرف..

أفضل طريقة للهرب ممّا تخاف هى ألاّ تهرب أبـدًا، أن تقـف على قدميك منتصبًا فى مكانك كرجل، تتنفس بهدوء، تفـتح عينيـك جيدًا، تراقب ما حولك، تترقب، وتنتظر بثبات وصبر..

تنتظر أن يُغرس قرن غزال فـى صـدرك، ويغيـب نصـله المسنون كله داخل قلبك، يتفجر منك الـدم، وتخـر صـريعًا علـى الأرض مفتوح العينين، أو أن تصيبك رصاصة فى جبهتـك، بـين عينيك؛ فتهتز تحت قدميك الأرض، وتسقط على ظهرك فـى ثانيـة واحدة جثة سوداء.. أو تنتظر أن يحيطوا بك فى دائرة ضيقة، ينهالوا عليك ضربًا وحشيًا فى كل أجزاء جسمك، يطحنك ويعجنك بلطجيـة فتوات، تنظر للملتفين حولك من موقعك عند أقـدامهم فـى رعـب، تحدق فى وجوههم وهم يهبطون إليك، يوجه قائدهم ضربته الأخيـرة لعضوك العزيز مقتلعًا إياه من منبته، ويجهزون على ما بقـى منـك بسكين صدئ..

أية قتلة، أية قتلة ممّا سبق أفضل كثيراً من أن تُقتل دون أن تتاح لك ثانية واحدة لرؤية وجه قاتلك، لمعرفته، ولو معرفة مجانية تمامًا.

ما أخشاه أن تأتينى الضربة من الخلف، أن أُذبح من قفاى كخروف، قتلة لا أرى وجه صاحبها، ضربة بشاكوش أو بلطة أو فأس على أم رأسى مجهولة الفاعل، أو قتلة أرق قليلاً، سم، مجرد نقط قليلة تُوضع فى طبق طعامى أو فى كوب الشاى.

أو.. ربما يكون من الأفضل أن يُقتل الواحد فى ميدان عام، فى عرض الطريق، فى أحد الشوارع الشهيرة بالجيزة، فى سينما الفنتازيو، فى السوق، أو فى ساحة الجمعية البيومية.. المهم أن يُقتل علنًا أمام بصر الخلق، تحت عيون كل الناس.. وأن يرى وجه قاتله.

خـــروج

21

انفجــار

لا أدرى كيف نمت؟ ومتى؟ فى أى وقت استلقيت على سريرى وغرقت فى النوم أو الموت ؟ كم ساعة نمت؟ ما اليوم؟ ماذا حـدث منذ دخلت البيت قبل صلاة الجمعة؟ ماذا أصابنى بعد تلـك الهرتلـة الطويلة، الانفلاتة المجنونة التى امتدت منذ مغرب الخمـيس حتـى ظهيرة الجمعة ؟ ماذا حدث بعد أن ابتلعت ذلك البرميل الهائـل مـن الحشيش والخمر، النكاح والضـحك، الأكـل والشـراب، والثرثـرة والخوف ؟ كيف عدت للبيت؟ وماذا حدث حتـى الآن، حتـى هـذه اللحظة، لحظة فتحى لعينىّ ووعيى بأننى حى، وإدراكى أننى علـى سريرى وفى غرفتى؟ ما تلك الأشباح والخيالات والصور التى كانت تتراءى لى أمام عينىّ، وفى رأسى ؟ ما الذى فـتح جـب الماضـى البعيد، والقريب؟ لماذا فاضت بحيرة الذكريات والأصوات والصور؟ ما الذى جعل سميرة والشيخ حُب، أبى وجَـدى وأحمـد، وآخـرين كثيرين يحتلون بؤبؤى عينى ودماغى وغرفتى ؟ لماذا جاءوا؟

ما الذى جعلهم يظهرون لى بوضوح، يقفون أمامى، يمكثـون

وقتًا، يتحركون حول سريرى، يكلموننى ويثرثرون عن أشياء كثيرة، وأنا صامت أنصت إليهم فاتحًا عينيّ على اتساعهما أحدق فيهم، تتغير ملامح وجوههم مع كلامهم وتتحرك أيديهم بإشارات وعلامات، يتحدثون حتى تلين أصواتهم، تخف وتخفت تدريجيًا حتى يصلوا للصمت الكئيب، ينتهى كلامهم وتتجمد ملامحهم ساكتين، يثبتون فى أماكنهم دون حركة كتماثيل فى متحف، كصور فوتوغرافية قديمة، ثم يختفون ويتلاشون رويدًا رويدًا أمام ناظرى، ما الذى جعلهم ينقضون عليّ هكذا؟ هل رآنى أحد وأنا أنصت إليهم وأحملق فيهم مشدوهًا؟ هل تكلمت معهم ؟ هل قلت لهم شيئًا ؟ هل سمع صوتى شخص آخر سواى إن كان قد طلع من بين شفتيّ أصوات أو كلام، إن كنت قد نطقت وهذيت؟ هل خرّفت طويلاً؟ هل فضحت نفسى؟ هل كشفت كل أسرارى، كل المخازى التى ارتكبتها واقترفتها طيلة عمرى؟ هل قلت شيئًا عن نشوى، عن علاقتى بها، عن أنور جبر، عن خوفى ورعبى وجبنى المخزى؟ هل؟...

لديّ الكثير والكثير من "هل" الجنون هذه.

آخر ما أذكره بشكل غامض وصور غائمة مهزوزة، كأنها خيالات وأوهام فوق ماء، أننى عدت إلى البيت وكانت أشعة الشمس تملأ البيت داخلة من الشبابيك المفتّوحة على مصراعيها. قرآن الجمعة من إذاعة البرنامج العام عالٍ يأتى من المطبخ ويملأ البيت، وكنت أسمع أصواتًا كثيرة تحدثها عفاف وهى تتحرك على بلاط المطبخ تعد الغداء. قلت لأمى شيئًا لا أتذكره، وقبّلت يدها، وعبرت

الصالة إلى غرفتى وتمددت على سريرى. أحسست باضطراب ووجع فى بطنى ورغبة قوية فى التقيؤ. قمت بصعوبة من فوق السرير، وأنا أضع يدًا فوق فمى ويدى الأخرى على بطنى، وخرجت من غرفتى وتحركت بصعوبة، عبرت الصالة ودخلت الحمّام وانحنيت على الحوض. أفرغت كل ما فى جوفى مرة، واثنتين، وثلاثًا، وأربعًا، أفرغت كل ما جوايّ مرات عديدة يفصلها ثوان، دقائق طويلة. جسدى كان يهتز وينتفض مع كل خروج لما فى جوفى. تقيأت طويلاً حتى كادت أحشائى، معدتى وأمعائى تخرج من فمى وفتحتى أنفى. أذكر أن جسدى كان يتشنج ويتخبط ويتلوى وأنا منحنٍ مستند بكفيّ على الحوض الأبيض. امتلأ الحوض الواسع بقاذورات مقرفة خرجت منى، وانسدت مصفاته المعدنية الصدئة، وفاض بكثير من قطع صلبة صغيرة، لحم وفتات وسوائل قاتمة وسوداء ولزجة. فاض الحوض أكثر وأكثر ؛ فسقطت كل قذارات جوفى على حجر بنطلونى، وعلى صدر قميصى، وعلى أسفل بنطلونى وقدميّ والبلاط تحتهما. الرائحة كانت حامضة خانقة وزنخة كرائحة روث بهيم. وأحسست أن أطرافى، ذراعيّ، ورجليّ ستتخلع وتتطاير وتنفصل عن جسدى، أحسست أن جوفى سيطق كبالونة، ورأسى سينفجر ويتطاير كل ما فيه شظايا صغيرة على سيراميك الحمام، سينهار كيانى كله ويخر على بلاط الحمام كجلد قربة فارغة. كان جسمى كله على وشك الانفجار كعبوة ناسفة، خامدة وقابلة للانفجار فى أية لحظة. وأذكر أننى خرجت من الحمام أترنح لا أرى قدّامى، ومشيت الخطوات القليلة من الحمام إلى الصالة ثم غرفتى،

مستندًا بيدى اليمنى على جسم شخص ما أقصر منى، وأذكر أننى استلقيت على ظهرى فوق المرتبة رِمّة نتنة، خرقة بالية، عيناى جاحظتان تحدقان فى السقف، وفمى مفتوح يسيل منه اللعاب على ذقنى، كأهبل، معتوه يسيل الريم بغزارة من بين شفتيه. ورأسى، فى البداية، كانت مساحة بيضاء فارغة، لا شىء فيها على الإطلاق. وأذكر أننى لم أكن أفكر فى شىء، أى شىء، فقط، صرت مجوفًا وفارغًا، هادئًا وساكنًا كميت منذ سنوات طويلة تحلل كل لحم ودهون وأعضاء جسده، وبقى منه بعض عظام نخرة وهشة. ولكننى كنت أريد أن أتكلم، أن أقول أشياء كثيرة لنفسى ولآخر مجهول لا أعرفه، ولكن شفتىّ لا تتحركان بأصوات رغم أن فمى مفتوح على مصراعيه كفم بئر، فمى مفتوح ولا أعرف كيف أغلقه، ولست أذكر الحكايات التى كنت أريد أن أحكيها، ولا الصور التى رأيتها تنبعث فى رأسى فجأة، ناس كثيرون قفزوا فى دماغى وأمام عينىّ، كأنهم يبعثون من عدم الماضى، مسافرون منذ زمن بعيد عادوا، وأتوا، ودخلوا غرفتى واحتلوها. وأذكر أننى كنت خائفًا ومرعوبًا، وأننى كنت أريد أن أقول لأحد ذلك، كنت أريد أن أسمع، أنا نفسى، صوتى، أن أسمعنى أتكلم.. وأننى غبت عن الوعى، غبت طويلاً، لم أنم، فقط غبت، وصرت وخشب السرير شيئًا واحدًا، خشب أو طوب وأسمنت ورمل كحوائط الغرفة و...

ياه، كيف بعثتُ مرة أخرى ؟!

ها أنا ما زلت حيًا !

أرفع البطانية من فوقى وأقوم شاعرًا بوهن وضعف خفيف. أشعة الشمس تملأ غرفتى، وترسم أشكالاً على السقف والحيطان، تسقط على وجهى وترينجى الأبيض النظيف. أصحو كميت يبعث من قبر، ريقى ناشف، وأحس بألم فى مثانتى وظهرى من طول الاستلقاء عليه، أتمطع وأتحسس ظهرى، وأنا أشك فى وجود قروح والتهابات على جلدى. أدخل الحمام، أفرغ مثانتى، وأرتاح. أخلع ملابسى الداخلية، ألاحظ أنها شاهقة البياض، أقف فى البانيو تحت تيار الماء، وآخذ دشًا طويلاً، أغمض عينىّ وأدع تيار الماء ينصب بغزارة فوق رأسى لدقائق طويلة، أحس بجسدى نظيفًا وخفيفًا، وأحس بانتعاش وصحو. جسدى طازج كمولود جديد، رأسى فارغة من كل شىء، وجوفى خاوية وفارغة من الداخل كقربة جديدة.

كنت عطشان وجائعًا، جائعًا جدًا، وأريد أن آكل أى شىء. خرجت من الحمام والماء يقطر من شعرى والفوطة حول رقبتى، دخلت المطبخ وجلست على كرسى خشبى مستندًا بمرفقىّ على ترابيزة عمل عفاف. ترابيزة خشبية مربعة قُرصها من الرخام الأبيض. كانت عفاف تغسل الأطباق والمواعين بيدين مشمرتين ووجه عابس. جلستُ للحظات قصيرة، تذكرت أننى عطشان، قمت فتحت الثلاجة، وشربت زجاجة ماء دفعة واحدة، وأخرجت طبق جبن أبيض ورغيفين باردين، وجلست لآكل.

عفاف المستغرقة استغراقًا كاملاً فى غسل المواعين تنبهت أخيرًا لوجودى، وانقطع تركيزها العميق المعتاد فى الغسل والشطف.

حركت رقبتها، التفتت ونظرت إلىّ بطرف عينها، وتوقفت يداها عن غسل الأطباق، وفى عينيها نظرة امتعاض وعتاب. تقدمتُ الخطوتيْن اللتين بينى وبينها، ورفعت من أمامى طبق الجبن، وأخذت الرغيف من يدى والرغيف الثانى بجوار الطبق، وأعادت الكل للثلاجة. وفتحت دلفتى المطبخ الخشبى، ووضعت أمامى أطباقًا ساخنة كثيرة، الواحد بعد الآخر.

قلت: "شكرًا"، فبدا لى أننى أسمع صوتى للمرة الأولى، كان خافتًا وضعيفًا.

قالت: "حمد الله على السلامة يا أستاذ".

نظرت إليها مستفهمًا ماذا تعنى، فجلست فى مواجهتى على الكرسى الخشبى الآخر، وابتسمت ابتسامة صغيرة واضعة يدها تحت ذقنها.

وأنا آكل، بشراهة ونهم، كباب الحلة والبامية والأرز، قطعت عفاف القطيعة الطويلة بيننا، وقررت أن تكلمنى كزوجة طيبة. تحدثت كثيرًا، بإطناب واستطرادات كثيرة، وروت لى كل ما حدث منذ عدت للبيت ظهيرة الجمعة الماضية.

قالت عفاف إننى عدت إلى البيت قبل أذان الجمعة بدقائق، ودخلت غرفتى لأنام كالعادة، دون أن أكلمها. ولكننى لم ألبث هناك سوى وقت قصير جدًا، ثم خرجت من غرفتى، ودخلت الحمام وأنا

أترنح، وكدت أسقط فى الصالة بجوار كرسى أمى المتحرك، وإننى تركت باب الحمّام خلفى مفتوحًا، وإنها سمعت أصوات ترجيعى واستفراغى وهى فى المطبخ، فجاءت لترى ما يحدث لى، فرأتنى أعانى وأتألم بمنظر يصعب على الكافر. عيناى حبتا طماطم، ووجهى شديد الشحوب وأصفر كالكركم، فمى مفتوح عن آخره وفكّاى متشنجان فى الانقباض والانبساط، أتقيأ سوائل صفراء وبنيّة وحمراء وقطع لحم أسود زنخ، وخيوط دم قاتم الحمرة، برائحة كريهة جدًا كالخراء. وقفت إلى جوارى تربت على ظهرى وكتفى مذهولة من منظرى للحظات، ثم جرت بسرعة للمطبخ، ومزجت ملحًا بماء فى سلطانية والتقطت كوبًا زجاجيًا، وعادت إلىّ. سقتنى ثلاثة أكواب من الماء بالملح حتى كدت أستفرغ جدار معدتى نفسه وأحشائى. عندما رجّعت كل ما فى جوفى وضعت ذراعى على كتفها، وذراعها حول وسطى، وجرتنى جرًا من الحمام حتى حجرتى. خلعت عنى ملابسى القذرة والملوثة كلها، وألبستنى غيارًا داخليًا نظيفًا، وأراحتنى فى ترينجى المنزلى الأبيض، ومددتنى على السرير. تركتنى دقيقة وذهبت للمطبخ وعادت بكوب لبن دافىء. وضعت رأسى فوق صدرها، وراحت تفتح فمى، وتسقينى اللبن حتى تطهر معدتى من السموم الباقية بأحشائى.

وقالت إننى أغمضت عينىّ على صدرها، ورحت بسرعة فى النوم، وهى تفتح شفتىّ وتضع طرف كوب اللبن فى فمى وتسقينى ببطء، وإننى بدوت كمسموم بسم فئران، لا يجرى فى وجهى دم،

ولون جلدى باهت، وجسدى كله تفوح من مسـامه روائـح الخمـر والحشيش، وروائح أخرى غريبة وكريهة.

وقالت إنها بعد أن اطمأنت على تبطين معدتى باللبن المطهـر للمعدة من مثل هذه الجراثيم السـامة، غطتنـى بالبطانيـة وأغلقـت الشبابيك وأنزلت الستائر، وتركتنى أرتاح وأنام. وقالت إننـى نمـت ليلتين كاملتين وثلاثة أيام تقريبًا، غذتنى خلالها باللبن وبعض ملاعق من عسل النحل فحسب، وإننى كنت شبه غائب عن الـوعى معظـم الوقت، أحيانًا أفتح عينىّ وفمى وأهذى، وأخرف بكلام كثير مخـتلط، وغير مترابط، فلم تفهم منى شيئًا، وإننى قلتُ كلامًا كثيـرًا غامضًـا عنها هى، وعن أبى وأحمد وجـدى ونسـاء كثيـرات. ووعظتنـى بإخلاص فقالت إننى يجب أن أحمد ربنا وأصلى لـه كثيـرًا ؛ لأنـه سبحانه وتعالى سبّب الأسباب وجعلها تشعر بوجودى، وتأتى إلىّ كى تنقذ حياتى، وإن علىّ أن أشكر الله، وأتوب إليه ؛ لأنه القـادر علـى كل شىء سبحانه أنجانى من موت محقق.

وأخبرتنى أننى كنت نائمًا هذا الصباح، أيضًا، نومًا عميقًا كنوم الرُضّع، حتى إننى لم أحس بشىء مما حدث، ولم أهتز فى سـريرى لما اهتز له الناس جميعًا، والجيزة كلها.

فغرت فمى مباغتًا، وسألتها بصوت عاد إليه بعض قوته: " إيه اللى حصل فى الجيزة ؟!"

قالت إن الجيزة القديمة كلها اهتزت فى الصباح الباكر، الميدان

والبيوت والشوارع والناس، وارتج كل شيء لوقت قصير في نحو السادسة من صباح اليوم، وإنها كانت مستيقظة، كالعادة، وفي المطبخ تغلي اللبن لي وتعد إفطار أمي، وكانت أجراس القدّاس والترانيم ترتفع من كنيسة مار جرجس ككل أحد. وإنها سمعت صوت فرقعة مدوية، وانفجارًا كبيرًا مرة واحدة، واهتز تحت قدميها بلاط الحمام للحظات، فذعرت، وأطلقت صرخة رعب، وهي تضرب صدرها، وفكرت أن زلزالاً عنيفًا، كزلزال سنة ٩٢، يضرب الجيزة ومصر، وإنها انبطحت على بلاط الحمام لدقائق طويلة، ساكنة وصامتة ترتعش خائفة، ولكنها لم تشعر بهزة أخرى، ولم تسمع صوت فرقعة أو انفجارًا آخر، فقامت مذعورة وهي تتمتم "يا ساتر استر يارب.. استر يا ستار". دخلت حجرة نومها والتقطت حجابها وهي تقرأ في سرها "إذا زلزلت الأرض زلزالها ". وخرجت من البيت لترى ماذا حدث، فرأت بعض الناس يهرولون في اتجاه المساكن الشعبية خلف الكنيسة. قالت إن الناس خرجوا بالعماص في عيونهم بملابس النوم، يجرون ويركضون في الشوارع كأن القيامة قد قامت، كأنهم كانوا أمواتًا ينتظرون لحظة بعثهم من قبورهم، تزاحموا في شارع الدرّي، وفي الساحة الضيقة بين بلوكات المساكن الشعبية، حيث صناديق الزبالة على الناصية وإلى جوار الحوائط، وفي الأركان. وإنها لمّا وصلت هناك اندسّت في الزحمة، واقتربت من صندوق تجميع القمامة الحديدي الضخم على ناصية شارع صبري باشا، فرأته متوهجًا بالاحمرار، ومحترقًا يكاد يسيح حديده على الأرض، تنبعث منه رائحة الحريق والبارود، وحوله أكوام من أكياس زبالة سوداء،

وقاذورات وبلاستيك يطقطق محترقًا، يتصاعد منه الدخان برائحة خانقة ومثيرة للغثيان، وبالقرب من المزبلة رأت أشلاء جثتى طفلين، مبقورى البطن وسط بركة من الدم الذى اختلط بالتراب، أحشاؤهما خارجة من بطنيهما، ورقبتيهما مجروحة، يسيل منها دم غزير كحنفية مفتوحة على آخرها، ووجهاهما داميان مشوهان، وعيونهما شاخصة مفتوحة فى رعب وذهول.

وقالت إنها صرخت، وصوّتت مرعوبة من المنظر المهول، وانخرطت فى البكاء والنواح والناس يجمّعون أشلاء الطفلين، ويغطونها بما وجدوا من ورق جرائد قديمة، وإن عمى موسى سترها، وأنقذها من الإغماء والوقوع على الأرض أمام بصر الناس، وأعادها للبيت حاضناً إياها فى صدره كعصفورة مذعورة، وإنها كانت تنشج وتبربر، وقد أغرقت الدموع وجهها كله.

بكت عفاف وهى تحكى، ووضعت رأسها بين يديها، وكنت قد توقفت عن الأكل منذ زمن، أنصت إليها واجمًا، حزينًا.

قمت إليها، أحطتها بذراعىّ، وأخذتها فى صدرى، وهى جالسة، وربت على كتفيها وصدرها.

همست، وهى تنشج، إننى رغم كل عيوبى وذنوبى، وكل ما حدث بيننا، رجل طيّب وكريم، وإننى يجب ألاّ أحملها مسئولية غرق ابننا أحمد؛ لأن هذا قضاء الله وقدره، وإنه سبحانه وتعالى غفور رحيم، وقادر أن يعوضنا وأن يهبنا بنين وبنات، وإننا يجب أن يكون

لدينا أمل ورجاء فيه تعالى، ولماذا لا نعود للحياة معًا كزوج وزوجة صالحين، وإنه تعالى سيكرمنا، إن شاء الله، إن نحن أخلصنا النية.

قبّلت رأسها، وكنت على وشك الخروج من المطبخ وتركها وحيدة تواصل أعمالها المنزلية، عندما كفكفت دموعها وقالت هناك شيء آخر حدث منذ ساعتين تقريبًا، فنظرت إليها متسائلاً.

قالت إن ضابطًا شابًا يرتدى ملابس مدنية جاء للحى وسأل ناسًا كثيرين عمّا حدث فى الصباح، وإنه دخل بيتنا، مكث فى شقة عمى وقتًا طويلاً، تحدث معه بشأن الانفجار المريب، وسأله إن كان قد رأى أحدًا يقترب ويعبث بصندوق القمامة الكبير، وإن كان يشك في وجود دوافع سياسية وراء هذا الانفجار. وقالت إنه رن جرس شقتنا، وهو نازل من عند عمى، وتحدث إليها فسألها عن الحادث، فأخبرته بكل ما سمعته ورأته، فقال لها "عال..عال جدًا.. شكرًا جزيلاً". وسألها عنى ذاكرًا اسمى وعملى، فأخبرته أننى مريض منذ ثلاثة أيام، وأننى فى السرير نائم. فقال لها "لا سلامته..ألف سلامة". وأخبرها أنه يعرفنى معرفة شخصية وكان بوده أن يرانى، وبما أنى، للأسف، مريض وكنت نائمًا وقت وقوع الحادث فلا داعى لإيقاظى وإزعاجي. وطلب منها أن تسلم علىّ. فسألته عن اسمه الكريم، فقال لها إنه النقيب أسعد، شقيق زميلتى ضحى فى الإذاعة، وقال لها، وهو يغادر، إن صديقه المقدم أنور جبر يتذكرنى، وذكر له أننا كنا زملاء فى مدرسة واحدة، وأنه يرسل إلىّ التحية.. الكثير من التحيات والسلام.

22

كهـــــل

أريد أن أمشى فى الشوارع، أريد أن أخرج وليكن ما يكــون. ثلاثة أيام وليلتين وأنا مرمى فى البيت كعجوز فــى قفــة، ككومــة عظام وجلد إلى جوار حائط.

فى البيت أكاد أختنق من كل شىء، أختنق حتــى مــن هــواء تنفسى.

متوجسًا، متخاذلاً، مثل جرذ يخرج من جحر أفتح بهدوء دلفــة باب البيت المتحركة. الباب دلفتان من الحديد المشغول مطلى باللاكية الأسود، ما زال جميلاً بمربعاته ومثلثاته ودوائره، ومتينًا رغم تقشــر الطلاء وبعض صدأ هش منتشر فى أسفله. أعبر بلاطــات الرخــام القديمة، عتبة باب البيت، خارجًا بخطوتين مترددتين. يصدم عينــىّ نور شمس العصر فى الشارع، فأضع يدى اليمنــى أمــام وجهــى، وأخفض رأسى وأحنى هامتى ككهل.

شارعنا، بنك أتينا، شارع قصير يمتد لنحو ثلاثمائة متر، معظم

بيوته أوروبية الطراز، ثلاثة، أربعة طوابق، مبنية على حوائط حاملة من الحجر الأبيض والطوب الأحمر. الحيطـان مرتفعـة والأسـقف عالية والبلكونات صغيرة من حديد مقوّس للخارج، وعلى الواجهـات نقوش وزخارف مستوحاة من الأساطير اليونانية والرومانية، معظمها طمس وانمحى، الشبابيك واسعة وعاليـة ودلـف الشـيش سـميكة وخضراء، خلفها دلّف أخرى زجاجية، كانت قـديمًا مـن زجـاج بلجيكى فاخر وبعضها لا يزال ملوّنًا، عليه زخارف وورود وأشجار وطيور. زمان، كانت النساء يتفنن فى الرسم على زجـاج الشـبابيك والأبواب والبلكونات.

فى الثلاثينات من القرن الماضى كان المَعلمان الرئيسـان فـى الشارع هما مطبعة خريستو، وبنك أتينا. مبنى المطبعة ما زال قائمًا حتى اليوم. بناء واسع وكبير من دور واحد يعلـوه لافتـة خضـراء عتيقة، تلاشى من عليها اسم خريستو وبقيت كلمة " مطبعة " باهتـة ومقروءة، ضربت الرطوبة جدران المطبعة الحجرية السـميكة مـن جذورها، وانبعج بابها الصاج الكبير وانتشر به صدأ عتيق وغطـاه كله، الباب مغلق منذ رأيته للمرة الأولى، منذ خرجت للشارع طفـلاً. أما مبنى البنك اليونانى فقد تداعى، تهدم واختفى قبل أن أولد بـزمن، وترك اسم عاصمة اليونان على يافطة معلقة على جدار أول بيت فى الشارع، وحل مكانه عمارة صفراء من ستة طوابق.

قبل ثورة يوليو كان معظم سكان الشارع يونـان ومصـريين وإيطاليين وأرمن. تجار وموظفون فى الحكومة والشركات وفنيّـون،

أفندية وبكوات. بعد العدوان الثلاثى، سنة ٥٦، بـــاع معظـــم ســـكان الشارع الأجانب بيوتهم برخص التراب وغادروا مصر، وعادوا إلى أوروبا أو هاجروا إلى الأمريكتيْن، ولم يبق منهم بالجيزة سوى بعض العجائز، مات أكثرهم ودفنوا بمقـــابرهم، ومـــازال بعـــض النســـاء الطاعنات جدًا فى السن على قيد الحياة، قابعات فى نفـــس بيـــوتهن القديمة. جدى العظيم الشاطر اشترى بيتنا سنة ٥٧ من خبير دخـــان إيطالى، اسمه ماركو، كان يعمل بالشركة الشرقية للدخان. اشـــترى جدى البيت بطوابقه الثلاثة وحديقته الصغيرة التى اختفت من الوجود بثلاثين جنيهًا فقط، لا غير.

الشارع عرضه نحو خمسة أمتار، على جانبيه نحو عشرين بيتًا متقابلة، منعزل إلى حدٍ ما بتفرعه من شارعى الـــدرّى، والناصـــر. الدرى شارع مهم، خاص جدًا ومؤَمن جيدًا، وينتشـــر بـــه الجنـــود جالسين على دكك خشبية أمام عتبات كنيستيْه العتيقتين: كنيسة مـــار جرجس، وكنيسة الأخوة للأقباط البروتستانت. شارع فخم وهـــادىء، ويندر به المارّة طيلة ستة أيام فى الأسبوع، يزدحم جدًا يـــوم الأحـــد حيث يتوافد عليه الناس من أنحاء شتى ؛ للصلاة وزيـــارة كنيســـتيه. شارع الناصر يميّـــزه مكتـــب إعلانـــات دار التحريـــر، وجريـــدة الجمهورية، ومطبخ حلوانى أبى الدهب، وثلاثة من مقاهى الإنترنت، ويؤدى إلى أكبر شوارع السوق وأشهرها، شارع أحمد ماهر.

شارعنا العتيق جزيرة صغيرة من الهدوء وسط أمواج الصخب الممتد بطول وعرض وارتفاع شوارع السوق القريبة. فى شارعنا،

فى صمت وهدوء ومواقيت محددة، يضــع الباعــة العجــائز اللبن والعيش والجرائد والخضروات والفاكهة، لزبائنهم القدامى فى ســلال قش نازلة بحبال عتيقة من البلكونات الصغيرة، ومن مناور الســلالم. الباعة المخضرمون يعرفون المطلوب بالضبط وحاجة كــل زبــون، يضعون بضائعهم فى السلال ويمضون، ويحاسبون آخر الشــهر، أو حسب التساهيل. هنا، لا يتجول باعــة الســوق المتجولــون الــذين ينتشرون بالشوارع الأخرى طول النهار وبعض الليل.

من وقت لآخر تمر عربة كارُّو غريبة عن المنطقة، محملــة بفاكهة الموسم، يجر حمارها أو حصانها العجوز بائع بجلباب وشال، غالبًا صعيدى، ينادى على بضاعته بسِيم مختصر يفهمه الناس، فيبيع ويُرزق. أو يظهر العجوز سلامة روبابيكيا، ســاحبًا بيــده اليســرى حماره المقروح الذى يجر خلفه عربة بصــندوق خشــبى صــغير، ورافعًا فى يده اليمنى مينى ميكروفون متنقل، ويصيح فــى المايــك بصوت رفيع فرِح " بيكْياااا.. بيكْياااا ".

وتقريبًا، كل أسبوع، عصر الجمعة، يتوقف بالشــارع، لنحــو الساعة، مدّاح كهل يقرع على دف كبير بلا شخاليل، يمــدح النبــى المختار بقصائد شعبية قصيرة بصوتٍ واهن ومرتعش. يتجول فــى الشارع بخطوات بطيئة رافعًا دفه لأعلى ضاربًا عليه بكف معروقــة وأصابع سمراء طويلة. يتوقف أمام أبواب البيوت وتحت البلكونــات وينشد فى محبة رسول الله وآل البيت. بعد أن ينتهــى مــن مديحــه وإنشاده يخفض دفه فيتدلى بيده اليمنى، ويمشى فى اتجاه عزيزة. يلم

أطراف جلبابه الواسع ويجلس بوقار، فاردًا رجليه الطويلتين ومستندًا بظهره للحائط، على مصطبة أسمنتية صغيرة إلى جوار نصبة عزيزة. يخرج علبة صفيح من جيب الصديرى الفضى، يفتحها وينهمك فى لف السيجارة. عزيزة تضع فى يده كوب شاى أسود كثير السكر قائلة بابتهاج " الله يفتح عليك يا شيخ مروان.. نوّرت الجيزة كلها". عزيزة تحبه كثيرًا، تطرب لإنشاده، وتحييه بالشاى المجانى المعتاد. الدف مستقر على المصطبة إلى جوار يده اليمنى، فيذهب إليه بعض ناس، معروفون بعينهم، يضعون فى دفه ما فيه القسمة، يبتسم لهم المدّاح فتضيق عيناه وتتكاثر على صفحة وجهه التجاعيد والغضون، ينفرج وجهه قاتم السمرة بفرح، ويرفع يديه الاثنتين فوق شاله الأبيض الملفوف حول رأسه، لفة الثعبان، ممتنًا وشاكرًا لهم. يشرب شايه بصوت مسموع وبطء، ويدخن سيجارته باستمتاع واضح. بعد كوب الشاى والسيجارة يقوم ليواصل تجواله وإنشاده، ويمضى ماشيًا بخطواته البطيئة قارعًا على الدف ومنشدًا باتجاه سوق "تلت التمن".

أما هذا الغريب عن حينا فشخص غريب جدًا.

أراه، ككل خروج لى، جالسًا فى مكانه المعتاد فى مواجهة بيتنا، على بعد ثلاثة أمتار من بابنا.

ها هنا، بالضبط، فى مقابل الباب الذى فتحته وخرجت، كهل قاعد من صبحية ربنا وحتى تتكاثف الظلمة فى الشارع برحيل

عزيزة وإغلاق فرغلى لدكان بقالته.

أبتسم له بإشفاق عليه، وعلى نفسي.

أنظر إليه محدقًا فيه، باحثًا فى وجهه، ملابسه، جسده، منظره، وحضوره عن سرّ ما. سر مكنون، لابد، يموهه ويخفيه خلف منظره الغريب، منذ جاء لأول مرة واستقر هنا. حاولت مرارًا التطلع فيـــه، التودد والتقرب إليه والحديث معه، النبش خلفه، فلم يوجه إلىّ نظرة، لم يقل لى كلمة واحدة، ولم أصل من سعيى خلفه لخبـــر عنـــه، لـــم أخرج بشىء.

لا يصلنى من وجوده رسالة، لا بالظن ولا بالحدس، هو حاضر فقط، حضوره صافٍ مجاني، يتجرد من الغاية، من المعنى، والدلالة. لا يبالى بأحد، لا يهتم بشىء حوله، ويظل فى حاله، مع نفسه، كمـــا كان دائمًا، لغزًا صغيرًا مقيمًا وراسخًا فى جلسته.

أنظر إليه متهيبًا قليلاً، وهو لا يكاد يرانى، هـــو غائـــب فـــى تحديقته الطويلة فى الحجر والحديد، وشجرة اللبلاب ناشـــفة الأوراق والساق فى بلكونتنا الأرضية. لا يرفع عينيه إلىّ، لا يعبأ، كالعـــادة، بيدى المرفوعة له فى الهواء على سبيل التحية.

هو كهل يشبهنى بشكل ما، إلى حد ما، فى أشياء قليلة عنـــدما كنت فى العشرين من عمرى.

على بعد خمسة أمتار من نصبة شاى عزيزة، التى تحتل شقًا بين جدارين فى تقاطع بنك أتينا بالناصر، يقعد هذا الكهل، وأمامه عدة صناديق مشروبات غازية، مرصوصة بعضها فوق بعض، الأعلى منها مفروش بورق جرائد، وفوقه أكياس من المناديل الورقية مختلفة الأحجام والماركات، خلفها، على كرسى بلاج خشبى مفتوح يجلس هو ساكنًا كتمثال، بوجه ملتاع. وجهه معلق ببيتنا، وخلف رأسه باب صاج صدىء، باب محل الأدوات الكهربائية المغلق دوماً.

المنظر كله متكرر بحذافيره وثابت كاطراد الشمس فى الشروق والغروب، فقد صار الرجل، منذ زمن طويل، معلمًا ثابتًا لا يتزحزح من مكانه ولا يتحرك كأحجار البيوت.

صامتًا ولا مباليًا يتابع الرجل الغريب سقوط أشعة الشمس فوق حديد البلكونة المشغول، ويتتبع أبواب وشبابيك وبلكونات بيتنا فى فتحها وإغلاقها وظهور ساكنى البيت واختفائهم. وتتعلق عيناه، أكثر ما تتعلق بشجرة اللبلاب فى بلكونتى. الشجرة زرعتها أمى من سنوات طويلة، حين كانت شابة، حين كانت تسمع وتنطق، آملة أن تنمو وتنمو، وتغطى بأوراقها الخضراء العريضة كل واجهة البيت بطوابقه الثلاثة.

طيلة الوقت، يظل وجه الكهل هكذا، سمحًا وطيبًا ومتعلقًا ببلكونتنا، بحديدها، وشجرتها، وبابها المغلق. من آن لآخر يعدل أستيك ساعته الفاخرة فى يده اليسرى ويحملق فى الفراغ، وجهه

الأسمر الوسيم مرتاح وقانع، ومستمتع بالمنظر الثابت الذى نحتـــه بنفسه، لنفسه. الكهل صامت معظم الوقت لا يكلم أحدًا سوى نفسه. لا يتململ أبدًا فى جلسته الأبدية، فقط، بين الحين والآخر يهمهم، يزوم، يبلل شفتيه بلعابه، يدخن سيجارة سارحًا ساهمًا، ويلفظ بعض كلمـــات متفرقة وعبارات غامضة، بصوت مبحوح:

"ما كانش العشم".

يفضفض أحيانًا عن نفسه، عن روحه الهائمة فى دنياها الخاصة

"آه.. والله حرام".

صوته العاتب رقيق، وخافت.

فى أحيان كثيرة يكدر صفو صمته وسرحانه كثيرون، معظمهم صبية ومراهقون، يجرّون شَكَلّه من أجل الضحك، يخطفون من أمامه أكياس المناديل ويجرون، فلا يقول شيئًا ولا يتحـــرك مـــن مكانـــه، يسخرون منه ويشتمونه لاعنين تمثال "أبو الهول" فلا يهتز، يشوطون تراب الشارع بأقدامهم فى اتجاهه فيتعفر وجهه وشـــعره وملابســـه، ويفرون ضاحكين وهو راسخ فى جلسته لا تصدر عنـــه حركـــة أو تخرج من بين شفتيه كلمة. تأتى عزيزة تسب وتزعق فى أولاد الكلب الملاعين، وتمسح وجهه وشعره وتطيّب خاطره بكلمتين.

عزيزة تضع له كوب الشاى، على حافة صندوق بضاعته، إلى جوار أكياس المناديل.

"وبعدين معاك يا اخويه، مالك؟"

الكهل صامت لا يبدو عليه أنه سمعها.

"حكايتك غريبة يا جدع.. ما تقولى وأنا أريّحك؟"

يرفع إليها وجهًا من حجر.

بعد أن تمضى، وهى تمصمص شفتيها وتحوقل، يتكلم هو مع نفسه.

"أصلها غريبة.. غريبة جداً، طب أعمل أنا ايه؟"

عندما يفيض به الكيل يرتفع صوته قليلاً، ويشكو لشخص وهمى، غير موجود.

"سقيانى المر يا ابن عمى!"

الكهل رجل أنيق يعتنى بهندامه كعاشق جديد، بنطلونه الأسود نظيف ومكوى وقميصه الزيتى كلاسيكى، وأكمامه مزررة. شاربه الأبيض كثيف الشعر، وأنفه كبير فوق شفتيه الممصوصتين، وما تبقى من شعر فى رأسه مصفف بعناية، ومفروق على جنب باحتشام.

تتحرك رقبته الطويلة ببطء يمينًا ويسارًا:

"ما كانش العشم.."

ويرشف الرشفة الأخيرة من كوب الشاى فتأتى عزيزة لترفع الكوب الفارغ. بعد ساعة ستحضر له قهوة سادة، بلا سكر، يشربها على مهل دون أن ينظر إلى ما يشربه. عيناه الواسعتان مشدودتان بخيوط لا مرئية للمنظر الثابت فى رأسه، وأمام عينيه، بيتنا.

عمى فى خروجه ودخوله البيت، يبتسم له، ويرفع يده بتحية، ويقول له "صباح الخير" أو "مساء الخير". لا يرفع الرجل يده رادًا التحية، فقط يظهر على وجهه ابتسامة خفيفة. أحيانًا، يتوقف عمى أمامه قليلاً يتأمله، يضرب كفيه إحداهما بالأخرى مشفقًا من حال الرجل "لا حول الله يا زب..اجمد يا راجل". عندما يراه جالسًا كشبح فى مكانه فى الظلمة، آخر الليل، وهو عائد من سهرته، يقف أمامه ويضحك فجأة، ويقول له ساخرًا "معلهش.. معلهش.. شد حيلك يا رفيق، تصبح على خير".

أبى يتجاهله تمامًا كأنه لا يراه، لا يُسمّعه واحدة من تحياته الغزيرة، المسكوبة من شفتيه فى كل شارع لكل واحد، لا يهبه سلامًا واحدًا من "سلامو عليكم" دائمة التردد على لسانه.

لساعات طويلة، كل يوم، يجلس هذا الكهل الغريب فى مكانه، طوال فصول العام الأربعة، فى البرد والحر، مدعيًا بيع المناديل الورقية دون أن يبيع منها شيئًا، دون أن يهتم بتجارته البائسة.

فى الهزيع الأخير من الليل يختفى من الشارع وجهه الأسمر المنحوت بقسوة، وأنفه البارز مثل عكاز عتيق. أحيانًا يقفز فى رأسى

وجه الرجل الغريب، أراه وأنا مغمض العينين، أرى جلد وجهه مشدودًا، يتناثر فوقه بقع داكنة صغيرة، وجه جامد ميت لا تنبعث فيه الحياة سوى في عينيه المتلهفتين، عيناه السوداوان الواسعتان اللتان وصل بهما روح وجوده.

توجسي منه لم يختف أبدًا، أنا أخافه!

مرات يحادثه فرغلي البقال من مكانه في دكانه على الناصية المقابلة، يبتسم في وجهه ويلوح له بيده "أهلا أهلا.. مش محتاج حاجة يا باشا؟"

الكهل الذي لا يعرف له أحد اسمًا لا يجيب.

أذن فرغلي مع الرجل تتلقف الكلام القليل المتباعد الذي يلفظه الرجل، كلمة واحدة، كلمتين، عبارة كل ساعة، كل ساعتين. وفرغلي لحوح يتحرش بالرجل ولا يتركه في حاله، يدحرج له تحية، يرسل إليه كوب شاي مع عزيزة، فخورًا بنفسه يصيح: "شاي الباشا يا عزيزة".

الرجل لا يمد يده لكوب الشاي الذي جاء سريعًا، يهز رقبته رافضًا، عزيزة تضع يديها في خصرها مختالة فرحانة في صاحبنا المختال بنفسه:

"معلهش يا فرغلي، أصله ما بيشربش على حساب حد".

بضحكة بلهاء يرد عليها فرغلي، ولا يتوقف عن إرسال الشاي المرفوض، والكهل لا يقبل شايه أبدًا.

متى ظهر هذا الرجل فى شارعنا، من أين جاء وإلى أين يمضى لقضاء ليلته، كيف يعيش وفى أى بيت ينام ؟

لا أحد يعرف، لا أحد يهتم سوى فرغلى.

فرغلى، المتبغدد بقمصانه الملونة دائمًا، المتباهى بأنه قاموس الموضة فى الجيزة، يشرح سر إشفاقه الغتيت على الرجل، يقول لك:

" بص.. دا راجل محترم، مافيش أوجه ولا أشيك منه فى المنطقة كلها ".

الكهل رجل وجيه ونزيه فعلاً. من يصدق أن وجيها مثله ظهر هنا، فجأة، ذات صباح ليبيع المناديل للمارة ! تجارته تساوى ثلاثة، أربعة جنيهات، وبائعها ينفق فى يومه على شايه وقهوته وسجائره الأجنبية نحو عشرين جنيها !

فرغلى جرى وراء سر الرجل شهورًا طويلة، وأذاع مؤخرًا معلوماته التى أقسم بصدقها لعزيزة. الرجل اسمه نبيل، أصله من الإسكندرية، وخرج "معاش مبكر" من شركة كبيرة، ولا مزيد.

الكهل الذى أسماه فرغلى البقال نبيلاً لم يؤكد، و لم ينف شيئًا، لا يتكلم مع أحد سوى أوهامه وأشخاصه غير المرئيين. ولا يعبأ بشىء سوى بيتنا الذى تتسمر به عيناه.

مرات، ألمح على وجهه شبح ابتسامه إذا اهتزت فى بيتنا

ستائر، إذا ظهر ضوء جديد فى البيت.

ما لى أنا به، دعه يجلس، دعه يهدهد روحه، يجتر أحزانه وأمنياته البعيدة البائسة.

وأنا أجتازه ملقيًا نظرة على قعدته المسكينة تذكرت نفسى ذات ليلة بعيدة، حين عدت لعفاف حاملاً باقة زهورى البائسة. ليلتها نامت عفاف معطية ظهرها لى وحطمت أنا غرفة النوم بما فيها.

يمكن أن يكون السيد نبيل هذا عاشقًا مسكينًا لامرأة تسكن بيتنا. من يعرف، يمكن، منذ زمن، ذات مرة منحته امرأة نظرة، ابتسمت له من إحدى بلكونات البيت الثلاث العتيقة، وتركته يعيش أوهام غرام صعب. فى هذا البيت تعيش نساء جميلات وشهيات، امرأة عمى، ابنتها منى، عفاف، امرأة جدى، وأمى. أو ربما يكون هذا العاشق هو جزارى أنا، القاتل المأجور الذى سيريق ذات يوم دمى على عتبة بابى. من يدرى؟ هذه الحياة صندوق أسود، أسود ومغلق مثل قبر، مقفول بقفل حديد كبير، ولا يستأهل عناء فتحه وإلا خرجت لنا الشياطين من قماقمها.

عيناه مازالتا مسمرتين على بيتنا، ولا يحس بى، لا يرانى وأنا أحدق فيه.

"ما كانش العشم..".

تركته يكلم نفسه ومضيت.

23

جزّارون

أخترق قلب الجيزة بلا وعى ولا شعور منى، أمشى فى الزحام كمن يخوض فى بريّة من الغـاب والهِـيش والنباتـات الشـيطانية والأشواك، تجتاز قدماى الأزقة والحوارى والشوارع بآلية، رجـلاى تعرفان طريقهما وحدهما، بألفة واعتياد السنوات الطويلة.

أصل إلى السوق. المعارك والمشاجرات اليومية هنا لا تنتهـى ولا تنفد، ما إن تُفض واحدة حتى تقوم أخرى، غالباً بعد وقت قصير من فض الأولى، تقريبًا فى نفس المكان ولأسباب معتادة معروفـة أو حديثة متجددة دومًا.

على رأس سوق الخضار دكان جزارة صغير، مساحته ثلاثـة أمتار فى ثلاثة أمتار، ليس عليه لافتة تحمل اسمه، تتعلـق بامتـداد سقفه العالى عشرات الخطاطيف الحديدية على ارتفاعـات مختلفـة، خاوية وفارغة الآن. من دقائق مضت كانت بقايـا الـذبائح كاملـة الأجساد معلقة فى الخطاطيف، وزحام الناس أمامها لا ينتهى.

من بعد صلاة الفجر حتى تدب الرجل فى السوق تنشط أيدى الجزارين العشرة العاملين بالدكان فى سلخ الجلد وتشفية اللحم عن العظم، فى التقطيع والتوضيب وإعداد اللحوم للبيع. يحمل الجزار منهم الذبيحة زنة ثلاثمائة كيلو جرامًا على ظهره، وغائباً تحتها، عميانى، يحرك منبت رقبتها لينغرس فى الخطاف، يعدلها بحركة من كتفيه وظهره أولاً، ثم ينسحب من تحتها ويسويها بيديه حتى تسكن حركتها، وهو يزفر مستريحًا دون أن يلهث أو يظهر على ملامح وجهه إجهاد أو تعب.

"المسألة عصب مش عضلات". كما يقول المعلم حسن الشافعى الكبير، مؤسس وصاحب الدكان الصغير، ولهذا فالجزّارون العاملون فى محله عصب، وليسوا من أصحاب الأجساد الضخمة أو العضلات المفتولة.

فى دكان الشافعى يعرضون لحم البهيمة الكامل عارياً وبدون تغطيتها بالشاش الأبيض؛ حتى يظهر لكل عابر وزبون صفاء لونها الأحمر الطازج، والأختام الرسمية الزرقاء الكثيرة التى تؤكد أن الذبح قانونى مطابق للمواصفات الفنية للحكومة، وشرعى وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، وتم تحت إشراف طبيب بيطرى متخصص فى مجزر ساقية مكى.

عادة آل الشافعى التباهى بجودة لحومهم وطزاجتها ومشيهم فى السليم. كل يوم يأتون لدكانهم بما لا يقل عن عشر ذبائح، ذبحت

بالمجزر قبيل الفجر، ويعلقونها في فرح وهيصة وضجة، فتتدلى في الخطاطيف محتلة كل فراغ الدكان، تسد عين الشمس، وتثير لعاب مرتادي السوق القديم، خاصة أولئك الذين لن يأتوا هنا سوى مرة واحدة في الأسبوع ؛ لشراء ماسورتيْن عظم بجنيهين، أو ربع كيلو من الكندوز بخمسة جنيهات، هذا متاح وممكن فقط في دكان الشافعي، وغير متصور على الإطلاق في محلات الجزارة الكبيرة بالجيزة التي تربو على الثلاثين، أو في سلسلة محلات جزارة جبر، مثلاً.

لحوم الشافعي مصنّفة ومفروزة جيدًا، كل جزء من لحم البهيمة يتم فصله بمهارة وروية ودقة، وله سعره وقيمته عند ذواقة اللحم ومحبيه القادرين، وعند الجماهير الغلبانه أيضًا، ولن يهدر شيء، أي جزء من لحم الذبيحة حتى العفش والعظم والشغت.

طابور طويل مرتجل ينشأ من عدم أمام الدكان حتى يكاد يقترب من ثلاجة المحل الكبير، المواجه لدكان الشافعي، أحد فروع سلسلة جزارة جبر. بتدافع ولكز وضرب بالأكواع والمناكب يتزاحم الرجال والنساء والصبية طيلة النهار، يزعقون ويتصايحون، ويتشاجرون كأنهم أمام فرن يبيع الرغيف بخمسة قروش، الظافرون منهم يأخذون طلبهم ملفوفًا في ورق بنيّ كورق شكاير الأسمنت، ويمضون مبتهجين، يحلمون بلذة المرق والفتة والطبيخ واللحم المسلوق، أما الخاسرون الذين وصلوا أمام القرمة متأخرين فسيعودون لبيوتهم حزانى كمن فقد عزيزًا. ما إن يحل العصر حتى

يكون الدكان ممسوحًا وفارغًا من كل شيء، نفدت آخر شغتة وعظمة فيه، عبرت الأفواه وذهبت فى طريقها إلى المعدات الهائلـــة لشـــعب الجيزة العظيم.

للدكان ميزتان أساسيتان هما سبب صيته المدوى وتكالب الناس عليه: طزاجة اللحم، والرخص النسبى لأسعاره. فالدكان الصـــغير لا يوجد به ثلاجة، رغم أطنان اللحم التى يعرضها يوميًا، فكلـــه يبـــاع، وعندها يشطب المحل ويغلق بابه. نفاد اللحم وعدم وجود ثلاجة يعنى أن لا لحم بائت فى هذا الدكان، وهذه أفضل وسيلة ممكنة للتأكد مـــن طزاجة اللحم الذى ستتلقفه المعدة الخاوية بشوق، حتى وإن لم يحـــب الآكل أن يتوقف ما يلتهمه طويلاً على لسانه، فالتـــذوق رفاهيـــة لا يمارسها أغلب سكان الجيزة القديمة. وأسعار الشافعى رخيصة نسبيًا، خاصة ثمن الكيلو الكندوز، ولن يوجد مثله أبدًا لدى أى جزار آخـــر، وكيلو البتلو والضانى تقل أسعاره بخمسة جنيهات عن السعر المعلق فى واجهة محل آل جبر. وهنا مربط الفـــرس، والســـبب الرئيســـى للمعارك المتوالية التى خاضـــها آل الشـــافعى المبـــاركون بمحبـــة الجماهير للحمهم وسعره الرخيص، وآل جبر أصحاب المحل الكبيـــر بثلاجاته الزجاجية العملاقة التى تحتل مساحة أكبر من مساحة المحل نفسه، فبقيت بعضها فى الشارع، خارج المحل.

مشهد عادى جدًا أن يمر الواحد ذات عصر، بالتحديد فى نحـــو الرابعة حيث يكون آل الشافعى على وشك إغلاق باب الـــدكان وقـــد نفدت آخر عظمة لديهم، وفى الجانب الآخر محل آل جبر، نادر البيع

سوى للخاصة وخاصة الخاصة، يبدأ جر الشَّكَل بعبارات كهذه: "لحم الحمير خِلص".

"شطب بدرى بدرى".

"حمير بتدبح حمير، تبيع لحمير!"

صبيان آل جبر يستخدمون هذه العبارات كشفرة سرّية بينهم ؛ لكى ينبهوا غافلهم أنهم بصدد بدء هجوم على الشافعية.

المعلم حسن الشافعى نادرًا ما يأتى لدكانه، فهو مشغول بإتمام صفقات شراء المواشى من الأقاليم، أما أمر المحل والبيع والشراء فمنوط بفؤاد ابنه الأكبر، وهو شاب لم يبلغ الثلاثين بعد، لكنه رزين رزانة شيخ فى السبعين.

"قول للرايح وقول للجاى لحم الشافعى لحم حمير".

تتصاعد أهازيج صبيان آل جبر بعد إشارة من يد جمال بيه جبر، الواقف أمام محله فى بدلته الباريسية الأنيقة، والذى غطت رائحته الفوّاحة على رائحة اللحم والدهون والشحوم، بينما الأستاذ فؤاد الشافعى يمسك بيد " شلضم " أكبر صبيانه وأغلظهم وأضخمهم محاولاً تهدئة غضبه، يهمس فى أذنه "فيلم كل يوم، عادى"، ثم يتوجه بالحديث إلى صبيانه:

"قفل يا ابنى منك له.. جبرنا الحمد لله".

معنى هذه العبارة المشفَّرة هو "ألا يخرج أحدكم من الدكان بلا سلاح، أو فرداً".

على الجانب الآخر يكون جمال بيه قد أشعل غليونه وبدأ فى نفث دخان غزير من منخريه الأنيقين. يخرج " عُكش " أضأل صبيان آل جبر جسمًا وشأنًا، وبيده سكين طويلة تكاد تكون أطول من ذراعه، ويهتف فى وسط المسافة بين الدكانين: " جزارين الحمير ما فيهمش راجل.. تلاميذ وسخين، متن...."

كالعادة سيخرج الولد " كرشة " سريع الغضب الشجاع، والذى وهبته أمه لسيدى رمضان فخيب رجاءها، وشق طريقه فى الحياة بسكينه، يخرج هو بالذات مدافعًا عن الشرف الشافعى ؛ لأنه مثل عكش، قصير وضئيل الجسد، وفى حجم خصمه إلى حد ما، يعنى نفس الوزن تقريبًا، فليس من الأصول فى شىء أن يخرج لعكش، مثلاً، "شلضم" العنتيل الأطول كثيرًا منه.

وتبدأ المنازلة التى يتابعها المعلمان العصريان، كل منهما من موقعه الآمن أمام دكانه، يتفرجان بمتعة وشغف وكأنهما يتابعان مباراة مصارعة على شاشة القناة الثانية بالتليفزيون المصرى. الأصل فى النزال الحالى أن توجع دون أن تجرح أو تريق دمًا، هذا هو قانون القتال الأساسى الذى يحاول عكش وكرشة بقدر الإمكان تطبيقه بصرامة.

فى وسط المسافة الفاصلة بين الدكانين، يصل كرشة بينما

عكش يواصل شتائمه الوسخة، ينظر كل منهما فـــى عـــين الآخــر، كلاهما متحفزان، شاهران سكينين طويلتين فـــى الهــواء، رابطــان وسطيهما بحزامين جلديين سميكين فوق الجلباب الأبــيض الملــوث بالدم، وفى قدم كل منهما بوت بلاستيك طويل مغروس به عدد مــن السواطير والخناصر. كرشة المنذور لسيدى رمضان لم يصب مــن قبل فى معركته مع عكش أبدًا، بخلاف بعض الخرابيش السطحية فى رقبته، وعلى وجهه المكرمش قبــل الأوان كالكرشــة، أمــا شــفتاه الغليظتان المشقوقتان من النصف فليست سكين عكش مسئولة عنهــا، إنها خلقة ربنا.

المصارعان متواجهان والمسافة بينهمــا متــران وهــا همــا يجأران، ويتناوبان تهديد كل منهما الآخر:

"هقطعك حتت".

"الكلاب عندها عشوة عضم الليلة يا..أمك".

"يا ابن المت.... هشرّح ديك أمك".

"....................."

"......................."

تستمر هذه المناطحة الشفوية لنحو نصف ساعة، يتنافسان فيها فى عرض قاموس شائع لأوسخ وأبذأ الشتائم المتداولة فــى الجيــزة،

ويكون الجمهور المتزايد المتحلق حولهما قد ظهر فيه المخبرون، فيحمى الوطيس قليلاً، يدفع كل منهما الآخر إلى الخلف بلكزة في الصدر كلاعبي جودو، يتشابكان بالأكتاف والسكينان مرفوعتان في الهواء، تهويشة بضربة روسية من عكش يرد عليها كرشة بالتهديد برفسة تحت الحزام، يتباعدان ويتقاربان، يتماسكان وينفصلان، وحولهما الجمهور مستغرق فى لذة الفرجة. لكل من عكش وكرشة معجبوه فلا عجب أن ترتفع أصوات الجماهير " إديله يا كرشة "، " ربيه يا عكش"، "كرشة.. كرشة"، "افرمه يا عكش".

الأستاذ فؤاد يتعكر مزاجه سريعًا ويمل الفرجة مبكرًا فيغادر محله المغلق، وحوله صبيانه المسلحون بالسكاكين والسواطير في أبهة محافظ الجيزة أو رجل الأعمال الشهير بشارع المحطة بينما يكون جمال بيه مازال يتابع العراك، وقد أدرك غايته من تعكير مزاج غريمه، وإنهاء يوم عمله بسب لحمه وتجريسه، ولا يزال المتصارعان يدوران ويلفان كلاعبي مصارعة رومانية، كل منهما يهوش الآخر، وهو يرقص بسكينه. كرشة ضليع فى التصفير بفمه، يصفر مثل عربجي يرشد حماره، وهذا ما يجعل غضب عكش يصل لمنتهاه خاصة وقد أدرك أن كرشة يوصل إليه رسالة مفادها: "خلاص كفاية كده.. المعلمين زهقوا يا روح أمك".

الغشيم إذا وقع بصره على هذين الضئيلين في الجلبابين الملطخين بالدماء، وأحذيتهم البيضاء المدكوك بها خناصر وسكاكين، سيظن أنه سيشهد بعينيه، اللتين ستأكلهما الديدان، مصرع أحدهما، إن

لم يكن الاثنين معًا، وأنها ستكبر وسيتدخل صبية الشافعية وآل جبر، وتكون موقعة تُراق فيها الكثير من الدماء، لكنه لو نظر عــن يمينــه وشماله لرأى أن معظم جزّارى السوق واقفون هنا وهنــاك، ينهــون أعمالهم المعتادة بنفس الهدوء، والرزانة، ويتبــادلون الحــديث مــع مخبرى السوق العتيدين، ويدخنون ويتبادلون النكت.

فى النهاية يرفع المتصارعان أسلحتهما لفوق، ويندفعان الواحد فى حضن الآخر "هقتلك، هخلص عليك، هشرح جتتك". ويهبطان معًا إلى الأرض، وسكيناهما مرفوعتان لأعلى، ولم يخدش أحدهما الآخر. فى هذه اللحظة يتقدم مسعود المخبر منهما، يلطش عكش أولاً علــى وجهه ؛ لأنه ابن حرام يجيب لمعلمه الأذية والكلام، ثم يلطش كرشة المسطول "بتاع البانجو.. اللى مالوش فى أكل العيش النضيف".

يقوم المتصارعان، وكل منهما يفتعل الغضب، يضع سكينه فى حزام خصره، ويمضى من وسط الشارع، أرض النزال، باعتداد قائد حربى مزق أعداءه. كرشة يتجه نحو لوزة السمّاكة ليدخن ســيجارة قريبًا من إليتها العظيمة، وعكش لداخل محل آل جبر ليواصل تشفية اللحم الفاخر الراكد، أما مسعود فسيتجه لجمال بيه ليأخذ "حق الشاى" ومكافأة على تدخله فى الوقت المناسب، وإلا كانت مجزرة فى السوق لا يعلم سوى الله والحكومة كيف كانت ستنتهى. هكذا يردد المخبــر مسعود، وهو يدخل دكان آل جبر. جمال بيه، بطرف إصبعيه، يضع فى يد المخبر عشرة جنيهات، ويومىء لعكش الذى كان قد أعد لفــة من العظم والشغت. مسعود كديك البرابر يأخذ اللفة ويضــعها علــى

صدره كصحبة زهور، ويمضى مختالاً فى جلبابه الأسود وطاقيته البنية، والعصا الخيزران التقليدية مرفوعة فى يده.

كمتفرج قديم على هذا المشهد اليومى المعتاد، لم يكن يعنى لى أكثر من تسلية ومتعة. أما الآن فقد صار يعنى لى الرعب، بروفة قتل. فجمال هو الشقيق الأكبر لأنور جبر.

أنظر فى وجوه كل الجزارين، أبحث فيها عن إشارة، رمز، معنى أو علامة. أبحث عن جزارى، ذلك الذى سيقتلنى يوماً ما. هذا الذى ليس له هيئة عكش أو كرشة أو حتى أضخمهم وأشرسهم. هؤلاء جزارون عاديون، مهنتهم ذبح الدواب، تقطيع اللحوم التى ستذهب إلى البطون، لكن من منهم سيتحول لجزار آدميين، ويقطع جسدًا سيذهب لباطن الأرض؟

جزارى المجرم عتيد فى إجرامه. إجرامه فى اختفائه، فى احتجابه، فى غيابه. لو ظهر لى مرة، مرة واحدة، لو فتح فمه، وأظهر أنيابه لصارعته لآخر رمق فىّ.

24

فنتـازيـو

محمود حميده وليلى علوى وجهان ضخمان مفزوعان مرعوبان يعلوهما الأوساخ والأقذار فى طلتهما أعلى سينما الفنتازيو، الأفـيش الرئيسى مربع كبير جربان، وألوانه كالجير فـوق الواجهـة العليـا لمدخل السينما بشارع الصناديلى، وأعلى الحوائط الصفراء مغطـى بأفيشات أخرى لفيلم "بحب السيما"، الوجهان المفزوعـان يتكـرران، ويتكاثران إلى عدد لا يحصى من الوجوه المرعوبة فـى الأفيشـات الأصغر، أفيشات فى حجم البوستر بعضها ملصـق فـوق بعـض، وموزّعة على كل حوائط المبنى العتيق الكـالح، الحـوائط قـذرة، ضربتها الرطوبة، وناشعة بالماء والسواد فى أساساتها.

على جانبى مدخل السينما كشك سجائر وعربة سمين وفرشـة طرح. الطرح ملوّنة ومتنوعة الأشكال من طراز الحجاب الشـرعى العصرى الشائع بشوارع وحارات الجيزة، بائعها كهـل صـعيدى لا تفلت بنت أو امرأة جميلة من معاكساته ومغازلاته الفاضحة. رجـل عجوز ظريف، جلد وجهه مبقع ومحروق من الشمس الهابطة طيلـة

اليوم فوق رأسه، وتلفيعته السوداء طويلة ملفوفة حول طاقية بيضاء تزم دماغه. يمص لسانه، ويردد بوله وريالته متدفقة من فمه الواسع كلما مرت عجيزة مكتنزة "وَتَكَه.. وتكه، ربنا يزيدك". يكرر العبارة مرات عديدة، وهو يتابع العجيزة بتحديقة طويلة حتى تغيب صاحبتها عن نظره فى الزحام. ولا يغازل النحيفات والعجائز والقبيحات.

فيلم "بحب السيما" رفع من معظم دور العرض بعد معركة شهيرة بين مبدعى الفيلم والكنيسة والرقابة، لكنه لم يرفع أبدًا من سينمات الدرجة الثالثة، سيظل يعرض للأبد. نشوى رأت الفيلم فى سينما فاتن حمامة بالمنيل، وأنا لم أدخل الفنتازيو منذ كنت فى الإعدادية، آخر مرة دخلتها شاهدنا، أنا وحارث، ثلاثة أفلام: "المحفظة معايه" و"الرأس الكبيرة"، ونسيت اسم الفيلم الثالث.

قطعت تذكرة بخمسة جنيهات تمنحنى حق الفرجة على ثلاثة أفلام متتابعة، والبقاء داخل السينما من الساعة السادسة وحتى الثانية عشرة. قاطع التذاكر العجوز نظر إلىّ نظرة خاصة غامضة كأنه يجدد تواطؤًا قديمًا معتادًا بيننا، ضغط على أصابع يدى اليمنى، وهو يناولنى التذكرة بابتسامة سمجة، وأشار إلى ستارة سوداء قذرة تحجب صالة العرض. ما إن اجتزت الستارة وأنا أبعدها عن رأسى بقرف، حتى داهمتنى على الفور رائحة بول ثقيلة وصنان حادة. كأننى داخل إلى مبولة عمومية ضخمة عبرت إلى الصالة المظلمة.

شاشة العرض تبث تيترات الفيلم، من النظرة الأولى إليها

وجدت الصورة مغبشة وشديدة الرداءة، وخلفي يطن صوت ماكينة العرض في مخبئها، الصوت يزن ويزن ككونشرتو ضفادع متصل. حاولت رؤية ما تحت قدميّ لأجلس، رفعت ما توهمت أنه قاعدة أقرب كرسي لي وجلست، وقعت بمؤخرتي وسط هيكل المقعد خالي القاعدة، وارتطمت مؤخرتي بالأرض الأسمنتية الصلبة، توجعت وحاولت القيام بسرعة، وأنا مشغول بمنظري وبريستيجي الضائع أكثر من ألم مؤخرتي. ارتفعت قهقهات من الخلف شامتة بي وفرحة بالمشهد الكوميدي. تحركت عدة خطوات، وجلست بحذر على أول كرسي في الطرف الآخر، وبدأت أتفرج على الفيلم، وأنا أريد أن أستغرق وأغيب تمامًا فيه.

سمعت صوتًا مايصًا وعاليًا خلفي، فالتفت للوراء.

شاب واقف في منتصف الصف الأخير، ينادي على عمر الجالس في أول صف قدام:

"عمر.. عمر.. يالا بقى".

عمر لم يرد.

"يوهه.. يوهه.. يالا يا لَه" احتج بدلع هازًا جسده الرشيق.

التفت عمر للخلف، واكتفى بإشارة خلفية من كف يده وأصابعه معناها: "استنى.. استنى.. كمان شوية".

بدأت أحس بكائنات صغيرة دخلت من رجل البنطلون تزحف على ساقىّ، ضربت بكلتا يدىّ بنطلونى وساقىّ بغل متأففًا.

كان المتفرجون مشغولين بأشياء أخرى أهم كثيرًا من الفيلم. لم أستطع سماع الحوار أو متابعة أحداث الفيلم. المشاهد والصور تتسلسل وتتوالى كعفاريت تسبح فى فضاء رمادى، ومع هذا أصررت على الصمود والاستمتاع بالفيلم شبه الممنوع!

"تسمح.. تسمح يا كابتن".

صوته شديد الرقة والعذوبة.

التفت إليه. كان واقفاً عن يمينى مستندًا بيديه على مسند مقعدى. يؤرجح رجله اليمنى فى دلال، سبل عينيه وهو يتطلع لوجهى.

"نعم ؟"

"عايز أعدى".

"ما الدنيا واسعة، ما تعدى من هناك يا حماده".

ببساطة، أبعد رجلى القافلة طريقه بيده "ما اسميش حماده يا عمرو.. اسمى ميمى".

"طب عدى من أى حتة تانية يا ميمى".

"الله.. يا أخى عايز أعدى من هنا.. مالك أنت؟!"

مرر عجيزته الضخمة على حجرى ببطء، وهو يعبرنى باستنطاع وتأوه خفيف.

ضربات على صينية شاى بيد عامل البوفيه ترتفع كموسيقى تصويرية موازية لموسيقى الفيلم، رمقته بغضب. شخص نحيف ممصوص يضع فوق أذنه قلمًا رصاصًا، يضرب بفتاحة البيبسى على صينية، وبيده الأخرى يجر صندوق مثلجات، يتجه مباشرة نحو الثنائيات، ويتجاهل تمامًا المفردين النادرين من أمثالى. يضع زجاجة البيبسى بالعافية فى يد الزبون فاشخًا فمه الواسع بابتسامة واسعة.

فى معظم زوايا الصفوف يجلس اثنان متحاضنان وملتصقان بجسديهما، فوقهما سحابة سجائرهما، وابتسامتهما الحلوة تجعل المشهد رومانسيًا للغاية. الفيلم يواصل تقدمه للأمام وبث الصور والأصوات، لكننى لا أرى أو أسمع أو أفهم منه شيئاً.

بدأ ميمى الجالس على بعد خمسة مقاعد منى يشاغلنى، يحرك شفتيه ماصًا الهواء وناظرًا إلى حجرى، ابتسمت لنفسى، وخجلت، وتمسكت بمتابعة الفيلم متجاهلاً حركات وألعاب ميمى.

مع دخول الفيلم نصفه الثانى، على ما أظن، بدأ الشباب الواقفون عند مدخل دورة المياه يتزايدون وينتظمون فى طابور أطول قليلاً مما كان عليه الحال فى بداية الفيلم. كانت الجلاليب البيضاء

الأنيقة تقف مع القمصان اللامعة والبنطلونات الجينز المحزقة، وطواقى الفلاحين البنية تتجاور مع الكوفيات الصعيدية والكابات الماركات. معظم الرواد يقعون فى الحيز الزمنى الحائر بين العشرين والأربعين، متأنقون جدًا، وفى غاية النظافة كأنهم أتوا لحضور حفلة عرس أو عرض بالية بدار الأوبرا المصرية. أجراس الموبايلات لا تنقطع، والأحاديث تدور بينهم بهمس رقيق، بينما تلعب حركة الأجساد والأيدى والعيون الدور الأبرز فى التواصل والاتفاق على الخطوة المقبلة، والتوفيق بين رأسين فى الحلال.

ميمى وضع يده فوق حجره، وداعب انتفاخًا قصيرًا رفع قماش بنطلونه الخفيف قليلاً، وراحت أصابع يده القصيرة الناعمة تعبث هناك. فى هيام كان ينظر إلىّ بعينين خضراوين جميلتين، وكانت ليلى علوى حزينة جدًا تبكى لموت محمود حميده، لم أفهم لماذا مات مبكراً هكذا مع أن الفيلم لم ينته بعد.

مر من أمامى زوجان فى حالة انسجام، فى طريقهما إلى مركز الشاشة الفضية الكبيرة، لزمن احتلا مكان ليلى علوى ورأس محمود حميده فى حجرها، بدلاً من دموعها الغزيرة التى تتساقط فوق وجه الميت، كان العاشقان يمسك كل منهما بيد الآخر وهما يواجهان الجمهور، فى نوبة عشق بدا مباغتًا لهما أدار كل منهما الآخر ليواجهه وتحاضنا، كانا شابين متماثلين فى الطول تقريبًا، أحدهما يرتدى جلبابًا أبيض، والآخر فى قميص أخضر، وبنطلون ضيق جدًا، وسلسلة ذهبية تلمع على صدره العارى. مرتدى الجلباب مال على

صاحبه، احتواه فى صدره، وضع يده حول رقبته يداعب قفاه وقرب شفتيه منه، وناوله قبلة فرنسية عميقة غاب فيها الاثنان طـويلاً. ران صمت طويل فى القاعة التى تابعت المشهد بتركيز ومحبـة. كانـت القبلة متقنة، لذيذة وبطيئة يصاحبها لمسات متبادلـة مـن العاشـقين للظهر والأرداف والفخذين، عندما فارقت الشفاه الشفاه تعـالى فـى الصالة تصفيق حماسى ممتد إعجابًا وتشجيعًا. العاشقان ابتسـما فـى خجل وافترقا متشابكى الأيدى، ومشيا نحـو دورة الميـاه فـى دلال نجمى سينما، أديا دوريهما بشكل أفضل كثيـرًا مـن ليلـى علـوى ومحمود حميده. وكان ميمى قد عبث ببنطلونه، وأخرج شيئًا صغيرًا، وهو يشير إلىّ برقبته نحو دورة المياه فى نفاد صبر، فكشـرت فـى وجهه غاضبًا كأسد تلقى شتيمة وسخة.

الرائحة النتنة قلبت معدتى، للحظات شعرت بالغثيان، قاومـت الاستفراغ الذى بدا وشيكًا، قمت واقفًا، وهرولت نحو الحمام محنيًـا للأمام، واضعًا يدًا على بطنى والأخرى فوق فمى وميمى ينظر إلىّ، يضحك بسرسعة شامتًا بى، يضرب كفه بجبهته ويرفع قدميـه فـى الهواء، ويهز جسده الرشيق فى مقعده مبسوطًا آخـر انبسـاط. فـى مدخل دورة المياه كان كل زوج ينتظر الدخول يسلى وقتـه ويقتـل انتظاره بقبلات خفيفة ولمسات ناعمة. كـانوا نحـو خمسـة أزواج مختالين بأجسادهم وعشقهم. لما رأونى أضع يدى على فمي أفسـحوا لى مكانًا للعبور، عبرتهم لأجد نفسى أمام كنيف وحيد مغلق، سمعت تأوهات وآهات وصرخات لذة تأتى من الداخل، أشحت بوجهى فـى

الجهة الأخرى من الردهة، كان أحدهم قد انبطح أرضًا، وآخر خلفه يتحرك بتروٍّ، وعلى مهل، للحظة التقت عيناى بالمنبطح، كان يعانى لذة لا تحتمل.

خرجت من الباب الخلفى للسينما دون أن أفرغ أحشائى. أحس أن الرائحة النفّاذة للبول والخراء قد التصقت بملابسى، بجلدى إلى الأبد.

25

سي دي

وأنا ماشٍ فى شارع سعد زغلول اتصلت بسيمون على تليفونها المحمول، قلت لها إننى بحاجة إليها، وإننى أريد أن أراهـا. كـان صوتها مُرَحبًا وفرحًا، قالت إنه لم يمض سوى ثلاثة أيام منـذ كنـا معًا، فهل اشتقت إليها بسرعة هكذا؟ وقالت بدلال ضاحكة: "وقعـت فى غرامى يا بيبى؟". قلت ما تحسبيه احسبيه وإننى، فعـلاً وبجـد، أحتاج إلى رؤيتها بعد نصف ساعة إن أمكن، ودعوتها لغرفة حارث. قالت إنها فى البيت، فى المعادى مستلقية فى سريرها بكسـل لذيـذ، ومشغولة بطرقعة أصابعها ولكنها لأجل خاطرى ستقوم تأخذ حمامًـا سريعًا، وترتدى ملابسها، ومسافة السكة يا بيبى. وقالت إنها ستصـل فى خلال ساعة على الأكثر، وإن علىّ أن أنتظرها إن هى تـأخرت قليلاً، وإنها لم تنس وتعرف جيدًا الطريق إلى الغرفة الأنيقة، صومعة النسوان العرايا يا زِير النسا.

دهشت لأنها لم تتمنع، ولم تتردد، ووافقت بمجرد كلمتين.

ليلة الأحد، حارث فى بار تحتمس يعمل منذ ساعات، وسـيظل

يعمل هناك حتى يغادر آخر زبون، ويغلق البار بابه مع أذان الفجر.

في منتصف الشارع تقريبًا توقفت أتحسس جيب بنطلوني عدة مرات؛ لأتأكد من وجود مفتاح غرفة حارث معي. صعدت السلالم الحجرية شبه المتهدمة، فتحت الباب ودخلت. المصباح الأبيض مضاء، نسي حارث إطفاءه، والشباكان مفتوحان على مصراعيهما، الغرفة ليست في نظافتها وأناقتها المعتادة، تراب كثير على كليم الأرضية، على المخدات والكتب، على ترابيزة الكمبيوتر وفوق صورة لورين تحت الزجاج، الشلت والمخدات ملقاة في فوضى على الكتب وبجوار الجدران، على المنضدة بقايا طعام بائت وحامض في أطباق ورقية، صحف ومجلات مرمية هنا وهناك، كنبة حارث التي يستخدمها للنوم خارجة من موضعها ومكدس فوقها ملابس وسخة وملاءات وبطانيات، المنافض الزجاجية ممتلئة لآخرها يفيض منها الرماد وأعقاب السجائر، وبعضها ملقى على الكليم وفي الأركان، زجاجات بيرة ونبيذ فارغة ملقاة بلا اكتراث على الكتب والكليم، وفي كل ركن.. حارث في مزاج سيء جدًا.

لم أجد في نفسي رغبة في تنظيف الحجرة، مسح الأتربة وتحجيم الفوضى. أرجعت الكنبة السرير لموضعها، نفضت التراب عنها بمجلة وسويتها، وأغلقت الشباكين، وجلست أدخن. أتأمل فتيات حارث العاريات المعلقات على الحيطان، وأفكر أن النساء هن سبب مصيبتي وبلواي الأساسي، وأنني يجب أن أكف عن التعلق بهن، وأنني يجب ألاّ أريد نشوى، وأن أنساها للأبد.

كنت سارحًا ومشغولاً بأفكارى، فلم أسمع صوت وقع أقـدامها وهى تصعد درجات السلم. رنّات جرس الباب العصـفورة المتتاليـة نبهتنى، وقطعت استغراقى وتأملاتى. قمت من مكانى، ممنيا نفسـى بمضاجعة سعيدة، فتحت لها الباب وابتسمت فى وجهها. قبلّتها علـى خديها وقلت لها بمرح، وأنا أحدق فيها، من مقدمة شعرها المغطـى بالطرحة الفاخرة الملونة حتى حذائها عالى الكعب "إيه الحلاوة دى.. إيه الجمال ده كله". فقبلتْ خدىّ وقالت "مِرسيه". تمعنت فى وجهـى مبتسمة للحظات، ثم قالت برقة:

"شكلك مرهق شوية".

"أنا !!.. أبدًا، أنا زى الفل".

"يارب دايمًا". وقعدت على الكنبة واضعة رجلها اليمنى فـوق اليسرى، فانحسرت جيبتها السـوداء، وارتفعـت لمنتصـف سـاقها البيضاء. جلستُ إلى جوارها فرحًا " أخبارك إيه يا قمر؟"

"لا جديد يا بيبى".

نظرت حولها إلى التراب والفوضى وابتسمت، وقالت متعاطفة: "يا عينى على حياة العزّاب".

وطوحت يدها أمام وجهى.

قلت: "أنا متجوز".

رن صوتها المغناج "صحيح ؟!.. بجد ؟!"

"آه متجوز، ومن زمان كمان.. إيه الغريب؟"

"أبدًا.. ما فيش حاجة غريبة فى الدنيا دى يا بيبى..أنا ما عدتش بستغرب حاجة خالص.. من زمان".

"أنا لسه بستغرب.. بندهش".

"طبعًا، ما أنت لسه عيّل.. وغلبان يا بيبى".

قالتها ساخرة ومستهترة، فوقفت آليًا دون إرادتى.

"غلبان، غلبان ؟! انتى تعرفى عنى إيه عشان.."

قاطعتنى وهى تنتر أصابع يدها اليمنى فى اتجاه صدرى "ششش.. واضح جدًا من غير ما أعرف أكتر من اللى اعرفه.. وقفت ليه؟! اقعد".

تمالكت نفسى وجلست إلى جوارها زافرًا بقرف. ببطء وحركات رشيقة مدت يديها لقدميها، وخلعت حذاءها والجوارب وهى تبتسم لى بمكر وشقاوة. أخذت سيجارة من علبة سجائرى وضعتها بين شفتيها الحمراوين وهزتها، فأشعلتها لها وأنا أحدق فيها. بدا وجهها مرهقًا قليلاً، ومتعبًا. وجهها جميل بلا مكياج وبرىء كمراهقة. عندما التقت عيوننا خجلت قليلاً، ورجعت بظهرها لمسند الكنبة هاربة منى.

"ما تلعبش معايه كده".

"ليه ؟ ما بتحبيش اللعب؟"

"بحبه جدًا.. بحب كل أنواع اللعب..بس.."

"إيه ؟"

"ولا حاجة، ما تبرقش فيّ بالشكل ده وخلاص".

خفت من زعلها، حاولت تغيير الموضوع.

"آآ.. معلهش.. ما فيش حاجة تتاكل أو تتشرب."

نفثت دخانًا كثيفًا.

"مش مهم.. أكلت فى البيت، وما بشربش بدرى كده."

سيرة الأكل والشرب أثارتنى.

"طب إيه ؟"

هزت رأسها باستعباط "إيه؟ إيه ؟!"

مترددًا وخجلاً قليلاً قلت "ما.. ما تيلا.."

سكتت برهة وعيناها تلمعان. بدا لى أنه دار فى رأسها شىء خبيث. فجأة رفعت ضحكة رنانة طويلة ووقفت مستعرضة جسدها

أمام وجهى. بسرعة الصوت والضـوء خلعـت بلوزتهـا الحمـراء وبنطلونها وقميص نوم أبيض قصير وكيلوت أحمر، ووضعت يديها فى خصرها عارية تمامًا، وقالت بصوت محايد، بلا مبالاة أخزتنـى "يالا.. يالا يا بيبى".

دش ماء بارد، كرات ثلج صغيرة تساقطت بغزارة فوق رأسى مرة واحدة، فتجمدت فى مكـانى شـاعرًا بقشـعريرة تسـرى فـى أوصالى، رجعت بظهرى للمسند خلفى، أغمضت عينـىّ ووضـعت يدىّ فوق وجهى، حبست أنفاسى وسكنت كتمثال شمع.

دام الصمت بيننا دقائق طويلة. بعدها سمعت ضـحكتها، مـرة أخرى تقهقه بمجون وبرنين أعلى من الأول. بعـد أن انتهـت مـن ضحكها الطويل جلست إلى جوارى، زحزحت جسدها حتى التصقت بفخذى، ووضعت يدها على شعرى، فتحت عينىّ، فوجدتها تنظر إلىّ نظرة غريبة "مش بقولك.. انت غلبان".

مرة أخرى يسقط فوق رأسى دش ماء أثلج من الأول.

وضعت يدها اليمنى فوق قفاى وشدت رأسى تجاه ثديها "انـت محتاج تترضّع مش تعمل واحد".

سحبت رأسى منها بسرعة، وأنا أنفجر فى ضحكة مدوية حتى اهتز جسمى كله. قلت ودموع الضـحك تكـاد تطفـر مـن عينـى "و..هِهِه.. وعرفتى ازاى؟!"

"كلكم عيال يا بيبى.. وانت بالذات أعيل عيل شفته."

حط علىّ وجوم مباغت فقعدت ساكتًا، أهــز قــدمىّ، وأنفــث الدخان، كدت أنسى وجودها وسرحت فى أفكــارى، صــمتت هــى الأخرى لوقت، ثم قامت لمت ملابسها وارتدتها وجلست إلى جوارى، وقالت برقة "انت زعلان منى ؟!"

"أبدًا.. بس يظهر.. يظهر إنى تعبان شوية."

مالت فوقى وأخذت تعرينى ببطء ورقة شديدة. لا أعرف لمــاذا حاولت سيمون، حاولت بصبر طويل وتصميم مــرات متعــددة بــلا جدوى، وحاولت أنا أيضًا، بتصميم وإصرار، حتى أنهكــتُ ومللــت المحاولة، فالميت لم يستيقظ ولن يقوم أبدًا فى ليلته السوداء. عجــزت تمامًا، ولم أنزعج كثيرًا. ما يحدث لى لا يحزننى مطلقًا، أنا ســأقتل بعد أيام قليلة على أقصى تقدير.

سيمون لم تبال أيضًا، وعادت للسخرية المنفلتة، قالت ضاحكة:

"وماله.. سيبك انت.. الصداقة حلوة برضو".

وبدأت فى مد حبال الصداقة إلى آخرها.

"الجنس مش كل حاجة".

وقهقهت قاصدة عكس عبارتها تمامًا، فاغتظت.

انتابتنى مشاعر عدوانية تجاهها، استهتارها صفيق وممتد.

"آه، الجنس مش كل حاجة.. بس انتِ يا حرام مجبـرة عليـه، قدرك ومكتوبك.. يا حرام، ربنا يتوب عليكِ !"

مصمصت شفتيها مطأطأة بموسيقية:

"طق طق..أنا بحب الجنس جدًا، وحيـاة البروسـتيتيوت فـى نظرى جذّابة موت.. تجنن لدرجة إنى أتنازل وأعاشر الغلابـة مـن أمثالك!"

هذه المرة قهقهت أنا.

"تانى.. غلبان ؟"

"طبعا بالنسبة لى انت غلبان خالص.. يا ابنى أنا نجمة، نجمـة كبيرة.. بس متواضعة".

"نعم ؟!"

"مش مصدقنى ؟! انت ما بتشوفش سيديهات بورنو والا إيه؟"

"لا والله، نادر.. نادر جدًا".

"تبقى ما تعرفش يا بيبى".

"مش واخد بالى".

"شفت سى دى عمرو؟"

هنا برق فى رأسى خاطر أضاء ظلام دماغى، حدقت فى وجهها طويلاً، صامتًا، لا يمكن، غير معقول!

بهدوء شديد أمرتنى "ما تبرقش فيه كده".

كان هذا السى دى لرجل من الكبار، الكبار جدًا، تم تسريبه لسوق البورنو للتشهير به، القضاء تمامًا عليه وإذلاله، وصار فى أيام قليلة أشهر فيلم بورنو محلى.

ترددت قليلاً، وقلت: "آه، بس دا قِدم خلاص.. دا الناس نسيته تقريبًا.. فاكره، ما له؟"

"أنا بطلته يا أستاذ!"

"نعم؟!"

"آه.. أنا".

ماذا حدث ليجعل محظية الكبار تهبط من عليائها، وتنزل للشارع بنفسها، تمرمط نفسها فى الميادين والشوارع والشقق والجحور والكهوف، وتُنكح من "اللى يسوى واللى ما يسواش". على الأقل كان يمكنها أن تنتظم فى المؤسسة المحترمة لنجمات البورنو

المحلى من أمثالها، المؤسسة التقليدية شديدة النظـام. مؤسسـة تبـدأ بالمعرّصة العجوز أو القوّاد الرقيق الذى يصطاد الزبائن من البارات ونوادى الليل، من الديسكوتيك والفنادق وغيرها، وتمر عبر البلطجى الذى يرهب الجميع، يفرض سطوته، ويحمى المرأة العاملة ويضـفى عليها برستيجًا خاصًا. المؤسسة النشيطة تنتهى بالأنثى معززة مكرمة عارية، ممددة فوق السرير فى عشها المحـروس جيـدًا. لا يهـبط للشارع سوى المومسات العجائز، القبيحات، المطرودات حديثًا مـن بيوت الهوى، والجديدات فى الكار والهـواة فقـط، أمـا المحترفـة الجميلة، البرنسيسة، فتقبع فى البيت الآمن وسط حرسها وحاشـيتها، مستحضرات تجميلها وأدوات عملها، وحتى لو كانت هاوية تعمل من أجل لذتها الخاصة فقط، فالصيغة السابقة ملائمة تماماً لمشـروعها، مناسبة ومريحة.

لتزيدنى علمًا، قالت سيمون إنها سئمت وكرهت الحياة المخملية التى كانت تحياها، وصارت تبغض الباشوات والبهـوات المـدهونين بالزيوت والعطور الفاخرة، وإنها لم تعد تطيق الأغنياء جـدًا، غنـى فوق ما يمكننى أن أتصور أو أتخيل. صارت تكره الشباب والكهـول المتكلفين وساديتهم المجنونة. لم تعد تطيق هؤلاء النـاس الـذين لا يشبعون أبدًا، وابتكاراتهم الشيطانية للحصول على متع ولذائذ خرافية من جسد الأنثى. جسد آدمى يعاملونه كقطعة لحـم فـوق مائـدتهم العامرة، وبعد أن يمصمصوا العظام حتى تلمع عارية، يلقونهـا مـن النافذة إلى عرض الشارع بلا أسف عليها، ويبدأون فى فتح أفواههم

الواسعة من جديد، والاستعداد لالتهام الوجبة الساخنة الجديدة.. وارتسم على صفحة وجهها الكثير من البغض والعداوة، وخرج صوتها من عمق طبقة القرار وهى تقول إن مجرد رؤيتها لأحدهم أصبحت تصيبها بالرعب، بالفزع والخوف. وسرحت صامتة مصوبة عينيها إلى الجدار وغابت منكفأة على نفسها، فسكتُ أتأملها وأفكر فيها.

بعد دقائق طويلة ابتسمت وانفرجت أساريرها التى كانت منقبضة، وهى تهمس حالمة بأنها تريد أن تعيش كمومس شعبية تنتمى للطبقة المتوسطة. حياة الشوارع ألذ، مغامرة أكبر، ومتعة أعظم!

إذا قُلبتْ حكاية سيمون عكسياً ستظهر الحقيقة خلف الكذب التجميلى المدروس بعناية فيما روته. سيمون تنتمى طبقيًا للطرف الأدنى فى الطبقة العليا، لديها شهوة عارمة يغذيها شبابها المزدهر، وجسدها الرائع الذى منحته عن طيب خاطر لعشاقها الكثيرين. كانت غير محترفة بالمعنى الحرفى، تقبل فقط الهدايا الثمينة المغلفة بالحب، بالوله والعشق، ربما أحبت هذا الرجل فعلاً، نجم البورنو الغائب خلف قضبان السجن، تركت لنفسها العنان معه، استهواها ساديته وابتكاراته المتتالية، فما تحصل عليه من متعة كان كثيرًا وباهظًا، وبعد فضيحة السى دى الذى تخطَّفه المراهقون، وأراقوا أمام صوره وعلى جسدها الكثير من المنى والتأوهات والعشرات، اجتنبتها الطبقة كلها، هرب منها عشاقها وتركوها وحيدة، لم يردوا على اتصالاتها

المتكررة، لم يسمعوا دفاعها. كانت، بالنسبة لهم، قد صارت مصابة بداء الجرب الذى يمكن أن ينتقل منها لكلابهم اللولو، وقططهم الثمينة، فنبذوها للأبد. فوجدت نفسها وحيدة، وحيدة تمامًا كجثة فى قبر. فكرت بنت الأصول التى صارت نجمة كمبيوترات القطر أن تفعل شيئًا مختلفًا. هى لن تحتمل الشوق للجنس الذى أدمنته منذ كانت فى الرابعة عشرة وشهوتها الطبيعية العارمة، فقررت بعد تفكير عويص طويل، أن تلفظ هى أيضًا من لفظها، أن تتحول للانتقام منهم جميعًا عبر إباحة جسدها لطبقة أدنى، طبقة آفلة وعدوة. ولأن سيمون لا خبرة لها فى احتراف البغاء وشئونه ومؤسساته فقد فكرت أن تبقى فردًا حرًا كما علموها فى المدارس الإنجليزية التى اجتازت امتحاناتها الصعبة. فكرت أن تملك إرادتها وجسدها وحياتها بنفسها، ولنفسها فقط، ولهذا تحولت إلى التجول فى الشوارع التقليدية للصيد، شارع الهرم، جامعة الدول، وسط القاهرة الزاهرة.. إلى آخره من فراديس الصيادين والحملان. وبقليل من التمثيل، وإجراء تعديلات أساسية على مظهرها السابق، مظهر الهانم المترفة، استطاعت أن تبدو مومسًا من طراز خاص ورفيع، يمكن أن تصادفها فى الشارع أمام فندق أو ديسكوتيك، ولوعيها بطبيعة الشارع المصرى الآن، استطاعت أن تلخص رموزه فى مظهرها الخارجى، باقتناء الطرحة العصرية، والبرفان الرخيص والمبالغة فى اللغة الشوارعية المطعمة بالإنجليزية، وقد أفلحت تمامًا فى تمثيل الدور، وإن لم تتخل تمامًا عن بعض الأرستقراطية يا بيبى !

هذه هى الحكاية التى أخمن أن سـيمون تخفيهـا بمهـارة، لا تعترف لنفسها بها أبدًا، وتواريها تحت قنـاع "أنـا أختـار حيـاتى بمزاجى، بمحض حريتى الشخصية".

قلت لها كل هذا، وشرحت لها نظريتى، بنت اللحظة، بكثير من الغلظة والجلافة، فلم يظهر عليها ضيق أو غضب. لم تسلم بشـىء، أو تعارض شيئًا، وصمتت طويلاً تنظر فى وجهى وتفكر !

بعد وقت ابتسمت ابتسامة لطيفة للغاية، وقالت إنها فى حاجـة إلى صديق مثلى، وإننا يمكن أن نصبح أصدقاء حقيقيين، نـتكلم فـى التليفون، يطمئن كل منا على الآخر، نخرج معًا لنشرب شـايًا فـى مقهى ونثرثر وندخن الشيشة التى تعشقها.. "ممكن نبقى أصحاب بجد يا بيبى".

رن جرس تليفونى المحمول، كان حارث، وكان صوته حزينًـا جدًا.

26

أم المصريين

أنزل السلالم قفزًا، أكاد أقع متعثرًا مصطدمًا بطرف الدرجة الأخيرة، أخرج مهرولاً من ظلمة مدخل بيت آل جبر العتيق إلى أضواء سعد زغلول، أجرى فى اتجاه الميدان، أصل ناصية مطعم المانش وأركض، أنعطف إلى اليسار على الطوار المزدحم وأنحرف مع تعرجاته الكثيرة، أوّسع لنفسى طريقًا بين زحام المارة وفرشات الباعة بحركة يدى اليمنى الممتدة أمامى تزيح الناس، وأعبر محركًا أكتافى وخصرى أتمايل يمينًا ويسارًا، تصطدم قدمى بخشبة فرشة "كل شىء كان"، ساقى تؤلمنى، أواصل الجرى، ألهث واضعًا يدى فوق صدرى، ألقف الهواء فاتحًا فمى، أمسح عرقى بطرف قميصى دون أن أتوقف حتى أصل ناصية شارع المحطة، أتوقف لحظة لألتقط أنفاسى وأبحث عنه، وسط زحمة المارّة أراه أمام كشرى زيزو واقفًا يتململ، ينظر لساعته ثم فى اتجاه قدومى، قميصه أبيض وببيونه أحمر وبنطلونه أسود، أتحرك نحوه، أسأله وأنا ألهث: " ما.. ماله شوقى يا حارث ؟ ".

يهز رأسه واجمًا: "مش عارف بالظبط، شوقى فى أم المصريين".

نسرع الخطى نحو الجنوب، نكاد نجرى فى سيرنا، لا نتبادل كلمة طول المسافة من شارع المحطة وحتى مستشفى أم المصريين، ندخل من باب المستشفى الرئيسى مذعورين، متلهفين على معرفة ما حدث لشوقى، ومترددين قليلاً ولكن خطواتنا تسبقنا، نعمل حسابًا للقاء أبيه.

نراه واقفًا وحده مستندًا على حائط فى مدخل مبنى الجراحة، ينفث دخانًا كثيفًا من منخريه الواسعين، عمامته قاتمة اللون وجلبابه واسع فوق جسده الضخم، بيده عصاه مغروسة فى التراب، وبيده الأخرى سيجارة، حانقًا يثبت بصره علينا ونحن نقترب منه. ما إن نصل إليه حتى ينفجر فورًا فينا قبل أن ننطق بشىء، ينفجر كلغم خامل دسناه بأقدامنا. يرفع عصاه فى وجهينا، يزعق، يشتم، يسب ويلعن، يتهمنا بأننا شلّة صايعة، عيال فاسدة على الرغم من الشعرات البيضاء التى بدأت تظهر فى رؤوسنا قبل الأوان، يزعم أننا نحن الذين أفسدنا ابنه منذ زمن طويل وخرّبنا حياته، وأبليناه بالسُكر والسطل وفجرنا مصرانه الغليظ، يقسم بالمسيح الحىّ أنه سيكسر أدمغتنا إذا جئنا ثانية ناحية شوقى أو رآنا نقترب من بيته، يلوّح بعصاه ويأمرنا أن نغور من وجهه فى ستين داهية. كأننا تلاميذ مذنبون فى ثانوى يحط علينا بلل وتهتهة وخجل، وننكس رأسينا لا ندرى ما نقول. يتجمع الناس حولنا من كل صوب على صوت المعلم

فرج الأجش العالى، نصير فرجة للخلق وهو لا يزال يواصل سبابه ثائرًا، يحاول حارث أن يهدئ من ثورة غضبه، يقول بمسكنة وتسليم إننا كما وصفنا تمامًا وأكثر، وإننا عيال فاسدة نستحق الحرق ولكن هذا ليس مهمًا يا عمى، المهم الآن شوقى، أن نطمئن على أخينا شوقى، ماذا حدث له وكيف ؟ يصرخ فى وجهينا، شوقى فى غرفة العمليات، مصرانه انفجر.. ارتحتوا؟! ربنا ينجيه، ويأخذكم أنتم يا أولاد الكلب.

أحضر له أحدهم كرسيًا وأجلسه وهو يربت على كتفيه "إهدا يا حاج إهدا، اقعد.. بس اقعد "، فجلس يلتقط أنفاسه، تتناثر فوق رأسه عبارات تطيّب الخاطر من أفواه الرجال والنساء: "سلامته، ألف سلامة"، "ربنا يجيب العواقب سليمة"، "يخرج منها متعافى متشافى آمين يارب"، "يا عين أمه يا اخويه"، "شدة وتزول"، "دى عملية بسيطة جدًا، أخويه لسه عاملها امبارح، والنهارده زى الفل"، "قلب أمه يا حبيبى"، "هو ابنك بيعمل عملية إيه بالظبط يا حاج ؟".

بإطناب وإسهاب أخذ المعلم فرج يشرح للناس تفاصيل ما حدث لشوقى، من لحظة دخوله البيت عائدًا من عمله فى نحو الثامنة مساء وحتى لحظة دخوله حجرة العمليات، ودورنا، نحن، الإجرامى فى سوقه إلى انفجار مصرانه، وتفاصيل سهرة الخميس الماضى. أنا كنت صامتًا، ووجهى فى الأرض، حاولت البقاء والاحتمال، الصعود إلى حجرة العمليات وتلقف أخبار العملية، ولكننى أحسست أننى ثقيل، ثقيل جدًا، وأننى يجب أن أمضى من هنا فورًا، أعطيتهم ظهرى

وخرجت إلى الشارع، ومشيت فى اتجاه الشمال وأنا أقاوم البكاء. يرن فى أذنىّ الكلام الكثير الذى سكبه أبوه فوق رؤوس الجميع، وهو يشوح بيديه ويرفع عصاه فى الهواء، ويخبط بها الأرض.

"شوقى ابنى الوحيد، رجلى الوحيد يا ناس، شاب ولم يدخل دنيا بعد، فى حجرة العمليات بين الحياة والموت، لا يعرف أحد هل سيخرج منها حيًا أم ميتًا، من ساعتين كان يجلس معى على السفرة مبسوطًا وفرحان، عاد من عمله فى شركة الأدوية فى ٦ أكتوبر فى موعده المعتاد مثل كل يوم، تعشى معى كالفل، ولأول مرة يجيب سيرة الزواج، فاتحنى فى الموضوع وهو خجلان كصبى صغير، وقال لى إنه زهق ومل من العزوبية، وإنه يريد أن يتزوج الدكتورة الصيدلانية جانيت التى تعمل فى صيدلية الجيزة الكبرى، قلت له عال عال يا شوقى، الدكتورة زين وبنت ناس طيبين، وكنت مبسوطًا على الآخر، نفسى أشوف له عيال قبل أن أودع، عيال يكبرون قدام عينى، قلت له "من العين دى قبل العين دى يا غالى.. والفلوس موجودة ما تشلش هم". ما عندى غيره، يا ناس، بعد سفر سميرة وغيبتها الطويلة فى كندا. أكل عشاءه حتى شبع، وباس رأسى، وقال لى "طول عمرك حنيّن يا معلم فرج.. يا جميل يا طيّب". طلع والفرحة لا تسعه لحجرته فوق السطح لينام. بعد وقت سمعت صراخًا وعويلاً، طلعت السلالم مفزوعًا يا خلق على ضنايا، لقيته يتلوى من الألم، يعصر بطنه بيديه ويصرخ مرعوبًا، ارتعبت أنا أيضًا، اتصلت فى الحال بالإسعاف ونقلته للمستشفى.. ربنا ينجيه، ربنا ينجيه ويأخذ الملاعين، وجوه الأذيه.."

مصران شوقى يكاد ينفجر ويقتله بلا مقـدمات، بـلا سـبب، الموت لا سبب له، الموت موت فقط.

وصلت قهوة فيشاوى الجيزة، رفعت يدى أحيى عمى الجـالس وسط شلته وقلت مساء الخير.

كالعادة، عمى يلعب دور شطرنج منهمكًا ومستغرقًا فيه، عندما يلعب الشطرنج ينسى الدنيا، ويحرك شفتيه كأنه يمضـغ شـيكولاته لذيذة. وأنا أبحث عن مكان خال رفع وجهه من فوق رقعة الشطرنج وصاح "تعالى يا أستاذ ربيع، اتفضل ". لم ينتظـر سـماع صـوتى، وعاد لرقعته البيضاء والسوداء، عساكره ووزيره، أحصنته وأفيلتـه، ومعاركه التى أفنى فيها نحو نصف عمره.

جلست فى خارج المقهى إلى طاولة فارغـة، وطلبـت شـايًا وشيشة.

27

سفـــر

لم أنهِ شرب كوب الشاى حتى وصل حـــارث، فجلـــس علــى الكرسى الخالى على الناحية الأخرى من طاولتى، واستدار ليواجهنى بوجه حزين، وأخذ يقرض أظافره بأسنانه وهو يتكلم.

قال إننى عملت خيرًا أن انصرفت فقد استمر المعلم فرج فــى سبابه وشتائمه، ومسح به بلاط المستشفى، وكاد أن يقوم من قعدتـــه ويمسك فى خناقه، ويكسر دماغه بعصاه بالفعل، وقال إن شوقى لـــن يخرج من حجرة العمليات قبل ساعتين.

قلت "ربنا معاه".

قال حارث إنه مرهق جدًا، وإنه سيذهب لحجرته لينام ساعتين، ثم يعود للمستشفى ؛ ليعرف نتيجة العملية ويحـــاول رؤيـــة شـــوقى نظرت فى عينيه مباشرة وقلت له بحياد قارئ النشرة:

"على فكرة.. أنا كنت فى البيت عندك، فى أوضتك".

سألنى باعتيادية، بلامبالاة تقريبًا:

"كويس.. مع مين يا لَه ؟"

"مع سيمون.. مش اسمها سيمون برضو؟"

من أعماقه شتمنى: " يا ابن الكاااالب.."

وسكتَ، فرفعت مبسم الشيشة إلى فمى، وصرت أسحب أنفاسًا طويلة متتالية، وأخرج من فتحتى أنفى وفمى دخانًا كثيفًا، يطيّره الهواء فى اتجاهه. حرّك يده أمام وجهه لينفض الدخان: " بعّد البتاعة دى بعيد عنى لو سمحت ". قلت " آسف ". وتوقفت عن شد الأنفاس، أحرك المبسم فى يدى بتوتر.

رشف رشفة من كوب شايه رافعًا وجهه إلىّ "ربيع..أنا.. خدت التأشيرة، وهسافر".

حط علىّ وجوم شامل.

"لورين بتسلم عليك، كنت معاها على الماسنجر إمبارح، سألتنى عنك وعن شوقى، بنت بنت حلال بصحيح".

نظرت إليه متسائلاً.

"طيّبة.. و.. بتحبنى".

لم أقل شيئًا.

"من دلوقتى بتدور لى على شغل، بتقول لازمنى شوية كورسات إنجليزى، وتدريب وشوية جدية ونظام وابقى بارمان محترم..النايت كلوبز تتهافت علىّ.."

رغمًا عنى قاطعته محدقًا فى عينيه "يا سلاااام".

غض بصره، وابتسم مداريًا خجله وعاد لقرض أظافره.

بعد لحظات تغيرت ملامح وجهه فبدا كمراهق حالم، ونظر بعيدًا: " نيويورك عاصمة العالم.. مدينة لكل الناس، ناس من كل شكل ولون ودين ولغة وجنس، ما حدش يبص للون جلدك، لملامح وشك، ولا يقول لك جاى منين، ورايح على فين يا اسود، وتاخد على قد ما تدى، بالحق، وبالاحترام و.."

"انت مصدق اللى بتقوله ده؟"

"مصدق مش مصدق، مش مهم خالص..أنا قايم، عايز أنام".

وقفت أخذته بين ذراعىّ، واحتضنته مربتًا على ظهره.

قال حارث، بصوت خفيض وبين جسدينا شبر واحد، إننى يجب أن آخذ بالى من نفسى وأن آخذ حذرى جيدًا، وإننى مكشوف ومفضوح، والموضوع فاحت رائحته، وإنه يخشى علىّ انتقام أنور جبر. سألته عن التفاصيل، كيف عرف هو ما بينى وبين نشوى ؟ كيف عرف أنور ؟ وماذا ينوى أن يفعل ؟ و..

قاطعنى قائلاً: "ما فيش حاجة بتستخبى.. أنا عملت اللى علىّ وحذرتك.. خلى بالك من نفسك كويس".

ومضى حارث بخطوته الواسعة فى الطريق إلى الميدان وجلست أنا أحدق فى ظهره.

هل أخاف حارث أيضًا، أخشاه، هل سيكون هو نفسه، اليد التى ستمتد إلىّ قبل أن يسافر بساعات، هو يعمل حارسًا لحساب الضابط، فلماذا لا يعمل كقاتل لحسابه أيضًا، لا توجد أفكار بيضاء وأخرى سوداء، كلها ليس لها سوى لون واحد، لون الدم الذى سيراق، ولا بد، ولاشىء أقل. لم أقلْ لحارث إننى برىء، لم أنف التهمة، لم أنكر، ولن أنكرها، ولكننى لا أستحق العقاب أيضًا ! لم أعلن له أننى مستسلم لأنور يفعل بى ما يشاء، ولم أقل إننى يائس، ولم أعد بشىء، لن أبتعد عنها، ولن أنساها، فلينسونى هم. ليس جديدًا أن يتعايش واحد مثلى مع الخوف والرعب، الخوف من القتل والموت كل لحظة، كل دقيقة، الأمر بسيط للغاية، يمكن فى الأحوال العادية جدًا، فى أية لحظة فى حياتى اليومية أن أموت فجأة، أن تصدمنى سيارة على سبيل الخطأ، أن أنام وأموت بذبحة صدرية ولا أستيقظ، ينفجر مصرانى الغليظ مثل شوقى، أن أموت فى حادث تصادم بعربة الإذاعة وأنا ذاهب أو راجع من عملى، أن أسقط بلا سبب ميتًا، أن تصيبنى رصاصة خطأ، أغرق فى البانيو وأنا مسطول، أية قتلة، أية موتة أخرى لا علاقة للضابط بها. فلماذا أنا جبان إلى هذا الحد ؟ أنا ما زلت أريدها، ولهذا أخاف فقدها. الموت لا يخيف فى حد ذاته، أنا

أخاف أن أموت لأننى ما زلت أريد الحياة، أرغب فيها، فى نشوى، أبتسم لذكرها، وأفرح بتخيلها معى ولى، لى وحدى، وهذا كاف جدًا لئلا أريد أن أموت.

على كتفى وضع عمى موسى يده وجلس قبالتى وهو يقول مبتسمًا:

"إااايه..سرحان فى إيه؟"

"أبدًا.. ما فيش".

"يا راجل ! قول كلام غير ده.. مالك يا ابنى؟"

سكتُ، أحدق فى وجهه الذى نحتت فوقه حياة السجون والتجارب القاسية أخاديد من التجاعيد والغضون والأسى. عمى استراح منذ زمن، وشال يده من الحياة برمتها فهل سيعود إليها من أجل خاطرى ومصيبتى.

"قول لى.. دا أنا اللى مربيك يا ربيع، ولاً نسيت..مش أنا اللى قلت الواد ده هيبقى حاجة كبيرة، بالتحديد مذيع.. مذيع مشهور و.."

ابتسمت لعمى الذى صار مرحًا وطيبًا بعد أن أقلع تمامًا عن العمل السياسى، وأصبح هادئًا هدوء مدمن بطّل شم الهيروين.

"عِيد ميلاد منى بكرة، لازم تحضر.."

"مني.. عيد ميلادها الكام ده يا عمى؟"

"كمان نسيت عندها كام سنة، ما تقولش لحد.. عنـــدها واحـــد وعشرين سنة يا سيدى.. انت عارف أنا خلفتهـــا إزاى؟!" وضـــحك عمى.

"لا مش عارف.. ما بعرفش فى الحاجات دى!"

وقهقهنا معًا ضاربين كفوف أيدينا الأربعة. وهو لايزال يضحك قال:

"خلفتها يا سيدى أثناء إجازة قصيرة بين اعتقالين.."

وقف عمى وسوى بدلته قديمة الموضة "ما تيلا.. مش مروح؟"

"شوية كده.."

وهو يهم بالانصراف سألنى " هتقرا نشرة سبعة بكرة؟"

"إن شاء الله".

"طب ما تقوم يا ابنى ريّح لك شوية".

"خمسة كده يا عمى واحصلك".

"براحتك.. تصبح على خير".

خير؟! من أين سيأتى.

ساهمًا همست وهو يعطينى ظهره ويمضى "وانت مـــن أهـــل الخير يا عمى".

على جدار المقهى، المواجه لى، كان كاغا مبتســمًا ومبســوطًا جدًا، يطل من بوستر ألبومه الأول "ما تسألش يا حنفى".

28
غـــــرق

أفضل كثيرًا أن يصير المرء وحيدًا. أريد أن أكــون وحيــدًا، وحيدًا تمامًا، أجلس مع نفسى وأدخن، وأفكر بهدوء ورويــة، ولكــن أين؟

وجدتنى فى نحو الثانية صباحًا فوق كوبرى عباس، الكــوبرى مازال عامرًا، الجو لطيف ومنعش، والناس كثيرون، فرادى وأزواج وعائلات، قاعدين على كراسٍ بلاستيك منخفضة يشــربون الشــاى، وحمص الشام من عربــات صــغيرة مركونــة بطــول الكــوبرى، وصيادون هواة يلقون سناراتهم وخيوط صيدهم الطويلة فــى المــاء، والأضواء خافتة تتراقص على صفحة النيل. أنزوى بعيدًا فى مكــان شبه معتم بحذاء السور القديم الموازى للشاطىء، أقفز فــوق الســور وأجلس على الحجر العريض، أمامى النيل وخلف رأسى بأمتار قليلة عمارتها البيضاء، ماذا تفعل نشوى الآن ؟ أهى هناك فى غرفتهــا ؟ وحدها فى شقة والديها؟ منْ معها، هى مع منْ؟ أو.. ربما تكون فــى شقة الزوجية، فى برج آل جبر بالبحر الأعظم فى اتجــاه الجنــوب.

بماذا تفكر الآن؟ هل تفكر فيّ؟ هل تشتاق إليّ؟

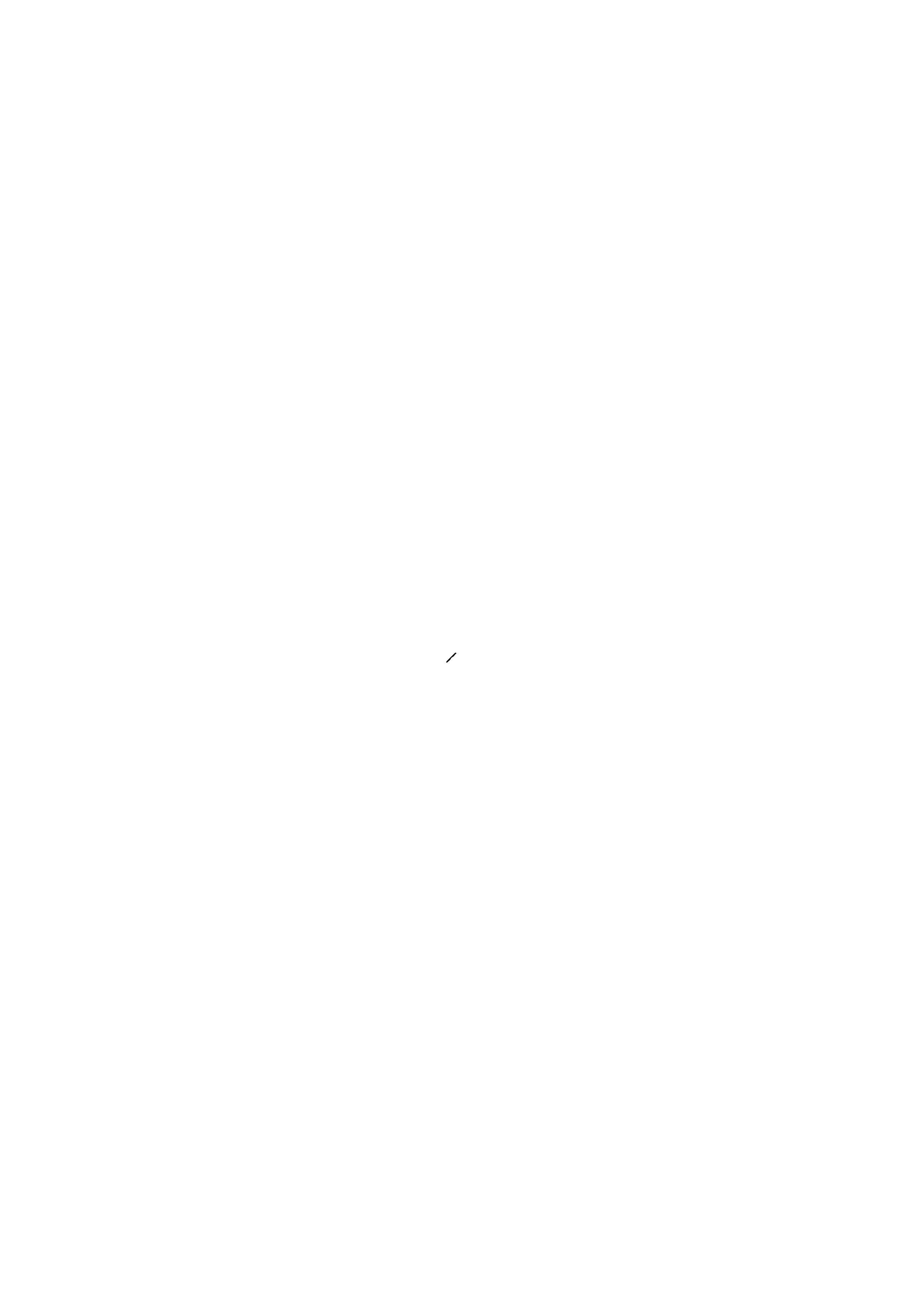
أرغب فى دفع نفسى إلى الانهيار، الانهيار التام الكامل، أن أصير مفلساً من كل شيء ككلب مشرد، أدمر حياتى كلها، كل تفاصيلها الكبيرة والصغيرة، دفعة واحدة، مرة واحدة نهائية وإلى الأبد. لا يوجد شيء بعد القتل، بعد الموت توجد الراحة حيث نوم طويل طويل ومريح، لا تتعب منه الأجساد والعظام وسلسلة العمود الفقري، سيكون الظهر قد تحلل تدريجياً، فلا داعى للخوف من آلام النوم الطويل. سأستلقى على التراب وتظللنى سماء سوداء، ولا حواس لى، أتحلل تدريجيًا وأختلط بأديم الأرض، ربما سأظهر بعد ذلك فى شكل عرق صبّار أو ساق زهرة، أو عشب برى ينبت بين تراب القبور. لماذا حين نشعر بانفجار العشق فى أنحائنا نرغب فى أن نموت فوراً، الآن، وهنا؟! أرغب فى الفرار من كل شيء، ومن نفسى. هو شخص غبى، تام الغباء، ذلك التلميذ الذى يكرر أخطاءه بسماجة وسذاجة، وأنا كررت عددًا هائلاً من الأخطاء والخطايا. دائما أقع فى الخطأ الواحد مرات ومرات عديدة. ليس جناية أن يرتعد الواحد ويقاسى برودة قارصة فى العظام بينما الحر لافح، ليس بلهاً أن يرتفع الصهد إلى الرأس ويشر عرق غزير من الجسد فى منتصف يناير بسبب نظرة وقعت فجأة على وجه بعينه، ربما لأننى رأيتها على حين غرة، عرفتها تلك الرغبة متجسدة، الجسد الحيوانى الكامل الذى رغبته دائمًا منذ شممت رائحة أول أنثى، رائحتها الحامضة الحريفة، رائحة اللبن المتخثر، الجلد، والثدى، وعرق تحت

الإبطين. نشوى، أيضا، ترغب فيّ كعاقر تريد ولداً، عاقر لا ترغب في شيء سوى الولد، من أجله تستطيع أن تحرق، تخمش بأظافرها العالم، تقتل كل من يقف في وجهها، رغبة مجنونة، طبيعية وشرسة، تريدني وأريدها بلا سبب، وبلا أمل. أرغب في الفرار منها، في تدمير حياتي بنفسي، سأفعل كل ما يقربني من موتي لأنني آثم ومريض، عشقتها على الرغم مني، على الرغم عني، لأنني أريدها وأرغب فيها، وأود نكاحها الآن وهنا وعلى الملأ، وإلى الأبد.

إذا قفزت في النهر الآن ستظهر جثتي بعد ساعات. في الصباح الباكر سأكون طافياً على وجه الماء منفوخ الجسد، بنطلوني بالونة ضخمة وقميصي كمنطاد، وجهي له لون أعشاب قاع النيل وطميه الأسود، يدفعني التيار ببطء نحو الشمال حتى أنحشر في قواعد كوبري عباس مائلاً ومفرودًا، وجهي الأخضر للسماء، طافياً مثل لوح فلين أجرد، ونتن الرائحة، يتجمع الناس فوق الكوبري ينظرون لجثتي، بعض الطلبة الذاهبون لمعاهدهم وكلياتهم، عمال وموظفون يتوقفون عن السير مأخوذين يحدقون في الغريق الجديد، تمتقع وجوه بعضهم، يظهرون الشفقة على سحنهم ويقلبون شفاههم، يحيّر بعضهم تخمين الحكاية التي تحملها بين جوانحها جثة غارقة مجهولة، الفتيات رقيقات القلوب يشحن بوجوههن بعيداً عن جثتي، مطلقات صيحات تألم خافتة تفلت من بين أصابعهن الموضوعة فوق شفاههن، يكون تألمهن واضحاً، ولكنهن لا يغادرن ولا يتركن الفرجة. يظل صمت طويل الحشد الواقف فوق الكوبري يتابع حركة الجثة، لن يمضوا قبل

أن يتأكدوا من المصير الروتيني لجثة منتفخة في النيل، لـن يفعلـوا شيئاً، فقط ينتظرون صامتين زوارق شرطة المسطحات المائية التـي تتلكأ في الحضور، وهؤلاء أيضًا لا يريدون وجع دماغ، يظهر أحدهم في زورقه المطاطي قرب نادى الجيزة الرياضي، يراقب مـن بعيـد راجياً أن يجرفني التيار، ويدفعني لأعبر كوبرى عباس واستمر فـي التحرك في اتجاه كوبرى الجامعة، حيـث أصـبح خـارج منطقـة مسئوليته وعمله و..

بعد زمن طويل أشفق أنا عليهم جميعاً، وأحس ببطونهم تتلـوى في طريقها للتقيؤ، وأرى على وجوههم علامات غثيـان واسـتفراغ وشيك، أترك جثتي هناك في موضعها على سطح الماء، وأذهب إليهم من جهة مستشفى الرمد هادئًا ووقوراً، ويداى في جيبـي بنطلـوني، ألقى نظرة على الجثة الطافية، وعلى رقابهم المدلدلـة نحـو المـاء، أقترب منهم، وأقول بحياد، بصوت آلة، صوت روبوت "لا تخـافوا.. لا تقلقوا.. هذه جثتي".



غـــد

29

اغتســــال

" ترررررررر.....".

رن المنبه الأسود القديم فوق الكومدينو إلى جــوار ســريرى. الرنين عال، طويل ومستمر، يملأ هواء الغرفة كله.

الخامسة صباحًا. اليوم الاثنين. يوم عودتى للعمل مــن أجــازة قصيرة أخذتها للتفرغ للغرام، لنشوى فــــ...

مضت أيامها الستة، ولياليها السبع، أسوأ وأحلك أيــام وليــالى حياتى، وما زال الأكثر سوادًا وحلكة ينتظرنى، سأفر منـــه مادمــت أتنفس.

لم أزل حيًا.

وأنا أنظر لوجهى فى مرآة الحوض البيضاوية خلعت البيجامـــة والفانلة والكيلوت الأبيض، وصرت عاريًــا تمامًــا كيــوم ولــدت، وخرجت من ظلمة رحم أمى. أشعر بمتعة الوحدة مع جسدى، بهجـــة

خلع الغلاف، وكشف نفسى، أحس بنزق التجرد من الملابس والثقل كطفل، أحس بلذة العرى التامة.

حلقت شاربى، ولحيتى التى طالت كثيرًا مرتين.

استدرت وفتحت مفتاحى الدش، الساخن والبارد، إلى آخرهما. أزلت الشعر المجعد، الهش الطويل تحت إبطىّ وحلقت شعر عانتى من جذوره، بمعجون جديد وماكينة حلاقة جديدة. بعد أن انتهيت ألقيت الماكينة فى سلة المهملات بالركن.

بطرف الوسطى فى يدى اليسرى وزعت بقعًا، دائرية صغيرة من كريم تنظيف البشرة بالنعناع، على صدرى وبطنى وكتفىّ، ووقفت فى البانيو تحت الماء الغزير النازل من مصفاة الدش، حككت كل جزء فى جسدى بكوز لوف جديد، أبيض وخشن، تخللت وغسلت، بعناية مفرطة، كل الثنايا، والزوايا، والأركان، ما بين الأصابع وما بين الفخذين، من الأمام والخلف، من أعلى صوان أذنىّ حتى باطن وكعب قدمىّ.

اغتسلت مرة واثنتين وثلاثًا تحت شلال الماء المستمر برغاوى الصابون الكثيفة والشامبو والكريم حتى لمع جلدى، وصار طريًا وأحمر، صرت نظيفًا كمرآه مصقولة، وطاهرًا كحاج، كمؤمن فى طريقه للدار الآخرة.

رفعت رأسى لأعلى وللخلف، ببطء حركت رقبتى حول

محورها صانعًا دوائر من اليمين لليسار والعكس، وأغمضت عينيّ، وغبت في تتبع الإحساس بظلمة جسدي العاري، تركت رشاشات الماء الساخن تنساب على شعري ووجهي وجسدي، على صدري وظهري لزمن طويل ممتد، أتنفس بعمق وأكتم الهواء بصدري، أفتح شفتيّ وأخرج زفيرًا بطيئًا، يتوالى شهيقي وزفيري كأنّات ريح لطيفة، وصدى صوت أنفاسي ترردده حيطان السيراميك الأبيض، والسقف الأصفر المنخفض، تيار الماء على صدري وظهري يسري حارًا ولاسعًا، يتدفق على جلدي وعلى جسدي كله فأغيب في خدر لذيذ. رأسي فارغ من كل شيء. أنظر في باطني، وأكثف إحساسي بذرات الماء. أحس ببخار ضعيف يتسلل لهواء الحمّام، بنعومة وخفة يتحرك في الفراغات وينتشر ببطء. يتجمع على مهل، شيئًا فشيئًا، فوق بنورة المرآة فيختفي سطحها اللامع تحت خيوط البخار. البخار ألسنة رقيقة دافئة تحيطني، تصعد من حولي، من اليمين واليسار، ومن البلاط إلى السقف. تغيب حوائط الحمّام الأربعة، والباب والمرآه والسقف، وتتوارى رويدًا رويدًا وراء سحب البخار البيضاء. كل مسام جسدي مفتوحة، ومنتعشة. عيناي مغمضتان في ظلمة رحيمة، جسمي خفيف، خفيف للغاية، مرتو وشبعان، ومكتمل.

ينحل جسدي ببطء، ببطء شديد. يتلاشى الزمان، ويغيب المكان حولي، فوقي وتحتي، عن يميني وعن شمالي. كل شيء صار فراغًا أبيض، غابة سحب بيضاء تطير وتركض، سماؤها بخار أبيض، هواؤها ضباب كثيف ممتد، سديم، سديم لا متناه.. سدييييييم...

30

عبـــــور

ارتديت بدلتى السوداء الفاخرة، ونثرت عليها، وعلـــى خـــدىّ ورقبتى، قطرات من عطر جوتشى. فرحان بالحياة والصباح خرجت إلى العمل.

السادسة إلا الربع صباحًا، الميدان شبه خـــال وهـــادئ نســـبيًا، أصواته قليلة متباعدة، صخب وضجيج النهار المعتاد لم يبـــدأ بعـــد. مازالت أضواء أعمدة الإنارة فوق الكوبرى، والمصابيح واللافتـــات المضيئة على واجهات البنايات، تمد الميدان بأضواء صفراء شاحبة، وسماؤه ما زالت تلملم خيوط الظلمة، الشمس لم تشرق فيه بعد.

فى مثل هذه الساعة يبدو الميدان فضاءً واسعًا ورحبًا، المتاجر والمحلات والدكاكين مغلقة فى أرجائه، والمشـــاة مـــازالوا قلائـــل، يظهرون فرادى هنا وهناك. موظفون وعمـــال يســـيرون بخطـــوات واسعة فى اتجاه محطات الأتوبيس والمينى باص والميكروباصـــات، وبعض التلاميذ والطلبة والكثير مـــن الطالبـــات، لابســـات الـــزى المدرسى الكحلىّ، يسيرون فى اتجاه المدارس والجامعة.

السيارات القليلة تعبر الميدان مسرعة فى كل اتجاه، فى اتجـــاه الجامعة، مراد، كوبرى عباس، الهرم، ونحو جنوب الجيزة.

أمام مدخل سينما الفنتازيو ينام برهان، على أحجار الرصـــيف البيضاء والسوداء، شادًا فوق بدنه الضخم بطانية جيش قديمة، وتحت دماغه الكبير ربطة صحف. أمامه فرشة جرائده الممتدة ثلاثة أمتار، تلال من الصحف والمجلات المصرية والعربية والأجنبية، بالعربيـــة والإنجليزية والفرنسية فوق أقفاص فاكهة مقلوبة.

أخذت الجرائد الثلاث من فوق أقفاص الجريد، ووضعتها تحت إبطى. نزعت يده اليمنى من تحت دماغه، فتحتها ووضعت الفلـــوس فيها. تلمّسها بأصابع سمينة، وقفل قبضة يده عليها. لم يفتح عينيـــه، وواصل نومه وشخيره الخافت.

أعطيته ظهرى، ومضيت لناصية الصناديلى حيث أنتظر عربة الشفت، كالمعتاد.

نسمات باردة منعشة تعبر على وجهى وأذنى وشعرى.

مبتسمًا أمشى باتجاه عبده.

أمام بنك مصر عربة البليلـــة الحديديـــة الصـــغيرة. تجـــذبنى روائحها الدسمة، وكثافة البخار المتصاعد من حلتها المعدنية الكبيرة، وعبده وجه أبيض وشعر أحمر ولحية لطيفة هائشـــة. ســـاذج جـــدًا،

ويعمل بهمة وابتسامة دائمة مرحبة بزبائن آخر الليل وبواكير الصباح.

طعم القمح واللبن يذكرنى بطفولتى فى شوارع الجيزة، قبل الذهاب للمدرسة كنا نأكل البليلة فى الجهة الأخرى من الميدان، قدام النفق، أمام السور العالى الأصفر لمدرسة أبى الهول. كانت خضرة العجوز تضع حلة هائلة فوق طبلية خشبية دائرية. تتلفع بشال أسود وتصب القمح واللبن فى أطباق بلاستيك عميقة وصغيرة.

"طبق بالكنافة يا عبده".

"عينى يا أستاذ ربيع".

أنظر لساعتى، ما زال أمامى ربع ساعة على وصول سيارة الشفت.

نور النهار بدأ ينتشر ببطء قادمًا من الشرق، حيث المقطم والنيل، وأنا آكل ببطء واستمتاع، مذاق الحليب والقمح ما زال حلوًا فى فمى، كأننى الطفل نفسه الذى كان. قلبى خفيف، ومزاجى رائق.

"هتقرا نشرة سبعة يا أستاذ ربيع؟"

صوت عبده خافت ورقيق.

"إن شاء الله".

"طب ما تقول فى النشرة حاجة عن بليلة عبده".

وضحكنا.

وصلت عربة الإذاعة يقودها شعبان.

بعد صباح الخير يا شعبان قفزت إلى جواره، وانطلقنا باتجاه كوبرى عباس لنعبر إلى المنيل.

نفخ شعبان "اصطبحنا وصبح الملك لله.. إيه الخرا ده على الصبح؟!"

أشار لى بيده للمرآه الجانبية إلى جوارى.

"شوف حضرتك".

نظرت فى المرآه عن يمينى، رأيت ميكروباص فيلوكس رمادى يحاول العبور من الجانب الأيمن لعربتنا.

"لا مؤاخذه يا أستاذ ربيع، مضطر".

شعبان أصر على مضايقة الميكروباص فصار يطوح السيارة يمينًا ويسارًا مانعًا إياه من العبور.

أتأرجح أنا أيضًا، وأمسك بالباب بيدى اليمنى وبظهر مقعد شعبان باليسرى.

تصاعد من الميكروباص خلفنا صوت غليظ أعرفه "وشع.. وشع يا لَه يا بتاع الإذاعة، وشع".

أشرت لشعبان بيدى أن يكظم غيظه وألاّ يرد.

خرجت دماغ سيد العقر من الشباك "وشع يا لَه للباشا، عايز أعدى يا روح أمك".

نظر إلىّ شعبان حانقًا، وبعينيه سؤال حائر.

صحت "كفاية، كفاية.. النشرة النشرة، الهوا يا شعبان".

ارتفع صوت العجوز "يا لَه اركن.. يا حمار".

زفر شعبان "ورحمة أبويه انزل له اقطعه..ابن ال..".

بفزع صرخت "معلش يا شعبان سيبه يغور.. الهوا.."

بامتعاض وغيظ ركن شعبان يسارًا، وفتح الطريق أمام العجوز العقر.

عبر العقر عن يمينى، وهو يشخر ويقهقه، وإصبع الوسطى تنقبض، وتنبسط فى يسراه.

"هاها.. أنا الباشا يا كلاب".

كان ميكروباصه يتأرجح، كقطع منفصلة من الصفيح والحديد والزجاج مضمومة إلى بعضها البعض بغراء فاسد. الميكروباص يتمايل ويشخلل، ويكاد يتخلع من بعضه فوق الكوبرى، يصفر، ويتمزق من جنون القيادة ونزق العجوز الطاعن.

تخيلت أن الميكروباص سينفجر من داخلــه كقنبلــة موقوتــة ضخمة، تتطاير أبوابه وشبابيكه ومقاعده مع أجساد ركابه الدامية فى الهواء، قبل أن يصل إلى النفق الآخر، نفق الملك الصالح.

رمقنى شعبان بوجه ساخط غاضب "ماله البنى آدم ده ؟؟"، "هو فيه إيه ؟!"

لم أتكلم، وأشحت بوجهى نحو النيل، فسكت.

بعد دقيقتين من الصمت قال: " تصدق بالله ؟ "

"إيه ؟"

"ما حدش فاهم حاجة".

أومأت برأسى صامتًا.

محدثًا نفسه، طيلة المسافة من شارع القصر العينى حتى مبنــى الإذاعة والتليفزيون على الكورنيش، ظل شعبان يردد بصوت خافت مرتعش "ما حدش فاهم حاجة.. ماحدش عارف حاجة".

31

سرّى للغاية

... عندما رددت ساعة جامعة القاهرة دقات السابعة صباحًا كنت فى استوديو ١٢، استوديو الهواء. أجلس على مقعدى خلف الميكروفون، بين يدىّ أوراق نشرة الأخبار كاملة، وقد راجعتها مرة واثنتين وثلاثًا.

كنت عى كامل استعدادى لقراءة النشرة بالخبر الأول فى موجز الأنباء، فجأة، وقف مهدى مخرج الهواء، خلف الحائط الزجاجى لغرفة الكنترول. انتصب هلعًا، ولوّح بيديه الاثنتين المرتعشتين أن أبقى صامتًا، وألاّ أبدأ قراءة النشرة.

مع تلاشى صوت دقات الساعة، وبلا لحظة صمت أنزل مهدى بسرعة فائقة فاصلاً موسيقيًا يدوم ٢٠ ثانية فحسب، اتنتر من مكانه وقفز نحوى. أخرج من جيبه ورقة وصلته منذ ثوان، فوقها خاتم أحمر "سرّى للغاية". فتحها بسرعة، ووضعها فى يدى الممدودة إليه محركًا السبابة أمام فمه، همس وجسده كله يرتجف "خبر عاجل جدًا".

نظرت إلى الورقة فى يدى، مررت عينىّ على السطرين مذهولاً مصدومًا، سرت فى جسدى قشعريرة مباغتة، وأصابنى وجوم كامل للحظات، موسيقى الفاصل على وشك الانتهاء، تنحنحت بصوت خفيض، ووضعت فى صوتى كل الحياد المهنى الممكن تصوره، وبدأت قراءة الخبر الصاعق، والعاجل جدًا:

"السيدات والسادة.. نشرة أخبار السابعة صباحًا، يقرأها عليكم ربيع الحاج......

الجيزة، ربيع ٢٠٠٨

فهرس

* * *

شكر ومحبة

خالص شكرى وامتنانى لأصدقائى المبدعين: أحمد اللباد، خالد خليفة، دينا قابيل، سعيد الوكيل، سيد محمود، صموئيل شمعون، عماد أبوصالح، عزت لبنه، مكاوىِ سعيد، وهمفرى ديفيز.

وللجميلة روضة سلام، ونديم.

لولا مساندتكم ودعمكم ومحبتكم ما اكتمل وتم هذا العمل.

حمــدى


لذات سرية
"ينمو فى أعضائى جزع يفح وينفخ، يترسخ في قرارة قلبى،
ويمنعنى من أن أصير كهؤلاء اللامبالين بالموت، المندفعين
في الشوارع والميادين سعيا وراء ما يسمى بالحياة.
انا، منذ البدء ، منذ رأيت نشوى للمرة الأولي سعيت لحتفى،
سعيت كأعمى ظامئ إلي النهر لإشرب ، ولأنني لا أرى ؛ فقد
شربت أحلى وأعذب ماء ممكن ، ورويت برمتي حتي عنقى ،
ثم زلت قدمي ، وسقطت في اليم . أحس الفساد والعطب
يصيب أجزاء من جسدى وروحي كل ثانية، كل لحظة،
وأصبح الخوف يمضى معي أينما حللت كظلي، يلتصق بى،
يقنع وجهى ؛ فيعمى بصري ويسد أنفى وأذنى، ويشل حواسى كلها."
حمدي الجزار روائي شاب درس الفلسفة بجامعة القاهرة .
حازت روايته الاولي "سحر أسود"
اهتماما واسعا من النقاد والقراء علي السواء، ونالت جائزة
مؤسسة ساويرس للأدب المصرى ٢٠٠٦،
وترجمت إلي الإنجليزية. "
" لذات سريه رواية الجزار الجديدة عمل فنى متميز يسر (الدار) نشرها."
الناشر
تصميم الغلاف عمرو الكفراوي
الدار للنشر والتوزيع